المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

مجلة البحوث والدراسات القرآنية

مجلة علمية محكمة متخصصة بالقرآن الكريم وعلومه

العدد العشرون - السنة الثانية عشرة
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
في سطور

الافتتاح: نظراً لازدياد حاجة العالم الإسلامي إلى المصحف الشريف، واضطلاعاً من المملكة العربية السعودية بدورها الرائد في خدمة الإسلام والمسلمين، واستشعاراً من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - رحمه الله - لأهمية خدمة القرآن الكريم، من خلال جهاز متخصص ومتفرغ لهذا العمل الجليل، قام بوضع حجر الأساس لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في السادس عشر من المحرم عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٢م)، وافتتحه رحمه الله في السادس من صفر عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م). وكان له عند وضع حجر أساس هذا الصرح المبارك كلمة ضافية جاء فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى بركة الله العلي القدير ... إننا نرجو أن يكون هذا المشروع خيراً وبركة لخدمة القرآن الكريم أولاً، ولخدمة الإسلام والمسلمين ثانياً، راجياً من الله العلي القدير العون والتوفيق في أمورنا الدينية والدنيوية وأن يوفق هذا المشروع الكبير لخدمة ما أنشئ من أجله وهو القرآن الكريم، لينتفع به المسلمون وليتدبروا معانيه "

أهم أهداف المجمع: طباعة المصحف الشريف وتسجيل تلاواته بالروايات المشهورة في العالم الإسلامي، وترجمة معانيه وتفسيره، والعناية بعلومه، وبالبحوث والدراسات الإسلامية، والوفاء باحتياجات المسلمين داخل المملكة وخارجها من إصدارات المجمع المختلفة، ونشرها على الشبكة العالمية .

الإشراف على المجمع: تتولى وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد الإشراف على المجمع، ومعالي الشيخ الدكتور عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد هو المشرف العام على المجمع ورئيس هيئته العليا. ويتابع تنفيذ سياسات المجمع وتحقيق أهدافه الأمين العام للمجمع الأستاذ الدكتور محمد سالم ابن شديّد العوفي.

الهيئة العليا للمجمع: تختص الهيئة العليا للمجمع بعدد من المهام، منها: رسم الخطط والأهداف العامة للمجمع وسياسات تطبيقها، والإشراف على تنفيذها، وإقرار اللوائح والأنظمة التي يحتاج إليها المجمع.

المجلس العلمي للمجمع: تتضح مهامه واختصاصاته في دراسة الشؤون العلمية وفقاً لأهداف المجمع، واقتراح ما يؤدي إلى تطويرها، ودراسة القضايا والبحوث ذات الصبغة العلمية، والنظر في التقارير المرفوعة من المراكز المختصة.

إحصاءات وإنجازات:

- يضم المجمع الجهات العلمية التي تقوم على إعداد إصداراته وإخراجها، كما تتوافر فيه أحدث التجهيزات في مجال الطباعة، والتسجيل الصوتي على الأقراص المدمجة، والوسائط المتعددة.
- **ينفرد المجمع بنظام رقابي متطور،يطبَّق في جميع مراحل إنتاج العمل منذ الخطوات الأولى في إعداده، مروراً بمراحل الطباعة المختلفة، وتضم إدارة الجودة بأقسامها بالمجمع (٤٦٢) موظفاً؛ وذلك لضمان سلامة النصوص، وإخراج إصدارات المجمع خالية من العيوب والأخطاء.**
- تجاوز عدد ما أصدره المجمع (٣٠٠) من الإصدارات الهامة، في شتى العلوم التي يُعنى بها المجمع، ومنها نحو (٧٤) ترجمة لمعاني القرآن الكريم بلغات العالم المختلفة، ولايزال العمل جارياً لإخراج المزيد من الإصدارات المفيدة بعون الله تعالى.
- اعتباراً من هذا العام ١٤٣٩هـ سيتراوح إنتاج المجمع السنوي من (١٨) إلى (٢٠) مليون نسخة.
- وزع المجمع عشرات الملايين من إصداراته في مختلف قارات العالم هدية من المملكة العربية السعودية، منها نحو مليوني نسخة سنوياً هدية من خادم الحرمين الشريفين إلى حجاج بيت الله الحرام.

دعم المجمع: يلقى المجمع دعماً متواصلاً ورعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز حفظهما الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

حُرُوف مُضِيئَة

كلمة خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله

لدى افتتاح المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كنت قبل سنتين في هذا المكان لوضع الحجر الأساسي لهذا المشروع العظيم في هذه المدينة التي كانت أعظم مدينة فرح أهلها بقدوم رسول الله ﷺ فرحوه له في شدائد الأمور وانطلق منها الدعوة دعوة الخير والبركة للعالم أجمع وفي هذا اليوم أجد الله ما كان حلماً يتحقق على أفضل مستوى ولذلك يجب على كل مواطن في المملكة العربية السعودية أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني الله لأن أقوم بخدمة ديني ثم وطني وجميع المسلمين وأرجو من الله التوفيق.

فهد بن عبد العزيز آل سعود

١٤٠٥/٦/٦

حُروف مُضيئة

كلمة خادم الحرمين الشريفين
الملك عبد الله بن عبد العزيز رحمه الله
لدى افتتاح المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أحمد الله الذي يسّر على يد أخي صاحب السمو الملكي نايف بن عبد العزيز هذا العمل الجليل وأكرمه به فإنه العمل الخالد هو الذي يبقى وهو الذي يلتقي دائماً وعلى مرّ الأجيال بقلوب المسلمين في شتّى أنحاء العالم ، وليس في يقيني أجل وأعظم من هذه المشاريع الخالدة وإني لن أكون إن شاء الله سحابة صيف ولكنها ستظل الرمز العظيم لعهد يبني ويعطي أسخى العطاء في أطهر بقعة في أكرم مدينة ، منها انطلقت الرسالة السماوية إلى العالم أجمع تحمل الهداية وتُنير الطريق للحائرين والمظلومين على وجه الأرض ، رسالة أكرمت الإنسان وظلّت شاملة متكاملة ما بقي زمان ومكان لم تحن رقبته الى الأرض ولم تقطع أمله من حياة خالدة وتقول لوشيء غير هذه الحياة الفانية وإذا كانت اليوم هذه المدينة العزيزة على نفوسنا محل اهتمام الدولة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي فهذا حقّها وهذا واجب لا عذر فيه لنا جميعاً ، أقول هذا وأؤكده من صميم قلبي ومن إيماني بحق هذه المدينة العزيزة .

وبهذه المناسبة الجليلة لا يفوتني من أن أترحّم على شهداء الإسلام من أنصار ومهاجرين أعطوا دمهم وحياتهم وكل ما يملكون وأنه كان بهم خصائص فالإيثار الذي به يعتز كل مسلم يجب أن نتذكره ونستحضره دائماً في عيد الرخاء لأولئك الرجال العظام .

وفّقه الله كل من ساهم أو يساهم في هذا العمل الكريم والسلام عليكم ورحمة الله

١٤٠٥/٩/١٠هـ

عبد الله بن عبد العزيز آل سعود

حُروف مُضيئة

كلمة خادم الحرمين الشريفين
الملك سلمان بن عبدالعزيز يحفظه الله
لدى زيارته المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

بفضل من الله وتوفيقه ثم بجهود الملك فهد بن عبدالعزيز في إقامة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف والذي زرته اليوم السبت ١٤٠٧/٢/٢٢هـ قد قرأت وشاهدت من الصحافة والتلفزيون عنه الكثير لكني رأيته اليوم يفوق كل التصور إذ عمل كهذا يظل خالداً في السابع من أعماله في إقامته هو خدمة كتاب الله وما يحمله من هداية للبشرية جمعاء ووجود هذه المؤسسة في هذه البقعة الطاهرة يملأ النفس فخراً بالفضل والرضا.

أرجو من الله عز وجل أن يوفق جهوده لكل عمل فيه نفع للإسلام والمسلمين وأن يوفق العاملين فيه لما يحبه ويرضاه والله ولي التوفيق

سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

١٤٠٧/٢/٢٢

أهداف المجلة

تهدف المجلة إلى تنشيط البحث العلمي، والإسهام في نشر الدراسات والبحوث المعنية بالقرآن الكريم وعلومه، محاكية لرسالة مكتبة الدراسات القرآنية، وتدعو إلى التواصل العلمي بين المختصين في هذا المضمار.

وتحقيقًا لهذا المقصد، فإن مجال النشر في المجلة يشمل: الدراسات والبحوث، وتحقيق المخطوطات، وقضايا ترجمة معاني القرآن الكريم.

تكون المراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

مجلة البحوث والدراسات القرآنية
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
ص. ب: ٦٢٦٢ المدينة المنورة ٤١٤٤٢
المملكة العربية السعودية
هاتف وناسوخ: ٠٠٩٦٦-١٤-٨٦١٥٥٥٢
journal@qurancomplex.gov.sa

مجلة
البحوث والدراسات القرآنية

العدد العشرون - السنة الثانية عشرة ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

هيئة التحرير

المشرف العام

معالي الدكتور عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ

وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، المشرف العام على المجمع

رئيس التحرير

أ.د. محمد سالم بن شديد العوفي

الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

نائب رئيس التحرير

د. معيض بن مساعد العوفي

نائب الأمين العام للشؤون العلمية

مدير التحرير

د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي

الأعضاء

أ.د. أحمد بن محمد الخراط

أ.د. عماد بن زهير حافظ

د. حازم بن سعيد السعيد

د. مصطفى بن عمر جلبي

رقم الإيداع ١٤٢٦/٦٢٢٢ ردمد ٢٦٢٤ - ١٦٥٨

جميع حقوق الطبع محفوظة
لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

قواعد النشر

تلتزم المجلة في نشر المواد العلمية بالقواعد الآتية:

- أن تسهم في تحقيق أهداف المجلة.
- ألا تكون منشورة أو مقدمة للنشر في جهة أخرى.
- ألا تكون جزءاً من بحث منشور للباحث، أو من رسالة نال بها درجة علمية.
- أن يراعي الباحث قواعد البحث العلمي الأصيل ومنهجه، وأصول تحقيق التراث الإسلامي.
- أن تكون متميزة من حيث الابتكار، والإضافة العلمية، وسلامة المنهج.
- أن يُشار إلى الدراسات السابقة حول الموضوع، والجديد الذي أضافه البحث.
- أن تصدَّر بملخص باللغتين العربية والإنجليزية لا يزيد على صفحة، يتضمن أهم محاور البحث ونتائجه.
- ألا تزيد صفحاتها على خمسين صفحة، ولا تقل عن عشر صفحات.
- أن يقدم الباحث تعريفاً موجزاً بسيرته العلمية، وعناوين الاتصال به، وعنوان بريده الإلكتروني إن وُجِد.
- أن يقدم الباحث خمس نسخ مطبوعة من مشاركته، وأن تصاحبها نسخة إلكترونية مدخلة بواسطة برنامج ميكروسوفت وورد (الإصدار ٢٠٠٣)، أو ما يتوافق معه.
- لا تعاد المادة إلى صاحبها، سواء أنشرت أم لم تنشر.
- يُمنح صاحب كل بحث مكافأة مالية، ويعطى نسختين من العدد المنشور فيه بحثه، وعشر مستلات خاصة ببحثه.
- لا يحق للباحث إعادة نشر بحثه إلا بإذن خطي من رئيس تحرير المجلة.
- يتم ترتيب المشاركات في المجلة على أساس حروف المعجم لعناوين البحوث في الموضوع الواحد.

منهج التوثيق

- إلحاق نماذج واضحة من المخطوطات التي اعتمدها الباحث.
- التوثيق في الحواشي لا المتن.
- إثبات حواشي كل صفحة في الصفحة نفسها، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً.
- اختصار الحواشي التعليقية ما أمكن.
- ألا يشار في الحواشي إلى بيانات طباعة المرجع المحال عليه، إلا عند اعتماد الباحث أكثر من طبعة.
- ضبط المشكل من الأعلام، والأمكنة، والكلمات.

- مراعاة الابتداء بالتاريخ الهجري في كل ما يؤرَّخ.
- استخدام علامات الترقيم.
- أن تضمَّن قائمة المراجع جميع الأعمال التي تمت الإشارة إليها في البحث.
- يكون ترتيب المراجع في الفهرس الخاص بها ترتيباً هجائياً بحسب عنوان الكتاب، مع استيفاء بيانات الطبع.
- ترتَّب المراجع في قائمة واحدة، مهما كانت طبيعتها ومجال تخصصها.
- إفراد قائمة للمراجع الأجنبية، مستوفية بيانات الطبع، مع ذكر اللغة التي كتبت بها.

مواصفات النشر

- مقاس الكتابة الداخلية: ١٢سم × ١٨سم.
- نوع الخط: Traditional Arabic.
- العناوين الرئيسة: الحجم ٢٠ مُسْوَدّاً.
- العناوين الفرعية: الحجم ١٨ مُسْوَدّاً.
- المتن: الحجم ١٧ غيرَ مُسْوَدٍّ، إلَّا الأبيات الشعرية، فتكتب بخط مُسْوَدٍّ.
- الآيات القرآنية: الحجم ١٨ مُسْوَدّاً، وتكتب على النحو التالي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].
- تكتب القراءاتُ الشاذَّةُ والأحاديث النبوية والآثار بين قوسين عاديين هكذا: ( )، بحجم ١٨ مُسْوَدّاً.
- تكتب النقول بين علامتي تنصيص « ».
- الحواشي السفلية بحجم ١٢ غير مُسَوَّدة، وتوضع أرقام الحواشي بين قوسين.

مجلة
البحوث والدراسات القرآنية

فهرس المحتويات

كلمة معالي المشرف العام على المجلة ١٣

كلمة رئيس التحرير ١٥

أثر الرسم العثماني في التفسير

د. سامي بن مسعود الجعيد ١٩

الأرض التي يورثها الله لعباده الصالحين: دراسة قرآنية ومقارنة نقدية

أ. أبو محمد محمد بن فريد ٦١

التوازن في المنهج القرآني وآثاره التربوية

د. جمال الدين أحمد القادري ٩٩

دراسة حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق

د. زينب بنت عبد المحسن العباد البدر ١٥٥

وقفات تربوية في قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

د. أمجد بن محمد زيدان ١٨٥

أخبار المجمع ٢٣٧

من إصدارات المجمع ٢٤٧

كلمة
معالي المشرف العام على المجلة

الحمد لله الكريم الوهَّاب، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فها هو مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف يمضي قُدُماً في خدمة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فيُقَدِّم نصَّه الشريف إلى أرجاء العالم الإسلامي مطبوعاً في مطابعه العامرة، بأبهى حُلَّةٍ متألِّقة، بعد أن خضعت كل كلمةٍ فيه للمراجعة العلمية الدقيقة، وعالجت إخراجَه إدارةٌ فنية مؤهلة. وهذا الكتاب الحكيم جدير بهذه الخدمة والرعاية. وقد شرعت وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد في تنفيذ اللائحة الجديدة للعمل في المجمع، فتضاعف الإنتاج العدديُّ من المصاحف الشريفة، وفق الضوابط الدقيقة التي رَسَمَتْها الوزارة؛ خدمةً للمسلمين الذين يتطلعون لتلاوة القرآن المجيد، وهم يأمُلون أن يكون «مصحف المدينة النبوية» مصاحباً لهم، وأمام أعينهم.

ويُرافق طباعةَ نَصِّ المصحف خدمةُ علومه، فها هو المجمع من خلال فريقه العلمي المختص يعكف على إعداد الدراسات والبحوث العلمية الرصينة، المتعلقة بعلوم القرآن الكريم، ليُقَدِّمَ إلى محاضن العلم وطُلَّابه المصنفات والتحقيقات والفهارس التي تنشد المعارف القرآنية. ويسرني أن أتقدَّم بين يدي العدد العشرين من «مجلة البحوث والدراسات القرآنية» التي يُصدرها المجمع، بدعوةِ أصحاب الفضيلة العلماء والباحثين المختصين بالدراسات القرآنية، إلى أن يُدْلُوا بدَلْوِهم، ويَصُوغوا ثمرات أقلامهم وعقولهم، ويضعوها بين يدي هيئة تحرير المجلة، وسوف يرون منها اهتماماً ومتابعة. وبفضل من الله حقق موقع المجلة على الشبكة العالمية إقبالاً حثيثاً من قِبل طلبة العلم ومراكزه. وما هذه المجلة إلا مظهر واضح للجهود العلمية الموفقة التي ينهض بها هذا الصرح المبارك.

وإني إذ أحيي أمانة المجمع، وفريقها العلمي وهيئة تحرير المجلة، وأشدُّ على أيديهم، وأحثهم على متابعة جهودهم لخدمة كتاب الله، أدعو الله أن يكتب لمسيرة المجمع والعاملين فيه التوفيق والسداد.

وختاماً أودُّ أن أزجي آيات الشكر والتقدير لمقام خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود، ووليِّ عهده الأمين، نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الدفاع، صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود، حفظهما الله، على ما يُوليان هذا المجمع المبارك من مؤازرة ورعاية كريمة.

حفظ الله بلادنا الغالية، وأدام عليها أمْنَها وسؤددها وازدهارها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ
وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد
المشرف العام على مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

كلمة رئيس التحرير

الحمد لله الذي جعل الليل يَخْلُف النهار تذكرة وعبرة، ووفَّق مَنْ شاء من عباده لشكر نِعَمه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير الورى، وأشرف من وطئ الثَّرى، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، ومن تبعهم وسار على مِنْوالهم واقتفى، أما بعد:

فإن نعم الإله على عباده كثيرة، ومن أجلِّها أن يوفَّق المرء لخدمة كتاب الله العزيز، من أيِّ وجه من الوجوه التي يَلْمِس مؤديها البركة والنماء والخيرية في أموره العامَّة والخاصة.

ولا شك أن النَّشْر الهادف، ولا سيِّما من المجلَّات المتخصصة المحكَّمة التي تستقطب النُّخَب من حملة الأقلام، باب من أبواب الارتقاء بالأمَّة، وسهم في مجال رُقيِّ الحضارة وتقدمها.

وما زالت مجلَّة «البحوث والدراسات القرآنية» تسير باتِّزانٍ بين رصيفاتها في هذا المضمار، حتى شهد لها المنصفون بالإتقان وحسن الاختيار.

وها هو عامها الثاني عشرَ ينجلي، مقدِّمةً في العدد العشرين مجموعة من البحوث الرصينة، يأتي أولها وهو بعنوان: «**أثر الرسم العثماني في التفسير**» من إعداد الدكتور سامي ابن مسعود الجعيد؛ ليبيِّن فيه باكورة متواضعة من آثار علم رسم المصاحف في علم التفسير، وليلفت أنظار الباحثين إلى مسرب جديد في سلسلة مفهوم ترابط علوم القرآن وتوظيفها في خدمة معانيه، من خلال أمثلة تطبيقية لدى طائفة من علماء التفسير.

ويأتي ثانيها وهو بعنوان: «**الأرض التي يورثها الله لعباده الصالحين: دراسة قرآنية ومقارنة نقدية**» من إعداد الأستاذ أبي محمد محمد بن فريد؛ ليدلل بأن الأرض التي يرثها عبادُ الله الصالحون هي الدنيا، وأن الصالحين هم خلفاء الله في أرضه، وهم المسؤولون عن عمارتها بشريعة الله تعالى.

ويأتي ثالثها وهو بعنوان: «**التوازن في المنهج القرآني وآثاره التربوية**» للدكتور جمال الدين أحمد القادري؛ ليجلِّي خصيصة من خصائص الفطرة البشرية التي خلق الله الناس عليها، ويذكر منهج القرآن الكريم في تحقيق التوازن في مثل قضايا الغيب والشهادة، ومشيئة الله، وعبودية الإنسان لربه، والقضاء والقدر واختيار الإنسان، مع إبرازه الآثار التربوية المترتبة على مثل هذه المسائل.

ويأتي رابعها وهو بعنوان: «**دراسة حديث جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق**» للدكتورة زينب بنت عبد المحسن العباد البدر؛ لتدرس في بحثها ما اشتهر عند أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق هو صدر سورة العلق، فتتبعت ألفاظ حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطرقه، وجمعت أقوال أهل العلم في توجيهه، مع مناقشة هذه الأقوال، وبيان الأقرب منها للصواب.

ويأتي خامسها وهو بعنوان: «**وقفات تربوية في قصة نبي الله شعيب** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» من إعداد الدكتور أمجد بن محمد زيدان، الذي عرض فيه لوقفات تربوية مستخرجة من قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما وردت في القرآن الكريم، بما تيسَّر له وفهمه من جملة قصة قوم شعيب.

ويسعدني في هذا المقام أن أشكر للأخوة أعضاء هيئة تحرير المجلَّة ما بذلوه من جهود في انتقاء البحوث، واختيار لجان التحكيم المناسبة، ثم مراجعة الأبحاث وتدقيقها؛ مما أوصلها إلى المستوى العلمي اللائق.

والشكر موصول لمعالي وزير الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد المشرف العام على المجمع معالي الدكتور عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ، الذي يدعم هذا المجمع، ويسعى إلى تقدمه وازدهاره.

كما أشكر لقادة هذه البلاد وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان ابن عبد العزيز آل سعود، وسمو ولي عهده الأمين نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود، على ما يقومان به من أعمال مباركة في خدمة الإسلام والمسلمين، ونصرة قضاياهم.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى مرضاته، ويوجِّهنا إلى طاعته، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام
لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
أ.د/ محمد سالم بن شديد العوفي

أثر الرسم العثماني في التفسير

د. سامي بن مسعود الجعيد[1]

مُلخّصُ البحث

تناول الباحث في بحثه مسألة أثر الرسم العثماني في التفسير، وجاء البحث مشتملاً على مقدمة وخاتمة وبينهما تمهيد ومبحثان.

أما المقدمة فقد ذكر فيها الباحث سبب اختياره للموضوع، والدراسات السابقة، وجاء في التمهيد تعريف التفسير والرسم، وهل الرسم العثماني توقيفي أو اصطلاحي.

ثم أردفه الكاتب بالمبحث الأول، فتحدث فيه عن عناية المفسرين بالرسم العثماني، وذلك من خلال إثباتهم لركنيته، ومن ثمَّ الانتصار له، وتوجيه ظواهره.

بعد ذلك جاء المبحث الثاني ليلمح فيه الباحث عن أثر الرسم العثماني على المعنى، وذكر أن معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير، وأن الرسم العثماني مرجح من المرجحات، وهو كذلك رافع للإشكال الذي ربما يطرأ على القارئ لكتاب الله والمفسر له.

أما الخاتمة - نسأل الله حسنها - فقد دَبَّجتها بأهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث.

---

(١) أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فلما كان القرآن الكريم أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم.

وإذا كان الأمر كذلك، فلفهم معانيه سنن وطرائق، وعلوم وشروط، والمفسر مضطر للإفادة منها بقدر ما يكشف ويجلي المعنى.

ومن تلك العلوم التي تعين المفسر على فهم كتاب الله الرسم العثماني، ذلك أن القرآن الكريم كما أنه يحفظ بالقلب، ويتلى باللسان، فإن خطه بالأيادي يسطرُ، ليشفع بالمسطور ما هو مستظهر في الصدور.

وهذا الخط أصبح علماً قائماً بنفسه، له قواعده ومسائله، فأُلِفت فيه الكتب والمصنفات، ونَظَم فيه العلماء المنظومات.

وهو - أي علم الرسم - ألصق بقراءة القرآن منه بالتفسير، بَيْد أن القارئ لكتب التفسير يجد أن عناية أصحابها به جلية، والتطرق إلى الحديث عن بعض مسائله واردة، مما يثير تساؤلاً في نفس القارئ عن سبب هذه العناية والاهتمام.

ولما لم أجد - فيما أعلم - بحثاً يجيب عن هذا السؤال بعينه، وعن مدى أثر الرسم العثماني في التفسير، فقصدت أن يكون هذا البحث باكورة محاولة للإجابة عن السؤال.

وقد ابتدأت البحث بتمهيد يحوي ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف الرسم لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: الرسم العثماني بين التوقيف والاصطلاح.

وجاء **المبحث الأول** موسوماً بـ«عناية المفسرين بالرسم العثماني»، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إثبات ركنية الرسم العثماني.

المطلب الثاني: الانتصار للرسم العثماني.

المطلب الثالث: توجيه ظواهر الرسم العثماني.

ثم تبعه صنوه - **المبحث الثاني** - بعنوان: «أثر الرسم العثماني على المعنى»، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير.

المطلب الثاني: الرسم العثماني مرجح من المرجحات.

المطلب الثالث: الرسم العثماني رافع للإشكال.

ثم أردفتهم بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال بحثه.

هذا، وقد بذلت في هذا البحث جهداً، فإن وفقت فذاك محض فضل من الله وتوفيق منه، وإن تكن الأخرى فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله، ومن وجد شيئاً فليبعث به إليَّ «بشكر الله وعباده له سعيه، فإن المقصود الوصول إلى الصواب، فإذا ظهر وضع ما عداه تحت الأرجل»[1].

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٦٦٨/٢).

التمهيد

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف الرسم لغة واصطلاحاً.

المطلب الثالث: الرسم بين التوقيف والاصطلاح.

المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً:

أولاً: تعريف التفسير لغة[١]:

التفسير: تفعيل من الفَسْر، وأصل مادته اللغوية تدل على الكشف والبيان[٢].

يقول ابن فارس: «الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه»[٣].

يقال: فَسَر الشيء يفسِرُه فَسْراً وفسَّره: أبانه، والتفسير مثله، وفَسَّرت الحديث أُفسِره فَسْراً، إذا بينته وأوضحته وفسرته تفسيراً كذلك.

واستفسرته كذا: أي: سألته أن يفسره لي، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته، والفسر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل.

وقيل: إن (فَسَر) مقلوب من (سَفَر)، يقال: سفرت المرأة سفراً: إذا كشفت قناعها عن وجهها، وسمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق المسافرين فيظهر ما كان خافياً منها، ويكون أصل التفسير حينئذٍ: التسفير على قياس صعق وصقع، وجذب وجبذ[٤].

---

(١) انظر مثلًا: تهذيب اللغة (٢٧٨٧/٣)، الصحاح (ص٨١٢)، لسان العرب (١٨٠/١١)، جمهرة اللغة (٧١٨/٢)، تاج العروس (٣٢٣/١٣)، القاموس المحيط (ص٤٥٦).

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني (ص٨٧)، روح المعاني للآلوسي (٢٤/١).

(٣) مقاييس اللغة (٥٠٤/٤).

(٤) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٨٦/١)، بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (٧٨/١).

وهذا القول فيه ضعف؛ لأن القلب خلاف الأصل، يقول الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه»(١).

ويمكن أن يقال: «الفسر والسفر، يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما»(٢).

ثانياً: تعريف التفسير اصطلاحاً:

تناول العلماء تعريف التفسير، فاختلفت في حده عباراتهم، وكثرت في بيان ماهيته أقوالهم(٣)، وسأقتصر في هذا المطلب على أبرز التعريفات.

وممن عرّفه الإمام ابن جزي الكلبي(٤) في التسهيل بقوله: «شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه»(٥).

ويقول أبو حيان(٦): «التفسير: علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك»(٧).

أما الزركشي(٨) فقد عرّفه في كتابه البرهان في موضعين، فقال في الأول: «علم

---

(١) روح المعاني (٢٤/١).

(٢) مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني (ص٤٧).

(٣) انظر: مفهوم التفسير والتأويل للطيار (ص٦٥).

(٤) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي الغرناطي، أبو القاسم، اشتهر بابن جزي نسبة إلى جده السابع، كان عاكفاً على العلم، مشاركاً في فنون كثيرة من عربية وفقه وأصول وتفسير، قتل في إحدى المعارك سنة (٧٤١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٣٥٦/٣)، طبقات المفسرين للداودي (٨٥/٢).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (١٢/١).

(٦) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني، أثير الدين، أبو حيان، مفسر، مقرئ، إمام في النحو، عارف باللغة ضابط لألفاظها، مات سنة (٧٤٥هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي (٢٨٧/٢)، بغية الوعاة للسيوطي (٢٨٠/١).

(٧) البحر المحيط (١٢١/١). وانظر إلى شرح التعريف فيه.

(٨) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري، بدر الدين، أبو عبد الله، عُني بالتفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول، توفي سنة (٧٩٤هـ). انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١٦٧/٣)، طبقات المفسرين للداودي (١٦٢/٢).

يعرف به فهم كتاب الله المنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[1].

وقال في الموضع الآخر: «هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وزاد فيها قوم فقالوا: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها»[2].

ويبين ابن عرفة المالكي[3] حد التفسير بقوله: «هو العلم بمدلول القرآن وخاصية كيفية دلالته، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[4].

ويذكر الكافيجي[5] أن التفسير هو «كشف معاني القرآن، وبيان المراد»[6].

وجاء الطاهر بن عاشور[7] ليقول: إن التفسير «اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها باختصار أو توسع»[8].

ومن خلال ما سبق يظهر لي الآتي:

أولاً: أن القاسم المشترك بين هذه التعريفات هو بيان المعنى وإيضاحه، وهذا هو المعنى اللغوي لمفردة التفسير الذي انطلق منه المعرفون[9].

(١) البرهان في علوم القرآن (٤١/١).
(٢) المصدر السابق (١٨٧/٢).
(٣) محمد بن محمد بن عرفة بن حماد الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله، الإمام، المقرئ، الأصولي، الفقيه، المفسر، توفي سنة (٨٠٣هـ). انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٦١/٩)، طبقات المفسرين للداودي (٢٣٨/٢).
(٤) تفسير ابن عرفة (٥٩/١).
(٥) محمد بن سليمان بن سعد الروي البرعمي الحنفي، أبو عبد الله، المعروف بالكافيجي، لقب به لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية في النحو، كان إماماً في الأصول والنحو والكلام، وله اليد الحسنة في الفقه والتفسير، توفي سنة (٨٧٩هـ). انظر: بغية الوعاة (١١٧/١)، شذرات الذهب (٤٨٨/٩).
(٦) التيسير في قواعد علم التفسير (ص١٢٤).
(٧) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين، وشيخ جامع الزيتونة بتونس، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، مات سنة (١٣٩٨هـ). انظر: الأعلام للزركلي (١٧٤/٦)، معجم المؤلفين (١٠١/١٠).
(٨) التحرير والتنوير (١١/١).
(٩) انظر: التفسير اللغوي للطيار (ص٢٧).

وإذا كان الأمر كذلك فحد التفسير في الاصطلاح هو «بيان معاني القرآن الكريم»[1] وما زاد عن ذلك فهو خارج عنه.

يقول الشاطبي[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوماً، فالزيادة على ذلك تكلف»[3].

ثانياً: من هذه التعريفات ما هو أقرب إلى تعريف علوم القرآن منه إلى التفسير، فقد «تناولت تفصيلات وأحكاماً جزئية مما هو خارج عن الماهية، فليست حداً للتفسير، وغاية ما يقارب فيها أنها تعاريف بالرسم»[4] كما هو الحال في تعريف أبي حيان والزركشي.

وذكرهم لجملة من علوم القرآن في التعريف إنما هو على سبيل المثال لا الحصر، نظراً لكثرة هذه العلوم، ولكون علم التفسير فرعاً من فروع علوم القرآن[5].

ثالثاً: بعض هذه التعريفات جمعت علوماً ليست من علم التفسير، ولا من مهمة المفسر، كتعريف ابن عرفة الذي نص على أن علم الإعجاز من علم التفسير[6]، وكذلك الكافيجي الذي أدخل في التعريف علم أصول الفقه[7].

وهذه العلوم وإن كان المفسر بحاجة إلى شيء منها، إلا أن ذكرها في التعريف محل نظر[8]، والله أعلم.

---

(١) أصول في التفسير لابن عثيمين (ص٢٥).

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد المالكي، أبو إسحاق، الشهير بالشاطبي، مفسر، ومحدث، وفقيه، ولغوي، من مصنفاته الموافقات والاعتصام، مات سنة (٧٩٠هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٧٥/١)، معجم المؤلفين (١١٨/١).

(٣) الموافقات (٥٧/١).

(٤) قواعد الترجيح عند المفسرين (٢٥/١) نقلًا عن الشيخ مناع القطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٥) انظر: مفهوم التفسير والتأويل للطيار (ص٦٨).

(٦) لما شرح ابن عرفة تعريفه كان مما قال: «فقولنا: خاصية كيفية دلالته: هي إعجازه، ومعانيه البيانية، وما فيه من علم البديع الذي يذكره الزمخشري ومن نحا نحوه». تفسير ابن عرفة (٥٩/١).

(٧) قال الكافيجي وهو يشرح تعريفه «والمراد من معاني القرآن أعم، سواء كانت معاني لغوية أو شرعية، أو سواء كانت بالوضع أو بمعونة المقام، وسوق الكلام وبقرائن الأصول نحو: السماء والأرض والجنة والنار وغير ذلك، ونحو: الأحكام الخمسة، ونحو خواص التركيب اللازمة له بوجه من الوجوه». التيسير في قواعد علم التفسير (ص١٢٥).

(٨) انظر: مفهوم التفسير والتأويل للطيار (ص٦٩).

المطلب الثاني: تعريف الرسم لغة واصطلاحاً:

تعريف الرسم لغة[١]:

«الراء والسين والميم أصلان: أحدهما الأثر، والآخر ضرب من السير»[٢].

فالأول الرسم: الأثر أو بقيته أو ما لا شخص له من الآثار. والجمع أرسم ورسوم. ورسم الغيث الديار: عَفّاها وأبقى أثرها لاصقاً بالأرض. وترسمت الدار، أي: نظرت إلى رسومها. وناقة رسوم: تؤثر في الأرض من شدة الوطء، ورسم علي كذا وكذا، أي: كتب.

والأصل الآخر: الرسيم: ضرب من السير سريع مؤثر في الأرض. يقال: رسم يرسِمُ. والرَّسَم: حسن المشي.

تعريف الرسم اصطلاحاً:

الرسم بمعنى الكتابة والخط، وهو على ثلاثة أقسام:

الأول: الرسم القياسي (الإملائي)، وهو تصوير اللفظ بحروف هجائه، بتقدير الابتداء به والوقوف عليه[٣].

الثاني: الرسم العروضي، وهو خط جرى على ما أثبته اللفظ وإسقاط ما حذفه[٤].

الثالث: الرسم (العثماني)، هو أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية التي ارتضاها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٥].

ونسب إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه هو الذي أمر بجمع المصحف وكتابته[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٤٠٩/٢)، الصحاح (ص٤٠٧)، لسان العرب (١٥٤/٦)، القاموس المحيط (ص١١١٣).
(٢) مقاييس اللغة (٣٩٣/٢).
(٣) انظر: الشافية في علم التصريف لابن الحاجب (ص١٣٨).
(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن (٥٣٩/١)، همع الهوامع للسيوطي (٣٤١/٦).
(٥) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص٤٠٥)، مناهل العرفان (٣٢٨/١).
(٦) انظر: شرح السنة للبغوي (٥٢٤/٤)، فضائل القرآن لابن كثير (ص٨٩).

ويبدو أن مصطلح الرسم العثماني إنما ظهر في القرون المتأخرة، وكان يعرف قبل ذلك بهجاء المصاحف، وخط المصحف، ورسم المصحف، ومرسوم الخط وغير ذلك[١].

المطلب الثالث: الرسم العثماني بين التوقيف والاصطلاح:

لم يتطرق المتقدمون - فيما أعلم - إلى بحث هذه المسألة بعينها، وإنما كان حديثهم منصباً على مسألة التزام الرسم العثماني في كتابة المصحف من عدمه.

وقد بنى المتأخرون من خلاف المتقدمين في مسألة التزام الرسم العثماني من عدمه، ما نحن بصدد الحديث عنه، وإن كان بين المسألتين تلازم واضح[٢].

وقد انقسم المتأخرون في هذه المسألة إلى فريقين:

فريق يرى أن رسم المصحف توقيفي[٣]، فـ «ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة»[٤]. وبالغ بعضهم فقال: «نعتقد أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد هجَّأ للكتبة بعض كلمات القرآن الكريم، وهي الكلمات الموقوفة كتابتها، مثل كلمات: بصطة، المصطيرون...»[٥].

قالوا: فلو كتبت هذه الكلمات وأمثالها (رحمت، نعمت، سنت) من لدن الكتبة من الصحابة على ما تيسر لهم «للزم أن يكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل هذه الكلمات (رحمت) وأخواتها بالهاء... ثم كتبها الصحابة لجهلهم بالخط يومئذٍ بالتاء ثم تبعتهم الأمة خطأ ثلاثة عشر قرناً ونصفاً، فتكون الأمة من عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليوم مجمعة على إبدال حروف بأخرى في كلامه ليست منزلة من عنده، وعلى حذف حروف عديدة منه.

(١) انظر: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية لغانم الحمد (ص١٢٨)، مقدمة مختصر التبيين (١/١٢٩).
(٢) انظر: رسم المصحف ونقطه للفرماوي (ص٣٧٥)، رسم المصحف لغانم الحمد (ص١٦٩).
(٣) انظر: إرشاد الحيران للحسيني (ص٣، ٤) إيقاظ الأعلام للشنقيطي (ص١٠)، سمير الطالبين للضباع (ص١٨)، رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاح، لشعبان إسماعيل (ص٥١).
(٤) الإبريز لأحمد بن المبارك (ص٨٧) نقلًا عن شيخه الدباغ.
(٥) قاله أشرف قطنة في كتابه: رسم المصحف والإعجاز العددي (ص٥٩).

وإذا كان ذلك كذلك لكان خبره[1] تعالى كاذباً، وكذب خبره تعالى باطل، فبطل ما أدى إليه، وهو كون رسم الكلمات ونظائرها بلا توقيف نبوي»[2].

وأيدوا ذلك بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمعاوية: «ألق الدواة، وحَرِّف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسِّن الله، ومد الرحمن، وجوِّد الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك»[3].

بل حكى بعضهم الإجماع على قول ذلك، فقال: «وقد أجمعوا - أي: الصحابة - عليه وهم اثنا عشر ألفاً، فيجب علينا اتباعهم وتحرم علينا مخالفتهم»[4].

قالوا: «من دلائل هذه التوقيفية: أن الكلمة من القرآن قد تكتب في بعض المواضع برسم، وفي موضع آخر برسم مع أنها هي هي... فلو كان الرسم بالاصطلاح لما وقع هذا التخالف»[5].

وبناء على ما سبق، فإن القائلين بالتوقيف يرون أن رسمه معجز كما هو الحال في نظمه[6]، وأن للقرآن أسراراً «لا تستفاد إلا بهذا الرسم فمن كتبه بالرسم التوقيفي فقد أداه بجميع أسراره، ومن كتبه بغير ذلك فقد أداه ناقصاً، ويكون ما كتبه إنما هو من عند نفسه لا من عند الله»[7].

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية رقم (٩).

(٢) سمير الطالبين (ص١٨) بتصرف يسير.

(٣) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٣٩٤/٥) (ح٨٥٣٣)، ورواه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١٧٠/١) وذكره القاضي عياض في الشفا (٧٠٢/١).
وقال ابن حجر معقباً بعد أن ذكره في جملة الأخبار الواردة في معرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتابة «وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث». فتح الباري (٣٥٧/٩).

(٤) دليل الحيران (ص٤٠)، وانظر: إيقاظ الأعلام (ص١٤).

(٥) رسم المصحف ونقطه للفرماوي (ص٣٥٩، ٣٦٠).

(٦) انظر: الإبريز (ص٨٧)، إيقاظ الأعلام (ص٣٦).

(٧) الإبريز (ص٨٨).

وذهب الفريق الآخر إلى أن رسم المصحف اصطلاحي، بمعنى أن الصحابة كتبوا القرآن في المصاحف وفق الطريقة التي كانوا يكتبون بها سائر كتبهم من غير نص من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

قالوا: ولا يوجد دليل من الكتاب ولا في السنة ولا من أقوال الصحابة على أن للرسم كيفية معينة تلقاها الكتبة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول الإمام الباقلاني[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يأخذ الله على كتَّاب القرآن وخُطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وحظر ما عداه؛ لأن ذلك لا يجب - لو كان واجباً - إلا بالسمع والتوقيف وليس في نص الكتاب ولا في مضمونه ولحنه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود، ولا يجوز تجاوزه إلى غيره، ولا في نص السنة أيضاً ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا هو مما أجمعت عليه الأمة، ولا دلت عليه المقاييس الشرعية»[3].

كما استدلوا أيضاً بوقوع الخلاف بين الكتبة في رسم المصحف في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد اختلفوا في كلمة (التابوت) أيكتبونه بالتاء أم بالهاء؟ فذهب النفر القرشيون إلى أنه بالتاء (التابوت)، وذهب زيد بن ثابت إلى أنه بالهاء (التابوه)، فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال: اكتبوه (التابوت) بالتاء، فإنه بلسان قريش[4].

قالوا: ولو كان هناك نص لما ساغ الاختلاف، ولاحتج زيد بن ثابت - وهو كاتب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - به، ولأحاله عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الكيفية التي أملاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكتبة[5].

---

(١) انظر: الانتصار للباقلاني (٥٤٨/٢)، المرشد الوجيز لأبي شامة (ص١٧٣)، مقدمة ابن خلدون (ص٣٨٨).

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر البصري، ثم البغدادي، صاحب التصانيف، ذو فهم وذكاء، كان ثقة بارعاً، توفي سنة (٤٠٣هـ). انظر: تاريخ بغداد (٣٧٩/٥)، سير أعلام النبلاء (١٩٠/١٧).

(٣) الانتصار (٥٤٧/٢).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب (ومن سورة التوبة)، حديث رقم (٣١٠٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٩٦/٢)، وابن أبي داود في المصاحف (ص١٩٨).

(٥) انظر: رسم المصحف بين التحرز والتحرر (ص٩٣)، تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه (ص١٠٠).

ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب - والعلم عند الله -؛ ذلكم أن ما أورده القائلون بالتوقيف من آثار إما أن تكون ضعيفة لا تقوم بها الحجة، أو أنها لا تدل على الرسم والإملاء، وغاية ما يقال فيها أنها تشير إلى أمور تتعلق بالخط وتحسينه.

أما ما حكي من دعوى الإجماع، فإنها على سلامة النص القرآني من أي نقص أو تغيير، أما الكتابة فالدلائل كلها تشير إلى أن ذلك واقع كتابي تميزت به الكتابة العربية في تلك الفترة(١).

أما التزام الرسم العثماني في كتابة المصحف فمسألة أخرى، الصواب فيها وجوب التزام الرسم في كتابة المصاحف(٢).

يقول الإمام البيهقي(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف ولا يخالفهم فيها؛ ولا يغير مما كتبوه شيئاً؛ فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي لنا أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم ولا تسقطاً لهم»(٤).

(١) انظر: رسم المصحف للحمد (ص١٧٠).

(٢) انظر: المقنع للداني (ص١٦٤)، البرهان في علوم القرآن للزركشي (٥٤١/١).

(٣) أحمد بن الحسين بن علي الخراساني البيهقي، أبو بكر الحافظ، العلامة، الثبت، الفقيه، شيخ الإسلام، بُورك له في علمه، وصنف التصانيف النافعة، توفي سنة (٤٥٨هـ). انظر: تذكرة الحفاظ (١١٣٢/٢)، سير أعلام النبلاء (١٦٣/١٨).

(٤) شعب الإيمان (٢١٩/٤).

المبحث الأول
عناية المفسرين بالرسم العثماني

وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إثبات ركنية الرسم العثماني.

المطلب الثاني: الانتصار للرسم العثماني.

المطلب الثالث: توجيه ظواهر الرسم العثماني.

المطلب الأول: إثبات ركنية الرسم العثماني:

لم يكن الحديث في علم الرسم مقصوراً على المختصين به، بل كان لبعض المفسرين مشاركة في تحرير بعض مسائله، بَيْد أن المفسر يعرض لتلك المسائل لمناسبة تدعوه للحديث عنها.

وعند التأمل في ما سطره المفسرون في كتبهم حول الرسم ومسائله، نجد أن حديثهم عن تلك المسائل برز في موضعين:

الأول: في مقدمات كتبهم، وذلك عند حديثهم عن جمع القرآن، وكتابته في عهد النبوة وعصر الخلافة الراشدة[1]، وكذلك عند حديثهم عن شكل المصحف ونقطه وتحزيبه[2]، ونحو ذلك.

الثاني: عند الآيات التي هي مثار بحث في علم الرسم، كالآيات التي اختلف في رسمها، أو الآيات التي اتكأ على رسمها الطاعنون والمشككون في كتاب الله ونقلته وكتبته، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

---

(١) انظر: مقدمة الجامع لأحكام القرآن (٨٣/١)، تفسير ابن كثير (٢٣/١)، روح المعاني (٤٨/١).

(٢) انظر: مقدمة المحرر الوجيز (١٨١/١)، التسهيل لعلوم التنزيل (١٠/١).

ومن مسائل الرسم التي تطرق إليها المفسرون، مسألة ركنية الرسم العثماني، أعني: أن موافقة الرسم العثماني شرط في قبول القراءة، وهذا الشرط هو ثاني شروط القراءة المقبولة(١).

فموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً(٢) شرط أجمعت الأمة عليه، فكل ما خالف رسم المصاحف العثمانية فلا يقرأ به. يقول ابن قتيبة: «كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك فيما خالفه»(٣).

وقد نص جمع من المفسرين على ذلك، فها هو ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينص على ذلك في أكثر من موضع في تفسيره، فمما قال: «... والقراءة التي هي القراءة الرفع دون النصب؛ لأنه ليس لأحد خلاف رسوم مصاحف المسلمين، وإذا قرئ نصباً كانت قراءة مخالفة رسم مصاحفهم»(٤).

ويقول البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة تفسيره: «ثم إن الناس كما أنهم مُتعبدون باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده، فهم مُتعبدون بتلاوته، وحفظ حروفه على سنن خط المصحف الإمام الذي اتفقت عليه الصحابة، وأن لا يجاوزوا بما يوافق الخط عما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين واتفقت الأمة على اختيارهم»(٥).

(١) شروط القراءة المقبولة ثلاثة: التواتر أو صحة السند، وموافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وموافقة العربية ولو بوجه من الوجوه. انظر: الإبانة لمكي بن أبي طالب (ص٣٠)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٩/١).

(٢) الموافقة على قسمين:

١. موافقة تحقيقية: وهي الموافقة الصريحة، كالقراءة بالخطاب والغيبة ونحو ذلك؛ لأن جميع المصاحف العثمانية كتبت مجردة من النقط والشكل، فكانت محتملة لجميع القراءات.

٢. موافقة تقديرية: وهي الاحتمالية التي ليست بصريحة، وذلك مثل قراءة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالمد، فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف، فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً، وقراءة الألف تحتمله تقديراً.

انظر: منجد المقرئين (ص٨٠)، النشر (١١/١).

(٣) تأويل مشكل القرآن (ص٤٢)، وانظر: الإبانة (ص٢٠)، النشر (١١/١).

(٤) جامع البيان (٣٤٧/١)، وانظر كذلك (٦٠٠/٢)، (١٦٣/٤)، (٥٨٨/٦).

(٥) معالم التنزيل (١/هـ)، وبنحوه جاء في المحرر الوجيز (١١٠/٤)، والكشاف (ص٧٤٠)، وغيرهم.

وإذا كان الأمر كذلك فإن المفسرين لم يكتفوا في مسألة اعتبار الرسم برد القراءة المخالفة له فحسب؛ بل ذهبوا إلى أن الوجه التفسيري الموافق لرسم المصحف أولى من الوجه المخالف له(١).

لذلك ترى أن مصادرهم في الرسم العثماني قد تنوعت، فتارة ينقل المفسر رسم الكلمة من المصحف الإمام(٢)، وأخرى ينسبها إلى مصاحف الصحابة(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وثالثة يعزوها إلى مصاحف الأمصار(٤) ونحو ذلك والله أعلم.

المطلب الثاني: الانتصار للرسم العثماني:

لقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ كتابه، فقال جل شأنه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، وحفظه شامل لحفظ حروفه وأحكامه وحدوده(٥)، فهو كتاب عزيز ﴿**لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢]. يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «عزيز بإعزاز الله إياه وحفظه من كل من أراد له تبديلاً أو تحريفاً أو تغييراً»(٦).

ولقد «اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والاختلاف»(٧).

---

(١) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين للحربي (٩٩/١)، فصول في أصول التفسير للطيار (ص١٠٦).

(٢) يراد بالمصحف الإمام: المصحف الذي اتخذه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنفسه وحفظه عنده. انظر: المصاحف لابن أبي داود (ص٢٥١)، المقنع لأبي عمرو (ص١٣١). ومن المفسرين الذين عزوا في رسم الكلمة إلى المصحف الإمام - وليس شرطاً أن يكونوا وقفوا عليه - الطبري في تفسيره (٨٠٤/٧)، وابن كثير (٢٠٤/٧)، وابن عاشور في التحرير والتنوير (٦٨٣/١).

(٣) انظر مثلًا: المحرر الوجيز (٥٠١/١)، الكشاف (ص١٢٣)، البحر المحيط (١٩/١٨).

(٤) انظر مثلًا: معالم التنزيل (١٤٥/٢)، مفاتيح الغيب (٦٦/٤)، الجامع لأحكام القرآن (٣١٢/٥).

(٥) انظر: جامع البيان (١٨/١٤)، تفسير ابن كثير (٥٢٧/٤).

(٦) جامع البيان (٤٤٣/٢٠).

(٧) تأويل مشكل القرآن (ص٢٢).

وقد اتكأ الطاعنون في كتاب الله بوجود اللحن فيه على روايات وآثار وردت في هذا الشأن، منها ما رواه أبو عبيد في الفضائل وغيره عن أبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن لحن القرآن من قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، وعن قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وعن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فقالت: يا ابن أختي هذا عمل الكُتاب أخطأوا في الكتاب»[(١)].

وكذلك ما جاء عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها»[(٢)].

---

(١) فضائل القرآن (ص٢٨٧)، وابن أبي داود في المصاحف (ص٢٤٠)، والداني في المقنع (ص٦٠٩)، وقد تُكلم في رواية أبي معاوية عن هشام، وأن أحاديثه عنه فيها اضطراب. انظر: تهذيب التهذيب (١٣٩/٩).
وقد تابعه علي بن مسهر عن ابن شبة في تاريخ المدينة (٢٣١/٣). «وهو ثقة له غرائب بعدما أضر» تقريب التهذيب (ص٧٠٥)، وقد تكلم أهل العلم على هذا الأثر، يقول الباقلاني في نكت الانتصار (ص١٢٩): «وأما قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تلك الحروف إنها غلط من الكاتب، فقد بينا أنه من أخبار الآحاد، ولا حجة فيه، ولا يجوز لذي دين أن يعتقد أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تلحن الصحابة، وتخطئ كتبة المصاحف».
ويقول الداني في المقنع (ص٦١٠): «قلت: تأويله ظاهر، وذلك أن عروة لم يسأل عائشة فيه عن حروف الرسم التي يزاد فيها المعنى وينقص الآخر، تأكيداً للبيان وطلباً للخفة، وإنما سألها فيه عن حروف في القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات التي أذن الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ ولأمته القراءة بها واللزوم على ما شاءت منها تيسيراً لها وتوسعة عليها، وما هذه سبيله وتلك حاله فعن اللحن والخطأ والوهم والزلل بمعزل لفشوه في اللغة ووضوحه في قياس العربية. وإذا كان الأمر في ذلك كذلك، فليس ما قصدته فيه بداخل في معنى المرسوم ولا هو من سببه، وإنما سمى عروة ذلك لحناً، وأطلقت عائشة على مرسومه كذلك الخطأ على جهة الاتساع وطريق المجاز في العبارة، إذ كان ذلك مخالفاً لمذهبهما وخارجاً عن اختيارهما... وقد تأول بعض علمائنا قول أم المؤمنين (أخطأوا في الكتاب)؛ أي: أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز...».
وانظر: تأويل مشكل القرآن (ص٥٠)، مجموع الفتاوى (٢٥٢/١٥)، شرح شذور الذهب لابن هشام (ص٥٠).

(٢) رواه أبو عبيد في الفضائل (ص٢٨٧)، وابن أبي داود في المصاحف (ص٢٣١)، والداني في المقنع (ص٦٠٥)، وهذا الخبر باطل. قال شيخ الإسلام كما نقله عنه ابن هشام في شذور الذهب (ص٥٠): «خبر باطل». وقال السيوطي في الإتقان (١٢٤١/٣): «إسناده ضعيف مضطرب منقطع». ونقل عن ابن الأنباري قوله: «لا تقوم به حجة؛ لأنها منقطعة غير متصلة».

وقد انتصر المفسرون للرسم العثماني، وذهبوا إلى تخطئة من قال بوجود اللحن فيه، فها هو شيخ المفسرين وإمامهم محمد بن جرير الطبري يقول في جامعه: «...فلو كان خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابته، بخلاف ما هو في مصحفنا، وفي اتفاق مصحفنا ومصحف أُبي في ذلك ما يدل على أن الذي في مصحفنا من ذلك صواب غير خطأ. مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط، لم يكن الذين أُخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلِّمون من علموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم ولقنوه الأمة تعليماً على وجه الصواب.

وفي نقل المسلمين جميعاً ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسوماً، أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه وأن لا صنع في ذلك للكاتب»[1].

ويقول الزمخشري: «ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب[2] ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في

ويقول الإمام الداني في المقنع (ص٦٠٦): «هذا الخبر عندنا لا تقوم بمثله حجة، ولا يصح به دليل من جهتين:
أحدهما: أنه مع تخليط في إسناده، واضطراب في ألفاظه مرسل؛ لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان بن عفان شيئاً ولا رأياه.
وأيضاً: فإن ظاهر ألفاظه تنفي وروده عن عثمان؛ لما فيه من الطعن عليه مع محله في الدين ومكانه من الإسلام، وشده اجتهاده في بذل النصيحة، واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصحابة الأخيار الأتقياء الأبرار نظراً لهم ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم، ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحناً وخطأ يتولى تغييره من يأتي بعده، ممن لا شك أنه لا يدرك مداه، ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهده. هذا لا يجوز لقائل أن يقوله ولا يحل لأحد أن يعتقده.
فإن قال: فما وجه ذلك عندك لو صح عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟
قلت: وجهه أن يكون عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد باللحن المذكور فيه التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تلي على حال رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة وتغيرت ألفاظها...».
وانظر: مجموع الفتاوى (١٥/٢٥٢)، الإتقان للسيوطي (٤/١٢٤١).

(١) جامع البيان (٧/٦٨٤).
(٢) يقصد بالكتاب، الكتاب لسيبويه. انظر: البحر المحيط (١٠/٢٦٣).

النصب على الاختصاص من الافتتان، وغُبيَّ عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم»[1].

وبنحو ما قالا قال جمع من المفسرين[2].

المطلب الثالث: توجيه ظواهر الرسم العثماني:

لما كان المفسرون قد عنوا بالرسم العثماني، فجعلوا من موافقته - تحقيقاً أو تقديراً - شرطاً لقبول القراءة التي يوردونها في كتبهم ويفسرونها تبعاً للقراء، ولم يكتفوا بذلك بل انتصروا للرسم العثماني وشنعوا على من اتخذه وسيلة للطعن في كتاب الله وفي نقلته، ومع ذلك كله فقد تناولوا ظواهر الرسم العثماني لبعض المفردات القرآنية التي ربما خالفت قاعدة من قواعد العربية في نظر البعض، أو رُسمت خلاف سنن القواعد الإملائية بالتوجيه والتفسير.

وسلكوا في توجيههم الظواهر الرسم عدة مسالك من أبرزها ما يلي:

أ. التوجيه بعلل لغوية أو نحوية:

لم يفت كتبة المصاحف أن يرسموا المفردات القرآنية بما يتوافق مع القواعد اللغوية والنحوية، وقد أشار إلى ذلك ابن فارس بقوله: «وفي الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر، فكتبوا ذوات الياء بالياء، وذوات الواو بالألف، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً مثل (الخبء، والدفء، والملء) فصار ذلك كله حجة، وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره...»[3].

(١) الكشاف (ص٢٧١).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج (١٠٦/٢)، المحرر الوجيز (٣٦٥/٣)، مفاتيح الغيب (٦٥/٢٢)، الجامع لأحكام القرآن (٢١٩/٧)، البحر المحيط (٤٨٤/٧)، الدر المصون (١٥٥/٤)، محاسن التأويل (٤٤٧/٣).

(٣) الصاحبي في فقه اللغة (ص٢٣).

وأيد ذلك الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: «وليس شيء في الرسم ولا في النقط اصطلح عليه السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلا وقد حاولوا به وجهاً من الصحة والصواب، وقصدوا فيه طريقاً من اللغة والقياس؛ لموضعهم من العلم، ومكانهم من الفصاحة، عَلِم ذلك من علمه، وجهله من جهله»(١).

وقد اهتمت كتب معاني القرآن بهذا المسلك في التوجيه، ومن الأمثلة على ذلك توجيه الفراء لرسم مفردة ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] بالياء، حيث يقول: «أثبتت فيها الياء ولم تثبت في غيرها، وكل ذلك صواب، وإنما استجازوا حذف الياء؛ لأن كسرة النون تدل عليها، وليست تهيَّبُ العرب حذف الياء في آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً، من ذلك: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] و﴿أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦] في سورة الفجر، وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ [النمل: ٣٦]، ومن غيره النون ﴿ٱلۡمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] و﴿ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهو كثير يكتفى من الياء بكسرة ما قبلها، ومن الواو بضمة ما قبلها، مثل قوله: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] وما أشبهه، وقد تسقط العرب الواو وهي واو جماع، اكتفى بالضمة قبلها...»(٢).

ويشرك أصحاب كتب المعاني المفسرون، فها هو جار الله الزمخشري يجيب عن رسم مفردة ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، حيث يقول: «فإن قلت: كيف خط في المصحف ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ﴾ بواو قبل الألف؟

قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا»(٣).

---

(١) المحكم في لفظ المصاحف (ص١٩٦).

(٢) معاني القرآن (٨٠/١). وانظر كذلك: معاني القرآن للأخفش (٣٨٤/١)، ومعاني القرآن للزجاج (١٢٥/٢).

(٣) الكشاف (ص٧٧٠). وانظر: روح المعاني للآلوسي (٤٦٥/١٤).

وها هو شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يختار في توجيه مفردة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] التوجيه النحوي ويرد على القائلين بأنه خطأ من الكاتب فيقول: «وأولى الأقوال عندي بالصواب أن يكون ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ في موضع خفض نسقاً على (ما) التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وأن يُوجه معنى المقيمين الصلاة إلى الملائكة... وإنما اخترنا هذا القول على غيره؛ لأنه قد ذكر أن ذلك في قراءة أُبي بن كعب ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾، وكذلك هو في مصحفه فيما ذكروا، فلو كان ذلك خطأ من الكاتب لكان الواجب أن يكون في كل المصاحف غير مصحفنا الذي كتبه لنا الكاتب الذي أخطأ في كتابته بخلاف ما هو في مصحفنا...»[(١)].

ب. التوجيه بموافقة قراءة من القراءات:

لاشك أن بين القراءات وبين الرسم العثماني وشائج قوية جعلت من موافقة القراءة للرسم العثماني شرطاً لقبولها، ويذكر علماء الرسم أن المصاحف قد جردت من النقط والشكل لتحتمل وجوه القراءات[(٢)]، وعدَّ السيوطي القاعدة السادسة من قواعد الرسم، ما فيه قراءتان فكتب على إحداهما[(٣)].

وأشار إلى ذلك نظام الدين النيسابوري[(٤)] في مقدمة تفسيره فقال: «فما كتب - أي: زيد بن ثابت - شيئاً من ذك إلا لعلة لطيفة وحكمة بليغة وإن قصر عنها رأينا، ألا ترى أنه لو كتب ﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٩] و﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ [التوبة: ١٠٣] بالألف بعد الواو

(١) جامع البيان (٦٨٣/٧). وانظر كذلك: معالم التنزيل للبغوي (٣٠٩/٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٦٨/٢).
(٢) انظر: مختصر التبيين لأبي داود (٣٥٧/٢)، الوسيلة إلى كشف العقيلة للسخاوي (ص٩٩)، النشر لابن الجزري (٧/١).
(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢٢٢٨/٦).
(٤) الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، نظام الدين، ويقال له: الأعرج، مفسر، له اشتغال بالحكمة والرياضيات، من كتبه: غرائب القرآن، وشرح الشافية في التصريف، توفي بعد سنة (٨٥٠هـ). انظر: بغية الوعاة (٢٢٥/١)، الأعلام للزركلي (٢١٦/٢).

أو بالألف من غير واو لما دل ذلك إلا على وجه واحد وقراءة واحدة؟ وكذلك ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢] وكتب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَٰفِرُ﴾ بغير ألف قبل الفاء ولا بعدها ليدل على القراءتين»[١].

ومن أمثلة إعمال المفسرين لهذا المسلك، ما ذكره السمين الحلبي عند ذكره للقراءات الواردة في مفردة ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ في قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۖ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧] الآية، حيث يقول: «وقرأ نافع وابن عامر[٢] ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ ويقويه أنها رسمت بالتاء المطوطة، والباقون (ثمرة) بالإفراد»[٣].

وكذلك ما جاء في التحرير والتنوير عند توجيه قراءة ابن عامر لمفردة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾[٤] حيث يقول: «وكذلك رسمت كلمة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ في المصحف العثماني الذي ببلاد الشام، وذلك دليل على أن الذين رسموا تلك الكلمة راعوا قراءة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ بالكسر، وهم من أهل الفصاحة والتثبت في سند قراءات القرآن، إذ كتب كلمة ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ بصورة الياء بعد الألف، وذلك يدل على أن الهمزة مكسورة»[٥].

جـ. التوجيه بمراعاة الفواصل:

من تتبع توجيه المفسرين لظواهر الرسم العثماني يلحظ أنهم قد عنوا بهذا المسلك عناية جلية، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محرره عند

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤٣/١).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم - وقد أغفله السمين الحلبي - ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد. انظر: السبعة لابن مجاهد (ص٥٧٧)، والتيسير للداني (ص١٩٤).

(٣) الدر المصون (٥٣٣/٩).

(٤) قرأ ابن عامر بضم الزاي في ﴿زُيِّنَ﴾ وكسر يائه، ورفع لام ﴿قَتْلَ﴾، وكسر دال ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾، وخفض همزة ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، والباقون بفتح الزاي والياء، في ﴿زُيِّنَ﴾ ونصب لام ﴿قَتْلَ﴾، وكسر دال ﴿أَوْلَٰدِهِمْ﴾، ورفع همزة ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾. انظر: السبعة لابن مجاهد (ص٢٧٠)، التيسير للداني (ص١٠٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٠٢/٨). وانظر: تفسير المنار (١٤١/١).

تفسيره لمفردة ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ في قول الحق جَلَّوَعَلَا ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] إذ يقول: «وقرأ نافع[١]، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بألف في الوصل والوقف، وذلك اتباع لخط المصحف، وعلته تعديل رؤوس الآي.

وطرد هذه العلة أن يلازم الوقف، وقد روي عن أبي عمرو أنه كان لا يصل، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل.

وقرأ أبو عمرو أيضاً، وحمزة في الوصل والوقف (الظنون) بغير ألف، وهذا هو الأصل.

وعللوا الوقف بتساوي رؤوس الآي، على نحو فعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص»[٢].

وبنحو ما فعل ابن عطية فعل الشوكاني رَحِمَهُمَاٱللَّهُ إذ يقول عند توجيه مفردة ﴿يَسۡرِ﴾ من قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤]: «والأصل هاهنا إثبات الياء؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع، ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآي، إجراء للفواصل مجرى القوافي»[٣].

د. التوجيه لإفادة معنى:

من المعلوم أن بين القراءة والرسم صلة وثيقة جعلت القراء يتتبعون هجاء المصاحف، فـ «رأوا تتبع حروف المصاحف وحفظها عندهم كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها»[٤].

---

(١) قرأ المدنيان والشامي وشعبة بإثبات ألف بعد النون وصلًا ووقفاً، وحمزة والبصريان بحذف الألف في الحالين، والباقون بحذفها وصلاً وإثباتها وقفاً. انظر: السبعة (ص٥١٩)، التيسير (ص١٧٨)، النشر (٣٤٧/٢)، ولم يذكر ابن عطية القارئ ابن عامر، ولم يكن دقيقاً رَحِمَهُٱللَّهُ في ضبط قراءة القارئ عاصم.

(٢) المحرر الوجيز (٧٣٠/٧).

(٣) فتح القدير (٥٧٩/٥). وانظر: الكشف والبيان للثعلبي (٣٦١/٢١)، التحرير والتنوير (١٣٦/٢٤).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص٣٦١).

ولا أدل على ذلك من صنيع الغازي بن قيس[١] إذ عرض مصحفه وصححه على مصحف نافع بن أبي نعيم[٢] ثلاث عشرة مرة أو أربع عشرة مرة[٣].

ومن هنا فقد التزم قراء كل مصر من الأمصار ما يوافق خط مصحفهم غالباً[٤]، وتلقى عنهم القراءة أهل كل مصر من العلماء والعامة وغيرهم.

والمفسر ليس بدعاً من أولئك، فالمفسر يبني تفسيره على القراءة التي تلقاها من أفواه القراء، وبعضهم يصرح بذلك كابن جزي حيث يقول: «وإنما بنينا هذا الكتاب على قراءة نافع لوجهين: أحدهما: أنها القراءة المستعملة في بلادنا بالأندلس وسائر بلاد المغرب. والأخرى: اقتداء بالمدينة شرفها الله؛ لأنها قراءة أهل المدينة»[٥].

وبعضهم لم يصرح بقراءته وإنما يظهر ذلك من خلال التتبع والاستقراء.

وإذا كان الأمر كذلك فهو متبع لرسم المصحف الذي قرأ به، وسيبني على ذلك تفسيره، وها هو الزمخشري يقول عند توجيهه لقول الله تعالى: ﴿**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [الأعراف: ٣٧]: «و(ما) وقعت موصولة بـ (أين) في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون»[٦].

وربما يخرج المفسر عن رسم مصحفه إلى مصاحف أخرى في توجيه ظاهرة من ظواهر الرسم[٧].

---

(١) الغازي بن قيس، أبو محمد الأندلسي، الإمام، شيخ الأندلس، المقرئ، ارتحل وأخذ عن ابن جريج، والأوزاعي، ومالك، ونافع بن أبي نعيم وتلا عليه، وهو أول من أدخل قراءة نافع إلى الأندلس، توفي سنة (١٩٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٢/٩)، غاية النهاية (٤/٢).

(٢) نافع بن أبي نُعيم، أبو رويم الأصبهاني، الإمام، حبر القرآن، جوّد كتاب الله على عدة من التابعين، توفي سنة (١٦٩هـ). انظر: غاية النهاية (٣٣٠/٢)، سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٧).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٢/٩).

(٤) انظر: المقنع للداني (ص٦٠٢)، النشر (١٥٨/٢).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (١٣/١).

(٦) الكشاف (ص٣٦٢)، وبنحوه ذكر أبو حيان (٥٢٦/١٢).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٥٢/٧)، الدر المصون (٦٧٠/٤).

وليعلم أن ظواهر الرسم مع التفسير على نوعين:

الأول: ظواهر لا تعلق لها بالتفسير، كالظواهر الراجعة لطبيعة الكتابة كلفظ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مثلاً ونحو ذلك.

الثاني: ظواهر لها تعلق بالتفسير، وهذا ما سيظهر جلياً في الفصل الثاني من هذا البحث إن شاء الله.

ومما يزيد الأمر وضوحاً أن مفردة (مصر) وردت في كتاب الله في خمسة مواضع[١]، كلها رسمت فيها المفردة غير مصروفة ما عدا موضع البقرة فقد رسمت فيه مصروفة ﴿مِصْرًا﴾[٢]، ورسمها بالتنوين جعل المفسرين يختلفون في المراد بها على قولين[٣]:

الأول: من صرفه ﴿مِصْرًا﴾ فإنه يعني مصراً من الأمصار غير معين، فيكون معنى الآية: اهبطوا مصراً من الأمصار؛ لأنكم في البر والبدو، والذي طلبتم إنما يكون في القرى والأمصار، فيكون هذا الذي قالوه موافقاً لما عليه رسم المصحف.

الثاني: من قرأ (مصر) بغير تنوين، فإنه يعني بها البلدة التي تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها، فيكون معنى الآية: اهبطوا مصراً البلدة التي خرجتم منها.

قالوا[٤]: وقد قرأ بها الحسن وطلحة والأعمش، وهي كذلك في مصحف أُبي بن كعب، ومصحف عبد الله وبعض مصاحف عثمان[٥].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي (ص٧٦٥)، والمواضع هي في سورة البقرة (٦١)، يونس (٨٧)، يوسف (٢١، ٩٩)، الزخرف (٥١).

(٢) قال أبو داود: «بالألف على الإجراء إجماع من المصاحف والقراء، خطاً ولفظاً، وصلًا ووقفاً». مختصر التبيين (١٤٩/٢). وانظر: المقنع للداني (ص٣٤٠).

(٣) انظر: أقوال المفسرين: جامع البيان للطبري (٢١/٢)، المحرر الوجيز (٤٢٣/١)، زاد المسير (٨٩/١)، مفاتيح الغيب (٩٣/٣)، تفسير ابن كثير (٢٨٤/١).

(٤) انظر: جامع البيان (٢٥/٢)، البحر المحيط (٤٠٩/٢).

(٥) انظر: مختصر الشواذ لابن خالويه (ص١٤)، شواذ القراءات للكرماني (ص٦٤). قال السخاوي في الوسيلة (ص١٠١): «وإن كان ذلك يروى عن أُبي وابن مسعود فقد تركوا قراءة ذلك حين أجمعوا على المصحف».

قالوا: وعلى رسمها بالتنوين ﴿مِصْرًا﴾ فإنها صرفت مع وجود السببين وهما التأنيث والتعريف لإرادة البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط وفيهما العجمة والتعريف[1].

وبالجملة، فالمقصد هنا ليس تحرير المراد بـ (مصر) في الآية، بقدر ما هو بيان لأثر الرسم في معنى الآية، وتوجيه المفسرين لظواهر الرسم.

بَيْد أن توجيه ظواهر الرسم لإفادة معنى خفي دقيق أَمرٌ فيه تكلف وبعد، وقد حمل لواءه ابن البناء المراكشي[2]. وتبعه بدر الدين الزركشي في كتابه البرهان حيث يقول: «واعلم أن الخط جرى على وجوه: فيها ما زيد عليه في اللفظ، ومنها ما نقص، ومنها ما كتب على لفظه، وذلك لحكم خفية، وأسرار بهية، تصدى لها أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء في كتابه: «عنوان الدليل في رسوم خط التنزيل»، وبيّن أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها. ومنها: التنبيه على العوالم الغائب والشاهد، ومراتب الوجود، والمقامات»[3].

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن البناء المراكشي: «كل ألف تكون في كلمة لمعنى له تفصيل في الوجود إذا اعتبر ذلك من جهة ملكوتية أو صفة حالية أو أمور علوية مما لا يدركه الحس، فإن الألف تحذف في الخط علامة لذلك، وإذا اعتبر من جهة ملكية أو صفة حقيقية في العلم وأمور سلفية ثبت الألف. واعتبر ذلك في لفظتي (القرآن، والكتاب)، فإن القرآن هو تفصيل الآيات التي أحكمت في الكتاب، فالقرآن أدنى إلينا في الفهم من الكتاب وأظهر في التنزيل... ولذلك ثبت في الخط ألف القرآن وحذف ألف الكتاب»[4] والله أعلم.

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٤٦/١)، مدارك التنزيل للنسفي (٩٤/١).

(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، المراكشي، شهاب الدين، الشهير بابن البنا، رحل إلى فاس وتلقى علم الحساب والهيئة، توفي سنة (٧٢١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٣٣٠/١).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٥٤٤/١).

(٤) عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل (ص٦٥). وقد كتبت رسالة علمية بعنوان «توجيه ظواهر الرسم العثماني عند ابن البنا المراكشي من خلال كتابه «عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل» دراسة تحليلية نقدية»، للباحث: فتحي بودفلة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر (٢٠١٤ - ٢٠١٥م)، وقد أجاد فيها الباحث لتفنيد ما ذهب إليه ابن البنا، فراجعه.

المبحث الثاني
أثر الرسم العثماني على المعنى

وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير.

المطلب الثاني: الرسم العثماني مرجح من المرجحات.

المطلب الثالث: الرسم العثماني رافع للإشكال.

المطلب الأول: معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير:

لما كانت موافقة الرسم العثماني شرطاً لقبول القراءة، كان لزاماً على قارئ القرآن أن يتعلم الرسم؛ ذلكم أن تعلمه له يسهل عليه تلاوته ومن ثم فهمه للمعنى وتفسيره(١).

فالحاجة إلى تعلمه «كالحاجة إلى سائر علوم القرآن، بل أهم، ووجوب تعليمه أشمل وأعم»(٢).

ولقد عُني العلماء بذلك أيما عناية، حتى صار تعليم الرسم ميزة ومنقبة، فها هو ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحكي عن حال أهل المغرب فيقول: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه... وكذا في الكبير إذا رجّع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم»(٣).

---

(١) انظر: منجد المقرئين (ص٧٢).

(٢) هجاء مصاحف الأمصار للمهدوي (ص٣٤).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص٤٩٤).

قلت: ولذلك فإن أئمة أهل هذا الشأن - علم الرسم والضبط - هم أهل المغرب كالداني والشاطبي وغيرهم.

وليست معرفة الرسم مقصورة على ضبط ألفاظه وفهم معانيه، بل في الذب عن شبهات الطاعنين في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذين اتخذوا بعض ظواهره دعوى لعدم تواتره أو اختلافه وتناقضه(١).

فإذا عرف المفسر الرسم وقواعده كان أمنة له من الوقوع في الخطأ في التأويل.

ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره التستري في تفسيره عند قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] حيث يقول: «قال سهل: نبه الله به عباده المؤمنين، ثم قال: سلوا ربكم السبيل إلى هذه العين»(٢).

فتكون مفردة ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ مركبة «من كلمتين: من فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول، والتقدير: سل أنت سبيلاً إليها»(٣).

وهذا القول في غاية الضعف(٤) «إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلًا جعلت علماً للعين كما قيل: تأبط شراً وذرى حباً، وسميت بذلك؛ لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع»(٥).

ومع ذلك فهو مخالف لرسم المصحف، يقول ابن الجزري: «وهذا مع ما فيه من التحريف يبطله إجماع المصاحف على أنه كلمة واحدة»(٦).

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص٢٤) وما بعدها.

(٢) تفسر التستري (ص١٨٣)، وقد جاء القول منسوباً إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: النكت والعيون للماوردي (١٧١/٦)، زاد المسير (٤٣٨/٨)، بصائر ذوي التمييز (٤٩٤/١).

(٣) الدر المصون (٦١٣/١٠).

(٤) انظر: تفسير السمعاني (١١٩/٣)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٨٨/٢)، البحر المحيط (١٤١/٢٥).

(٥) الكشاف (ص١١٦٦).

(٦) النشر في القراءات العشر (٢٣٢/١).

ومن الأمثلة كذلك ما جاء في توجيه قراءة الجمهور لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣][1]، حيث تعد هذه القراءة مُشكلة على كثير من الناس مع أنها أصح القراءات لفظاً ومعنى، «ومنشأ الإشكال: أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء، وفي حال الرفع بالألف، وهذا متواتر في لغة العرب... فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هذين، اللذين تجري على هذا المجرى، وأن المبني في حال الرفع يكون بالألف، ومن هنا نشأ الإشكال»[2].

ومن التوجيهات التي وُجهت بها هذه القراءة، وكان الجهل برسم المصحف فيها مُوجب لرد هذا التوجيه، ما قيل: من أن اسم (إن) «ضمير القصة هو (ها) التي قبل (ذان) وليست بـ (ها) التي للتنبيه الداخلة على أسماء الإشارة، والتقدير، إنَّ القصة ذان لساحران.

وقد ردوا هذا من وجهين:

أحدهما: من جهة الخط، وهو أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن تُكتب (إنها) فيصلوا الضمير بالحرف قبله كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] فكتبهم إياها مفصولة من (إنَّ) متصلة باسم الإشارة يمنع كونها ضميراً، وهو واضح...»[3].

ولعل مما سبق يُعلم أن معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير، وكذلك من الخطأ في الإعراب، إذ الإعراب فرع عن المعنى[4]، والله أعلم.

---

(١) وقرأ ابن كثير بإسكان نون (إن)، (وهذان) بالألف مع تشديد النون والمد المشبع للساكنين وصلًا ووقفاً، وقرأ أبو عمرو بتشديد نون (إن) وفتحها، و(هذين) بالياء مع تخفيف النون، وحفص بإسكان نون (إن)، (وهذان) بالألف مع تخفيف النون، والجمهور بتشديد نون (إن) وفتحها، (وهذان) بالألف مع تخفيف النون. انظر: السبعة (ص٤١٩)، التيسير (ص١٥١)، النشر (٣٢١/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤٨/١٥) وقد أطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توجيه هذه القراءة.

(٣) الدر المصون (٦٦/٨). وانظر: البحر المحيط (٥٦١/١٨).

(٤) ذكر السيوطي في الإتقان (١٢٣١/٤) أن من الأمور التي يراعيها المعرب: رسم المصحف، وساق على خطأ بعض المعربين أمثلة، وقد سبقه إلى ذلك ابن هشام النحوي في مغني اللبيب (٦٧٨/١).

المطلب الثاني: الرسم العثماني مرجح من المرجحات:

ليس كل خلاف يُذكر في تفسير آية أو شرح حديث خلاف معتبر(١)، والخلاف المعتبر إما أن يكون من قبيل اختلاف التنوع أو اختلاف التضاد(٢).

والمفسر ينظر إلى الأقوال التي قيلت في الآية، فإما أن يجمع بينها إذا كانت الآية تحتملها، فإن لم تكن فإنه يلجأ إلى الترجيح. والمرجحات كثيرة، من بينها: الرسم العثماني، «فالوجه التفسيري والإعرابي الموافق لرسم المصحف أولى من الوجه المخالف له»(٣).

وقد أعمل ذلك الإمام أبو عبد الله القرطبي في تفسيره عند قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] حيث يقول: «وقوله: ﴿فَلَا﴾ للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي، وإنما أثبتت الياء؛ لأن رؤوس الآي على ذلك.

والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة.

والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً، وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف وعليها القراء»(٤).

وزاد بعض المفسرين التنصيص على إطراح القول لمخالفته الرسم العثماني، فها هو شيخ المفسرين ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عند تفسير قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة القول الذي ذكرنا عن قتادة من أن معناه: ألم تر، ألم تعلم، للشاهد الذي ذكرنا فيه من قول الشاعر، والرواية عن العرب وأن ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ في خط المصحف حرف واحد.

(١) انظر: الرسالة للشافعي (ص٥٣٦)، الموافقات للشاطبي (١٣٩/٥).

(٢) انظر: فصول في أصول التفسير (ص٥٩)، أسباب اختلاف المفسرين (ص١٦).

(٣) قواعد الترجيح عند المفسرين (٩٩/١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٨/٢٢). وانظر: المحرر الوجيز (٢٢٣/١٠)، مفاتيح الغيب (١٢٩/٣١)، الهداية لمكي بن أبي طالب (٦١٥٧/٩)

ومن وجّه ذلك إلى غير التأويل الذي ذكرنا عن قتادة فإنه يصير حرفين، وذلك أنه إن وُجِّه إلى قول من تأوله بمعنى: ويلك اعلم أن الله. وجب أن يفصل (ويك) من (أن)، وذلك خلاف خط جميع المصاحف، مع فساده في العربية لما ذكرنا.

وإن وُجّه إلى قول من يقول: (وي) بمعنى التنبيه، ثم استئناف الكلام بـ (كأن) وجب أن يفصل (وي) من (كأن) وذلك أيضاً خلاف خطوط المصاحف كلها.

فإذا كان ذلك حرفاً واحداً، فالصواب في التأويل ما قاله قتادة»[1].

وأحياناً يُغرب بعض المفسرين في تحميل الرسم العثماني ما لا يحتمل، مرجحاً به قولاً من الأقوال، فقد ذكر أبو السعود في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] قولاً زائد على ما قيل في الآية، فقال: «وأقرب منه أن يراد بـ (الناس): الناسي، ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] ثم يبين بالجنة والناس، فإن كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى، إلا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته...»[2].

المطلب الثالث: الرسم العثماني رافع للإشكال:

أنزل الله عَزَّوَجَلَّ كتابه محكماً لا اعوجاج فيه، فقال عز من قائل: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وإذا كان كذلك فقد ندب الله عباده لتفهمه وتدبره، وسبر أغواره وإدراك عجائبه، والمتفهمون له متفاوتون في ذلك، فقد يظهر لأحدهم ما خفي على غيره، ويُفتح لبعضهم ما تشابه على آخرين. فالتشابه نسبي، وأسبابه متعددة، وطرق كشفه متنوعة.

---

(١) جامع البيان (٣٤١/١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٢١٧/٩). وانظر: مثالًا آخر في الدر المصون (١٨٣/٤).

ومن تلكم الطرق: الرسم العثماني، فمعرفته سبب في كشف المشكل وإزالة التوهم، فمثلاً مفردتا ﴿كَالُوهُمْ﴾ و﴿وَّزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] رسمتا في المصحف بغير ألف بعد الواو، ليكون الضمير (هم) في المفردتين في موضع نصب عائداً على الناس، ويكون المعنى: وإذا كال المطففون الناس أو وزنوا للناس يخسرون.

فجاء الرسم رافعاً لتوهم أن يكون الضمير (هم) في المفردتين في موضع رفع للابتداء عائداً على واو الجماعة، فيكون المعنى: وإذا كال المطففون للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون[١].

قال الزجاج: «والاختيار أن تكون (هم) في موضع نصب، بمعنى: كالوا لهم، ولو كانت على معنى (كالوا)، ثم جاءت (هم) توكيداً، لكان في المصحف ألف مثبتة قبل (هم)»[٢].

وكذلك الشأن في توجيه رسم مفردة ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فالمراد بها: القوة[٣]، أي: والسماء بنيناها بقوة، ولذلك رسمت بيائين للتفريق بينها وبين الأيدي التي هي جمع (يد)[٤]، وعليه، فرسمها بيائين رافع لتوهم جعل هذه الآية من آيات الصفات[٥].

(١) انظر: جامع البيان (١٨٧/٢٤)، الكشف والبيان (٣٣/٢٩)، الجامع لأحكام القرآن (١٣٢/٢٢).
(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢٣٠/٥). وانظر مثالا آخر: جامع البيان (٧٢٤/٢).
(٣) انظر: جامع البيان (٥٤٥/٢١)، تفسير ابن أبي حاتم (٣٣١٣/١٠).
(٤) انظر: المحكم في نقط المصحف (ص١٠٨)، البرهان في علوم القرآن (٥٥٣/١).
(٥) انظر: أضواء البيان (٧١٠/٧)، وللاستزادة في إيضاح هذه المسألة، انظر: بيان تلبيس الجهمية (٣٤٢/٣).

الخاتمة

وبعد التطواف بين مباحث ومطالب هذا البحث توصل الباحث إلى عدة نتائج، وبدا له عدة توصيات، ومن ذلكم:

١. وجود علاقة وثيقة بين علمي التفسير والرسم العثماني، وأن على المفسر أن يراعي خط المصحف أثناء تفسيره.

ولو أن أحداً من الباحثين انبرى لبيان مقدار ما يحتاجه المفسر من مسائل علم الرسم لكان محسناً لأهل الفن والتخصص.

٢. ظهور عناية المفسرين بعلم الرسم، وقد بدا ذلك من خلال إثباتهم لركنية الرسم في قبول القراءة، الأمر الذي أدى إلى دفاعهم عنه وانتصارهم له مما ينتحله المبطلون والطاعنون في كتاب الله، وهم مع ذلك لم يتركوا ظواهره غُفلاً بدون توجيه، بل سعوا إلى توجيه ذلك عن طريق اللغة تارة، وعن احتمال القراءات ثانية، وعن مراعاة الفواصل ثالثة وغير ذلك.

فيا ليت باحثاً كريماً يتصدى لهذا العمل ويكشف لنا أسراره.

٣. بدا للباحث أن للرسم العثماني أثراً على المعنى، وذلك من خلال أن معرفته أمنة من الوقوع في الخطأ، إضافة إلى أن الرسم مرجح من المرجحات بين الأقوال التفسيرية، ناهيك عن كون العلم به رافع للإشكال.

وعليه، فإني أدعو المختصين إلى تتبع تلك الآثار، وربما الوقوف على غيرها. وذلك من خلال استقراء كتب الرسم والتفسير وسبر أغوارها.

والله أسأل العلم النافع والعمل الصالح وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن والاه.

المراجع والمصادر

- **الإبانة عن معاني القراءات**: لمكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ)، تحقيق: محيي الدين رمضان، دار المأمون، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ).
- **الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ**: لأحمد بن المبارك السجلماسي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٣٢هـ - ٢٠٠٢م).
- **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- **أدب الإملاء والاستملاء**: لعبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- **إرشاد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن**: لمحمد بن علي الحسيني، الشهير بالحداد، تحقيق: جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**: للإمام محمد بن محمد العماري أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **أسباب اختلاف المفسرين**: لمحمد بن عبد الرحمن الشايع، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).
- **أصول في التفسير**: لمحمد بن صالح العثيمين، مجموعة رسائل في الأصول، جمع وإعداد: دار البصيرة، الإسكندرية.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).
- **الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)**: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة (١٩٨٠م).

- **الانتصار للقرآن**: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، دار الفتح، عمان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام عثمان بن عفان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لمحمد حبيب الله الشنقيطي، مكتبة المعرفة، سورية، الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).
- **البحر المحيط في التفسير**: لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).
- **بدائع الفوائد**: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة (١٤٣٣هـ).
- **البرهان في علوم القرآن**: لبدر الدين الزركشي، تحقيق: زكي محمد أبو سريع، دار الحضارة، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ).
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٣٩٣هـ).
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.
- **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي سيري، دار الفكر (١٤١٤هـ).
- **تاريخ القرآن وغرائب رسمه**: لمحمد طاهر الكردي، مراجعة: علي الضباع، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية (١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م).

- **تاريخ بغداد**: لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **تأويل مشكل القرآن**: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).
- **التحرير والتنوير في التفسير**: لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (١٩٨٤م).
- **التسهيل لعلوم التنزيل**: لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).
- **تفسير الإمام ابن عرفة**: لمحمد بن محمد بن عرفة التونسي، تحقيق: حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، الطبعة الأولى (١٩٨٦م).
- **تفسير القرآن العظيم**: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ).
- **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله** ﷺ **والصحابة والتابعين**: للإمام عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ).
- **تفسير القرآن**: للإمام أبي مظفر السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي السلفي، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس، دار الوطن، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**: لمساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **تهذيب التهذيب**: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف.
- **تهذيب اللغة**: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

- **التيسير في القراءات السبع**: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، در الكتاب العربي، الطبعة الثالثة (١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م).
- **التيسير في قواعد علم التفسير**: لمحمد بن سليمان الكافجي، تحقيق: ناصر المطرودي، دار القلم، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**: لأبي عبد الله محمد ابن أحمد القرطبي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م).
- **جمهرة اللغة**: لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، نشر دار العلم للملايين، الطبعة الأولى (١٩٧٨م).
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: أحمد بن محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، نشر الكتب الحديثة، مصر (١٣٨٥هـ).
- **دليل الحيران على مورد الظمآن في فني الرسم والضبط**: لإبراهيم بن أحمد المارغني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٩٩٤م).
- **الرسالة**: لمحمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **رسم المصحف بين التحرز والتحرر**: لزيد عمر مصطفى، بحث منشور في مجلة الدارة، العدد الثالث (١٤١٥هـ).
- **رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية**: لغانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).

- **رسم المصحف والإعجاز العددي**: لأشرف عبد الرزاق قطنة، منار للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).
- **رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاح**: لشعبان محمد إسماعيل، دار الثقافة، قطر، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).
- **رسم المصحف ونقطه**: لعبد الحي حسين الفرماوي، دار نور المكتبات، المكتبة المكية، جدة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م).
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، تحقيق: السيد محمد السعيد، وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).
- **زاد المسير في علم التفسير**: لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).
- **السبعة في القراءات**: لأحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).
- **سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين**: لعلي محمد الضباع، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).
- **سنن الترمذي**: للحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، اعتنى به: مشهور حسن سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- **سير أعلام النبلاء**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ).
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لعبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ)، دار ابن كثير، دمشق.

- **شرح السنة**: للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ).
- **شرح شافية ابن الحاجب**: لمحمد بن الحسن الاستراباذي، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت (١٣٩٥هـ).
- **شعب الإيمان**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م).
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: لعياض بن موسى بن عياض، تحقيق: حسين عبد الحميد سنبل، دار الأرقم، بيروت.
- **الصاحبي في فقه اللغة**: لأحمد بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- **الصحاح في اللغة**: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ).
- **طبقات الشافعية**: لأبي بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ).
- **طبقات المفسرين**: لمحمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).
- **غاية النهاية في طبقات القراء**: لشمس الدين أبي الخير محمد بن الجزري، عني بنشره ج. برجستراسر، طبع دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية (١٤٠٠هـ).
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، اعتنى به: نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الطبعة الرابعة (١٤٣٢هـ- ٢٠١١م).
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير**: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).
- **الفردوس بمأثور الخطاب**: لشيرويه بن شهردار الديلمي، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهبي سليمان غاري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٤١١هـ).
- **القاموس المحيط والقابوس الوسيط فيما ذهب من لغات العرب شماطيط**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: التراث بمؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ).
- **القراءات الشاذة**: لأبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن خالويه، دار الندى بالأردن (٢٠٠٢م).
- **قواعد الترجيح عند المفسرين**: لحسين بن علي الحربي، دار القاسم، الطبعة الثانية (١٤٢٩هـ).
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، علق عليه: خليل مأمون شيحا، دا رالمعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ).
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، أشرف على إخراجه: صلاح باعثمان وآخرين، دار التفسير، جدة، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).
- **لسان العرب**: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت.
- **مجموع الفتاوى**: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٤٢٥هـ).
- **محاسن التأويل**: لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**: لأبي الفتح عثمان بن جني، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف القطرية.
- **المحكم في نقط المصاحف**: لأبي عمرو الداني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ)، دار الكتب العلمية.
- **مختصر التبيين لهجاء التنزيل**: لأبي داود سليمان بن نجاح، تحقيق: أحمد شرشال، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

- **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**: لعبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- **المصاحف**: لأبي بكر عبد الله بن سليمان السجستاني، المعروف بابن أبي داود، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار غراس، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- **معالم التنزيل**: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد بن عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).
- **معاني القرآن**: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: عبد الفتاح شلبي، عالم الكتب، الطبعة الثانية (١٩٨٠م).
- **معاني القرآن وإعرابه**: لأبي إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
- **معاني القرآن**: للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١١هـ).
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**: لمساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).
- **مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار عالم الكتب (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
- **مقدمة ابن خلدون**: لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ضبطه: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م).
- **مقدمة جامع التفاسير**: للراغب الأصفهاني، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).

- **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار**: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: نورة حسن الحميد، دار التدمرية، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**: لمحمد عبد العظيم الزرقاني، تحقيق: أحمد المصراوي، دار السلام (١٤٢٤هـ).
- **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**: لمحمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).
- **الموافقات**: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد البلخي الشاطبي، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرّج أحديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان.
- **النشر في القراءات العشر**: لمحمد بن محمد ابن الجزري، أشرف على تصحيحه: علي محمد الضباع، دار الكتاب العربي.
- **النكت والعيون**: لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، راجعه: عبد الستار أبو غدة، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ).
- **هجاء مصاحف الأمصار**: لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي، دار ابن الجوزي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ).
- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٩
المقدمة	٢٠
التمهيد	٢٢
المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً	٢٢
المطلب الثاني: تعريف الرسم لغة واصطلاحاً	٢٦
المطلب الثالث: الرسم بين التوقيف والاصطلاح	٢٧
المبحث الأول: عناية المفسرين بالرسم العثماني	٣١
المطلب الأول: إثبات ركنية الرسم العثماني	٣١
المطلب الثاني: الانتصار للرسم العثماني	٣٣
المطلب الثالث: توجيه ظواهر الرسم العثماني	٣٦
المبحث الثاني: أثر الرسم العثماني على المعنى	٤٤
المطلب الأول: معرفة الرسم عصمة من الخطأ في التفسير	٤٤
المطلب الثاني: الرسم العثماني مرجح من المرجحات	٤٧
المطلب الثالث: الرسم العثماني رافع للإشكال	٤٨
الخاتمة	٥٠
المراجع والمصادر	٥١
فهرس الموضوعات	٦٠

الأرض التي يورثها الله لعباده الصالحين
دراسة قرآنية ومقارنة نقدية

أ. أبو محمد محمد بن فريد[1]

مُلخّصُ البحث

«الاعتقادات الخاطئة»[2] من أقوى «دوافع الإحباط والتثبيط»، كما يُعْتَبُر «سوءُ الفهم» مصدر رئيس للعقائد الفاسدة، والتي منها: «أنه لا مكان للمؤمن في الدنيا، إذ هي وطن الكافرين فحسب!». ومن مصادر هذا الفهم الخاطئ تأويل غير صحيح لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، إذ حَمل الكثيرون الأرض التي وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها الصالحين أنَّها الجنَّة وليست أرض الدنيا، مستدلين على ذلك ببعض الآثار والاجتهادات، فاستعنت بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على جمع تلك الآثار وتحقيقها تحقيقاً وافياً، ومناقشة هذه الاجتهادات مناقشة علمية، وتلخيص نتيجة البحث بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، وبيَّنت في الفصل الرابع ما ترجح لدي، مستدلاً على ذلك بالأصول اللغوية، إذ لم يصح في المسألة حديثٌ عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أثرٌ عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. ثم قمت في الفصل الخامس بالرد على الشبهات، ثم لخَّصت نتائج الرسالة في الخاتمة، ومن أهمها: أنَّ الأرض المعنية هي أرض الدنيا، وأنَّ الصالحين هم خلفاء الله في أرضه، وهم المسئولون عن عمارتها بشريعة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ السُّلطان يعود إليهم بسنَّة الله الكونية مهما طالت دولة الطغيان.

---

(١) المدير العام لمؤسسة طفرة للبحث العلمي.

(٢) أعني بالاعتقاد الخاطئ ظن بعض العامة أن المؤمن لا مكان له في الدنيا لأنها خالصة للكافرين من دون المؤمنين، وهو ثمرة سوء فهمهم لكلام السلف، وحاشا لسلفنا الصالح أن يُتَّهَموا وهم الذين نقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلينا على أيديهم القرآن والسنة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد:

في ظل الهزائم المتتابعة للمسلمين، والمصائب المتماطرة عليهم يضعف يقين البعض، ويسوء ظن البعض الآخر، وتيأس قلوب الضعفاء، وتقنط نفوس المرتابين، ومن بين كل أولئك الحيارى يئوب المؤمن للقرآن، فيجد فيه نعم السلوان، وخير البشرى، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فإذ به يجد في الآية الكريمة ما يُقَوِّي عزمه، ويزيل همه، ويضاعف نشاطه، ويدفعه للبذل والتفاني موقناً بالوعد الإلهي القاطع أنَّ كل ما يعانيه المسلمون من البلاء، ويكابدونه من العناء لن يفضيَ إلَّا للفوز في الدنيا والآخرة بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما هذا بعد حصول الإرادة الإلهية، وتحقيق السنن الربانية من اصطفاء الشهداء، وصقل الأصفياء، وكشف الخبثاء.

ومع ذلك فقد حمل الكثيرون الأرض التي وعدها اللهُ للصَّالحين بأنَّها الجنَّة وليست أرض الدنيا، مستدلين على ذلك ببعض الآثار والاجتهادات، فاستعنت بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على جمع تلك الآثار وتحقيقها، ومناقشة هذه الاجتهادات، وتلخيص نتيجة البحث بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، وأوردت هذه الأقوال في ثلاثة فصول، بينما الترجيح في الفصل الرابع، والرد على الشبهات في الفصل الخامس، فالخلاصة، والنتائج، والخاتمة نسأل الله حسنها.

الدراسات السابقة: عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! لم أجد مُصَنَّفاً خصَّ الآية بالتفسير من دون آيات الكتاب المجيد، ولكنَّ تأويلها منثورٌ في كتب التفسير على كثرتها، فكان هذا البحث بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جمعاً لما نثره سلفنا الصالح في كتبهم، وتحقيقاً لِمَا أوردوه في مصنفاتهم، ومقارنة وترجيحاً بين أقوال السلف فيها، واستخلاصاً لما فيها من الدروس والعبر والفوائد بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المنهج الإجرائي للبحث. استعنت بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على استقراء ما يسره لي عَزَّوَجَلَّ من كتب التفسير، وجمع ما هداني له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الآثار المتعلقة بالآية، والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ في بذل الوسع لتحقيقها رجاء الوصول لأدق النتائج بعون الله عَزَّوَجَلَّ، مع جمع ما رزقنيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أقوال العلماء فيها.

وقد أسفر هذا الاستقراء والاستقصاء عن سفرٍ ضخمٍ، فاستعنت به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على اختصاره، وهذه بعض سبل الاختصار:

١. إذا تكرر الأثر في مراجع عديدة لا أكرره أنا، بل أكتب الأثر مرة واحدة، ثم أخرجه في الهامش من مراجعه التي ذُكِرَ بها.
٢. عندما يتكلم العلماء في راوٍ، أو في أثرٍ؛ لا أذكر نصوص العلماء في تضعيف الراوي، أو الأثر، بل أذكر الحكم النهائي، ثم أحيل القارئ في الهامش على المصادر التي يرجع إليها لمعرفة نصوص العلماء في الراوي والأثر.
٣. عندما تجتمع كلمة مجموعة من العلماء على معنى واحد، لا أذكر لفظ كل منهم، بل أكتفي بذكر مضمون ألفاظهم، ومعناه في صياغة واضحة، ثم أعقب على القول بذكر أسماء الذين قالوا ما يفيد هذا المعنى، ثم أحيل القارئ في الهامش للمصدر الذي يرجع إليه إذا رغب في معرفة نص اللفظ.

وتعود **أهميةُ الدراسة** لعدة اعتبارات، أهمها:

١. التوكيد على السَّنَّةِ الربَّانِيَّة الَّتِي أكَّد عليها ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مواضع عديدة، وخلاصتها: ﴿**إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [هود: ٤٩]، وما تحمله من فأل وبشرى للمتقين الصالحين.
٢. التوكيد على صفات الوارثين لإمامة الدنيا من الصلاح والتقوى وتطبيق الشريعة الإلهية.
٣. التوكيد على عدم مشروعية صرف اللفظ القرآني عن ظاهره بغير برهان.

٤. التوكيد على عدم مشروعية تخصيص العام، أو تقييد المطلق بغير برهان.

٥. تُعدُّ الدراسةُ نموذجاً عملياً يؤكد على أهمية التحقق من الآثار قبل اعتمادها كمصدر للتفسير.

٦. تؤكد الدراسةُ على الحاجة الملحة للمكتبة الإسلامية إلى تفسير نموذجي يعتمد الآراء الراجحة بعد كمال التحقيق، وتمام التدقيق.

وأخيراً نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوفيق والسداد، والهدى والرشاد، فهو نعم المولى ونعم النصير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفصل الأول
ذكر من قالوا: «إنَّ الأرض المعنية هي الجنة»

وقد اعتمد أصحاب هذا القول على أمورٍ، منها أثرٌ منقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال في تفسير الآية: «أنَّها أرضُ الْجَنَّة»(١).

فاستعنت بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على جمع طرقه، فكانت على النحو التالي:

الطريق الأول: رواه الطبري(٢)، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ضعيف لضعف أبي يحيى القتات.

هو: أبو يحيى القتَّات الكوفي الكناسي، اسمه: زاذان، وقيل: دينار، وقيل: عبد الرحمن بن دينار. ضعفه الإمام أحمد(٣)، ويحيى بن سعيد(٤)، وأبو زرعة(٥).

الطريق الثاني: رواه أبو نعيم(٦)، عن عبد الغني بن سعيد؛ عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، وعن مقاتل، وعن الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو موضوع لأمور منها:

١. موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، دجَّال كذَّاب(٧).

---

(١) [ضعيف] رواه الطبري في التفسير (٤٣٤/١٦)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٧٥٨، ١٣٧٥٩)، وأبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة (١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٥٣)، وضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة (١٧٠). وأشار لهذا الأثر الكثير من العلماء. انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٨٥/٥، ٦٨٦)، وفتح القدير للشوكاني (٥١١/٣، ٥١٢)، وتفسير الآلوسي (٩٨/٩، ٩٩).

(٢) [ضعيف] رواه الطبري في التفسير (٤٣٤/١٦).

(٣) راجع نص كلامه في: العلل (١٥٢٣)، ضعفاء العقيلي (٩٢٥).

(٤) راجع: الضعفاء الكبير للعقيلي (٦٦/١).

(٥) راجع: الضعفاء لأبي زرعة الرازي في أجوبته على أسئلة البرذعي (٤٣١/٢).

(٦) [موضوع] رواه أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة (١٣).

(٧) راجع قول ابن حبان في: المجروحين لابن حبان (٢٤٢/٢)، والكامل لابن عدي (٦٦/٨).

٢. عبد الغني بن سعيد بن عبد الرحمن الثَّقفي، ضعيف جداً[١].

الطريق الثالث: رواه البيهقي[٢]، عن داود بن الحسين الخُسْرُوجِرْدِيِّ؛ حدثنا محمد ابن حميد، حدثنا عمر بن هارون، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو منكرٌ، لأمور منها:

العلة الأولى: عدم ثبوت سماع عطاء الخراساني من ابن عباس[٣].

العلة الثانية: وجود عمر بن هارون بن يزيد أبي حفص البلخي، (متروك).

العلة الثالثة: محمد بن حميد بن حيان التميمي، (ضعيف جداً).

العلة الرابعة: داود بن الحسين البيهقي الخُسْرُوجِرْدِيِّ، (لم أجد له موثقاً).

الطريق الرابع: رواه الضياء[٤]، عن محمد بن كثير، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي ظاهره علتان:

العلة الأولى: عنعنة الأعمش، إذ حذَّر الكثيرون من قبول رواية الأعمش ما لم يصرح بالتحديث؛ لما عُرِفَ به من التدليس عن الضعفاء[٥].

---

(١) راجع: تاريخ ابن يونس المصري (٣٢١/١)، تاريخ الإسلام للذهبي (٦٢٣/٥).

(٢) [منكر] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٥٣).

(٣) راجع كلام ابن معين في: تاريخ ابن معين، رواية ابن محرز (١٢٩/١)، والجرح والتعديل (٢٣٨/١)، (٢٤٥/١)، والمجروحين لابن حبان (٩١٨).

(٤) [ضعيفٌ] رواه ضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة (١٧٠) (ج١٠) (ص١٧٣).

(٥) راجع نص كلام الطبري في: تهذيب الآثار مسند علي (٦١/٣)، وكلام أبي الفتح الأزدي في: النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي (٨٩/٢)، وكلام ابن حبان في الثقات لابن حبان (١٢/١)، والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان (٣١/١)، وكلام ابن عبد البر في التمهيد (٣٠/١)، وابن رجب في شرح علل الترمذي (٥٥٦/١)، وكلام الذهبي في ميزان الاعتدال (٢٢٤/٢).
إضافة لما سبق فقد قال ابن المديني ما يؤكد عدم سماع الأعمش لهذا الأثر الموقوف عن ابن عباس، فقال ابن المديني: «إنَّما سمع الأعمش من سعيد بن جبير أربعة أحاديث، وذكر منها: وقول سعيد بن جبير: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل (ص١٣٦).
والأثر المقطوع عن ابن جبير صحيحٌ وسيأتي تخريجه قريباً إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا توكيدٌ من ابن المديني على أنَّ كلَّ ما يُروى عن الأعمش، عن سعيد بن جبير لم يسمعه منه غير هذه الآثار الأربعة.

العلة الثانية: أبو الخير محمد بن رجاء. هو: أبو الخير محمد بن رجاء بن إبراهيم ابن عمر بن الحسن بن يونس، مجهول الحال، لم أقف له على موثق، كما لم أقف له على رواة عنه إلا:

١. الشيخ أبو بكر محمد بن محمد بن أبي القاسم ابن أبي شكر المؤدب التميمي.

٢. أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن محمد الخباز، يعرف بقفك.

٣. أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني المديني.

والخلاصة: إنَّ الأثر المنقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال في تفسير الآية: «أنَّها أرضُ الْجَنَّة» أثر ضعيف من كل طرقه، ولم تصح نسبته لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلى وأعلم.

كما ذهب لتفسير الأرض بالجنة جماعة من العلماء. منهم: قتادة[١]، وأبو العالية[٢]، وسعيد بن جبير[٣]، والشعبي[٤]، ومجاهد[٥]، وعكرمة[٦] ومقاتل[٧]، والثوري[٨]، وابن زيد[٩]، ويحي بن سلام[١٠]، والطبري[١١]، .....

وهذا يؤكد أنَّ الأثر الموقوف عن ابن عباس بشأن هذه الآية لم يسمعه الأعمش من ابن جبير؛ لأنه ليس مندرجاً تحت الآثار الأربعة التي أكَّد ابن المديني أن الأعمش لم يسمع غيرها من ابن جبير، فالصحيح هو الأثر المقطوع عن ابن جبير، وأما الأثر الموقوف على ابن عباس فهو ضعيف والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلى وأعلم.

(١) تفسير يحي بن سلام (٣٥٠/١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٤٣٦/١٦).

(٣) [صحيح] رواه ابن وهب في تفسيره (٣٣٣)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١٥٠/٣)، والطبري في التفسير (٤٣٥/١٦).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٣٧٦١).

(٥) [حسن] رواه مجاهد بن جبر في تفسيره (٤٧٦)، والطبري في تفسيره (٤٣٦/١٦).

(٦) أشار إليه الرازي في مفاتيح الغيب (١٩٢/٢٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٦٨٦/٥)، وغيرهما.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان (٦٨٩/٣).

(٨) تفسير سفيان الثوري (ص٢٠٧).

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٤٣٦/١٦)، (٢٧٠/٢٠).

(١٠) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه (٢٤٥).

(١١) تفسير الطبري = جامع البيان (٤٣٤/١٦).

والماتريدي[١]، والنَّحَّاس[٢]، والثَّعلبي[٣]، والقرطبي[٤]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٥]، وسراج الدين الحنبلي[٦]، والفيروزآبادي[٧]، والجلالان[٨]، والآلوسي[٩]، وغيرهم[١٠].

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٣٨٢/٧).
(٢) إعراب القرآن للنَّحَّاس (٥٩/٣).
(٣) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣١٣/٦).
(٤) تفسير القرطبي (٣٤٩/١١).
(٥) انظر: دقائق التفسير (٢٥٨/٢)، مجموع الفتاوى (١٠٩/١٥).
(٦) اللباب في علوم الكتاب (٦١٩/١٣).
(٧) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤١٣).
(٨) تفسير الجلالين (ص٤٣١).
(٩) تفسير الآلوسي = روح المعاني (٩٨/٩: ٩٩).
(١٠) وتفسير الأرض بالجنة رأى عدد كبير من العلماء كما هو مذكور في البحث وتفسيره بأرض الدنيا أيضاً رأى عدد من العلماء فلكلّ مجتهد أجره، فمن أصاب فله أجران، ومن لم يُصب فله أجر الاجتهاد، فجزاهم الله خيراً على ما قدَّموه للإسلام والمسلمين (هيئة التحرير).

الفصل الثاني
ذكر من قالوا: «إن الأرض المعنية هي الدنيا»

اعتمد الكثيرون منهم على أثرٍ منقول لابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: «أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ بِمَا فِي سَابِقِ عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَنْ يُوَرِّثَ اللهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَرْضَ وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ وَهُمُ الصَّالِحُونَ»(١).

وهو ضعيف مرسل لأمور؛ من أهمها:

رواية علي بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة سالم بن المخارق؛ عن ابن عباس.

أولاً: علي بن أبي طلحة، تُكُلِّمَ فيه(٢).

قال الإمام أحمد: «له أشياء منكرات»(٣).

وقال الفسوي: «ضَعِيفُ الْحَدِيثِ، مُنْكَرٌ لَيْسَ بِمَحْمُودِ الْمَذْهَبِ»(٤).

وقال الفسوي فِي موضع آخر: «ليس هو بمتروك، ولا هو حجة»(٥).

وقَالَ النَّسَائِيُّ: «لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

وَقَالَ أَبُو داود: «كان له رأي سوء كان يرى السيف»(٦).

قال أَبُو أَحْمَدَ الْحَاكِمُ: «لَيْسَ مِمَّنْ يُعْتَمَدُ عَلَى تَفْسِيرِهِ»(٧).

---

(١) [ضعيفٌ مرسلٌ] رواه ابن أبي حاتم (١٣٧٦٠)، والطبري (١٦/٤٣٥)، والبيهقي في القضاء والقدر (١٤).

(٢) هو: علي بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة: سالم بن المخارق، الشامي، مولى لبني هاشم، ولبني العباس خاصة. كنيته: قيل: أَبُو طَلْحَة، وقيل: أبو الحسن، وقيل: أَبُو مُحَمَّد، توفي (١٤٣هـ).

(٣) العلل ومعرفة الرجال، رواية المروذي (٣٩)، ونقله العقيلي في الضعفاء (١٢٣٦).

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/٤٥٧).

(٥) تاريخ بغداد (١٣/٣٨٠).

(٦) أبو داود يتكلم عن الكوفي الذي يروي عنه سفيان، والحسن بن صالح، ولا أدري هل أورده الذهبي وهماً أم لأنه يعتبره، ومن يروي عنه معاوية بن صالح التفسير واحداً؟

(٧) تاريخ الإسلام (٣/٩٣٤).

ثانياً: علي بن أبي طلحة، لم يسمع من ابن عباس[١].

قال ابن معين: «لم يسمع من ابن عباس شيئاً فروى مرسلاً»[٢].

وأجمع السلف على إرساله عن ابن عباس، ومع هذا لا بأس أن يُكْتَبَ الأثرُ ويدون أن يرتقي لدرجة الاحتجاج، لا سيما وأنَّ مجاهداً الذي يكون واسطة بين علي وابن عباس أحياناً ثبت عنه أنَّه فسَّر الأرض بالجنة[٣]، فلا يمكن أن يروي عن ابن عباس أنَّه فسَّر الأرض بالدنيا، ثم يفسرها برأيه أنها الجنة.

وهذا يؤكد أنَّ مجاهداً لم يكن واسطة بينهما في هذا الأثر خاصة.

وأشار لهذا الأثر جماعة، منهم الطبري[٤]، والبغوي[٥]، وابن القيم[٦]، وابن كثير[٧]، والشوكاني[٨]، والقِنَّوجي[٩].

كما ذهب إلى حمل الأرض على إنَّها الكوكب الذي نعيش عليه في الدنيا جماعة، منهم: أبو هلال العسكري[١٠]، والقشيري[١١]، والزمخشري[١٢]، وابن جزي[١٣]، وابن القيم[١٤]،

---

(١) وراجع فيه كلام ابن أبي حاتم، ودحيم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١٠٣١)، والمراسيل لابن أبي حاتم (٥٠٧)، وكلام ابن حبان في الثقات (٢١١/٧)، ومشاهير علماء الأمصار (١٤٥٠)، وابن مَنْجُويَه في رجال صحيح مسلم (١١٣٩).

(٢) من كلام أبي زكريا يحيى بن معين في الرجال (٢٦٠).

(٣) انظر: مجاهد بن جبر في تفسيره (٤٧٦)، والطبري في تفسيره (٤٣٦/١٦).

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان (٤٣٧/١٦).

(٥) تفسير البغوي (٣٢٠/٣).

(٦) الروح (١٧٣، ١٧٤).

(٧) تفسير ابن كثير (٣٣٧/٥).

(٨) فتح القدير للشوكاني (٥١١/٣، ٥١٢).

(٩) فتح البيان في مقاصد القرآن (٣٧٩/٨).

(١٠) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص٧٦).

(١١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٤١٦/١).

(١٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١٣٨/٣).

(١٣) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٣١/٢).

(١٤) شفاء العليل (ص٣٩)، والروح (١٧٣، ١٧٤)، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٣٢٥/١)، والصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٦٩٣/٢ - ٧٠٥).

وابن كثير(١)، والبقاعي(٢)، والسيوطي(٣)، والخطيب الشربيني(٤)، وأبو السعود(٥)، والألنجري(٦)، والإستانبولي(٧)، والشوكاني(٨)، والقِنَّوجي(٩)، والبنتني(١٠)، والقاسمي(١١)، ومحمد رشيد رضا(١٢)، ومدرسته(١٣)، وابن باديس(١٤)، والمراغي(١٥)، وعبد الكريم الخطيب(١٦)، وطاهر بن عاشور(١٧)، وأبو زهرة(١٨)، ومحيي الدين درويش(١٩)، والأبياري(٢٠)، وابن عثيمين(٢١)، وغيرهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٨/٣)، (٣٣٧/٥)، (٣٣٧/٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٠٤/١٣).

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٣٢٨/٣).

(٤) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٦٣٦/٢).

(٥) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨٨/٦).

(٦) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢٠٧/٣، ٥٠٤، ٥٠٥).

(٧) روح البيان (٩٨/٢).

(٨) فتح القدير للشوكاني (٥٠٨/٣).

(٩) فتح البيان في مقاصد القرآن (٣٧٩/٨).

(١٠) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٦٣/٢).

(١١) محاسن التأويل (٢٢٦/٧).

(١٢) تفسير المنار (٢٠٩/٢، ٣٨٠)، (٩٠/٨)، (٣٧/١٠ - ٤٠)، (٢٠٢/١٢).

(١٣) لاحظ تأثر محمد رشيد في تفسيره هذا بشيخه محمد عبده، إذ قال: «قال الأستاذ الإمام:...»، ثمَّ عقَّب قائلًا: «ونقول نحن على طريقته: إن ظن المغرورين...». المنار (٢٠٩/٢).
وفي موضع آخر يعقب بعد تفسيره للآية مشيراً لمصدر فهمه قائلاً: «وكان الأستاذ الإمام أوجز في الدرس...»، يعني بذلك أستاذه محمد عبده. المنار (٣٨٠/٢)، وغيره من المواضع.

(١٤) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص٣٤٥ - ٣٥٠).

(١٥) تفسير المراغي (١١٥/٢)، (٧٥/٤)، (٢٠٩/٩)، (٧٩/١٣، ١٢٥)، (٧٦/١٧ - ٧٨).

(١٦) التفسير القرآني للقرآن (١٣١٤/٩ - ١٣١٧)، (١٢٠٠/١٢).

(١٧) التحرير والتنوير (٩٣/٨)، (٢٧/٩)، (٢٠٨/١٣، ٢٠٩)، (١٣٧/١٥)، (١٦١/١٧ - ١٦٤).

(١٨) زهرة التفاسير (٢١١١/٤)، (٢٩٣١/٦)، (٤٩٢٧/٩).

(١٩) إعراب القرآن وبيانه (٣٧٠/٦).

(٢٠) الموسوعة القرآنية (٣٣٨/١٠).

(٢١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٢١٠/٣).

الفصل الثالث

ذكر مجموعة من أقوال العلماء والمفسرين

ذكر من قالوا: «إنها الأرض التي تجتمع فيها أرواح المؤمنين»: قال أبو اليمان عامر بن عبد الله: «هي الأرض التي تجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث»(١).

ذكر من قالوا: «إنها القدس وأن المقصودين بوراثته بنو إسرائيل»: ذكره الطبري منسوباً لآخرين بغير تسمية لهم(٢).

ذكر من قالوا: «إن الأرض المعنية هي الشام»: ذكره النسفي(٣).

ذكر من أوردوا قولين، ولم يرجحوا:

القول الأول: إن الأرض المعنية هي الجنة.

القول الثاني: إن الأرض المعنية هي الكوكب الذي نعيش عليه.

ذَكَرَ القولين بغير ترجيح كلٌ من السعدي(٤)، والشنقيطي(٥).

ذكر من أوردوا قولين آخرين، ولم يرجحوا:

القول الأول: إن الأرض المعنية هي الجنة.

القول الثاني: إن الأرض المعنية هي الأرض المقدَّسة (بيت المقدس).

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٤٣٦/١٦، ٤٣٧)، وأشار إليه ابن رجب في التفسير (٢٥٩/١)، وقال: «خرجه ابن منده، وهذا غريب جداً، وتفسير الآية بذلك ضعيف».

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٣٧/١٦).

(٣) انظر: تفسير النسفي (٤٢٣/٢).

(٤) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٥٣٢).

(٥) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢٤٩/٤، ٢٥٠).

ذَكَرَ هذين القولين كلٌّ من الفراء[١]، وابن قتيبة[٢]، والماتريدي[٣]، والبيضاوي[٤]، وأبو حيان[٥].

ذكر من أوردوا قولين غير المرتين السابقتين، ولم يرجحوا:

القول الأول: إن الأرض المعنية هي الأرض التي تجتمع فيها أرواح المؤمنين.

القول الثاني: إن الأرض المعنية هي الكوكب الذي نعيش عليه.

ذكرهما ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٦].

قلت - أبو محمد -: وإن لم يرجح ابن القيم في هذا الموضع، لكنه جزم في موضع آخر بأنها أرض الدنيا، وردَّ على من خصَّصَها، وقد ذكرت القول للفائدة.

ذكر من أوردوا ثلاثة أقوال، ولم يرجحوا:

القول الأول: إنَّ الأرض المعنية هي الجنة.

القول الثاني: إنَّ الأرض المعنية هي الأرض المقدَّسة.

القول الثالث: إنَّ الأرض المعنية هي الكوكب الذي نعيش عليه.

ذكر هذه الأقوال الماوردي[٧]، والسمعاني[٨]، والرازي[٩]، والخازن[١٠]، والنيسابوري[١١]، والإيجي[١٢].

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/٢١٣).
(٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص٢٨٩).
(٣) انظر: تفسير الماتريدي (٧/٣٨٣).
(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٤/٦٢).
(٥) انظر: البحر المحيط في التفسير (٧/٤٧٣).
(٦) انظر: الروح (ص١٥٢).
(٧) انظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٣/٤٧٥).
(٨) انظر: تفسير السمعاني (٣/٤١٣).
(٩) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٢/١٩٢).
(١٠) انظر: تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/٢٤٦).
(١١) انظر: تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٥/٥٧: ٥٨).
(١٢) انظر: تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٣/٣٨).

ذكر من أوردوا ثلاثة أقوال أخرى، ولم يرجحوا:

القول الأول: إن الأرض المعنية هي الكوكب الذي نعيش عليه.

القول الثاني: إنها القدس، وأن المقصودين بوراثته بنو إسرائيل.

القول الثالث: إنه عامٌّ في كل صالح، قاله بعض فقهاء المفسرين.

ذكرها ابن الجوزي[١].

ذكر من أوردوا ثلاثة أقوال أخرى غير المرتين السابقتين، ولم يرجحوا:

القول الأول: إن الأرض المعنية هي الجنة.

القول الثاني: إنها القدس، وأن المقصودين بوراثته بنو إسرائيل.

القول الثالث: إنَّها القدس، وأنَّ المقصودين بوراثته الصالحون من كلِّ زمان.

هذه أقوال منسوبة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

ذكر من قالوا: «إنَّ الأرض المعنية هي كلُّ أرضٍ في الدنيا والآخرة»: أي: جنسها الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها، ولأرض المحشر، ولأرض الجنة.

قال البقاعي: «فيرث المسلمون دار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقربهم منه بعد إرثهم أرض الدنيا التي قارعوا عليها على قلتهم وضعفهم الكفار على كثرتهم وقوتهم، فكانت العاقبة فيها لهم»[٣]. وأيَّد المظهري هذا المعنى بتفسيره[٤].

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/٢١٨).

(٢) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص٢٧٦).

(٣) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/٤٩١)، (١٣/١٠٩، ١١٠) بتصرف واختصار.

(٤) انظر: التفسير المظهري (٦/٢٤٣، ٢٤٤) بتصرف واختصار.

الفصل الرابع
النقد والترجيح

أمَّا معنى الأرض في القرآن الكريم، فقد ذكر لها يحي بن سلام سبعة وجوه[١]، بينما رفعها أبو هلال العسكري لتسعة أوجه[٢]، والفيروزآبادي إلى أربعة عشر وجهاً[٣]، أمَّا ابن الجوزي فقد وصل بها لسبعة عشر وجهاً[٤].

أمَّا معنى الأرض في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فمع كثرة آراء العلماء؛ فإنها منحصرة في ثمانية أقوال: «أنَّها الجنة، الدنيا، الشام، الأرض التي تجتمع فيها أرواح المؤمنين، أنَّها القدس وأن المقصودين بوراثتها بنو إسرائيل، أنَّها القدس وأن المقصودين بوراثتها أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّها القدس وأن المقصودين بوراثتها الصالحون من كل زمان، وأنَّها كل أرض بالدنيا والآخرة».

وأمَّا عن **القول الراجح** في معنى الأرض بالآية الكريمة، فإنَّ ما شرح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صدري فهو أن المراد بالأرض هو الدنيا التي نعيش فيها.

ودونك أدلة ترجيح هذا القول الفصل:

الدليل الأول: انعدام صارف اللفظ عن ظاهره:

وهو أقوى الأدلة، وذلك أن القرآن بلغة العرب، ولكل لفظ «ما صدق» وهو: معنى أو ذات يشير إليه لا ينصرف عنه لغيره إلَّا بدليل صارف.

---

(١) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه (ص٢٤٥ - ٢٤٨).
(٢) انظر: الوجوه والنظائر (ص٧٦ - ٧٩).
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (ص٤١٣، ٤١٤).
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص١٦٨ - ١٧٢).

والأرض إذا أُطْلِقَتْ لم يُقْصَد بها غير الكوكب الذي نعيش عليه في الدنيا، وبعد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ على البحث الدقيق، والإلحاف في التحقيق، والعمل المتواصل، والسهر بلا فواصل، إلحاحاً في الاستقصاء، ورغبة في الاستيفاء، تأكَّد بلا ريب، وتيقن بغير مرية أنه ليس في القرآن ولا في السنة ما يصرف لفظ «الأرض» عن ظاهر مدلوله.

وأنَّ الصحابي الوحيد الذي نُسِبَ له قولٌ في القضية هو ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إذ وردت عنه آثار متضاربة، وقد أثبت البحث الدقيق ببالغ التدقيق أنَّ كلا الوجهين لا يصح نسبته إليه كما بيَّنَّا آنفاً، وأوضحنا سالفاً.

فتأكد أنَّ المقصود بالأرض هي الأرض التي قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها: ﴿**ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً**﴾ [البقرة: ٢٢]، وغير ذلك من الآيات البينات. وعلى العموم: يجوز أن يُراد بالأرض في موضع آخر أرض مصر، أو فلسطين، أو أرض الشام، أو أرض الجنة، أو غير ذلك من الأرضين، لكن لا يجوز البتة أن يكون التخصيص بلا برهان ساطع، أو بيان قاطع.

قال أبو هلال العسكري: «والأرض إذا جاءت مطلقة، فهي الأرض المعروفة لا غير، ولو لم يكن ذلك كذلك، لم يعرف بإطلاق اللفظ شيء»[1].

ولابن القيم كلام بديع، وتنظير ماتع، بسياق رائق في نقض تخصيص عمومات القرآن بغير دليل، ومنه قوله: «إنَّك تجد الكثيرين من المفسرين قد ردَّ ألفاظ القرآن عن العموم إلى الخصوص نظير ما تجده من ذلك عند أرباب التأويلات المستنكرة، ومتى تأمَّلت الحال فيما سوَّغوه من ذلك وجدتها عائدة من الضرر على الدين بأعظم مما عاد من ضرر كثير من التأويلات، وذلك لأنَّهم فتحوا لأرباب التأويلات الباطلة السبيل إلى التهافت فيها، فعظمت بذلك الجناية على الدين وأهله، وبسبب

(١) الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص٧٦).

ما اعتمدوه قال القائل: كلام الله لا يستفاد منه يقين؛ لاحتمال اللفظة منه عدة وجوه، والمقصود أنَّ حمل عمومات القرآن على الخصوص تعطيل لدلالتها وإخراج لها عمَّا قُصِدَ بها، وهضمٌ لمعناها وإزالةٌ لفائدتها. ثم ضرب عدة أمثلة على التخصيص الخاطئ، ومنها قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، إنها: أرض فلسطين والأردن»(١).

وقال ابن باديس: «جنس الأرض الدنيوية؛ لأنَّ هذا اللفظ موضوع لها، فإذا أُطْلِق انصرف إليها»(٢).

الدليل الثاني: موافقة السياق:

من أعظم عوامل فهم الألفاظ تدبر سياقها، وسياق الآية يأتي حيث الذلة والاستضعاف للمسلمين بمكة، إذ كانوا أحوج شيء إلى وعود ربانية تعطيهم الأمل في المستقبل الذي يخفف عنهم نير التعذيب الحاضر، فكان هذا الوعد الرباني الصادق بأنَّ مكة وغيرها من البلاد من حظ الصالحين لا الكافرين.

وقال ابن باديس: «وخاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلة عدد وعدد، يعدهم بذلك تلميحاً أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ثم وعدهم تصريحاً بسورة النور المدنية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. وقد حقَّق الله عَزَّوَجَلَّ لهم الوعد، ففتح لهم الفتوح، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، وقد عُلِّقَ الوعد بالصلاح؛ ليُعْلَمَ أنَّه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها - ولا محالة - من هذا الوعد»(٣).

---

(١) راجع الصواعق المرسلة (٢/٦٩٣ - ٧٠٥) بتصرف واختصار شديدين.
(٢) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص٣٤٦).
(٣) تفسير ابن باديس (ص٣٤٥ - ٣٥٠) بتصرف واختصار شديدين.

الدليل الثالث: موافقة المعنى للسنة الربانية العامة:

لقد أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الآية الكريمة أن يرَسِّخَ سنةً ربانيةً لطالما وردت في القرآن والسنة، وهي: «أن الكفار يتسلطون على الأبرار حيناً امتحاناً؛ ثم تكون الغلبة في النهاية للمؤمنين المقيمين لشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أخبر عَزَّوَجَلَّ».

ومن هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٥].

فقد قال الكفار للمؤمنين: سنخرجنكم من أرضنا، فجاءت الإجابة الفورية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتكذيبهم، وأكَّد عَزَّوَجَلَّ أن الأرض ليست ملكاً للكفار كما يدَّعون، فَيُخْرِجُون منها من شاءوا إخراجهم، بل الأرض لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد كتب عَزَّوَجَلَّ أنه سيعطيها لأوليائه المقيمين لشريعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليرثوها بعد إهلاكه عَزَّوَجَلَّ للكافرين.

وهو ما يتوافق مع وعده عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ومن الوعود النبوية قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»(١)، وغيره كثير.

وقال ابن كثير: «وقد أنجز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعده لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومكَّنه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفيه، وفتح له مكة وأظهره على من كذبه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب واليمن والبحرين، ثم فُتِحَتْ الأمصار أيام الخلفاء»(٢).

(١) [صحيح] رواه الإمام أحمد (٢٢٣٩٥)، ومسلم (٢٨٨٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣٠٨/٣) بتصرف واختصار شديدين.

وقال محمد عبده: «هذه أمةٌ أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العُلَى، فقالوا: قوم كانوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فكان الله عَزَّوَجَلَّ معهم، استرشدوا بسنته فأمدَّهم بنصر من عنده، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة، وتمحو أسماءها من لوح المجد. هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهنَّ صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، يا للمصيبة ويا للرزية، فعلينا أن نتساءل: هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح؟ هل غيَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا؟! لقد نبذنا أوامر الله ظهريا، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيلٌ إلَّا الإنابة إليه، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكَّروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلفتوهم إلى عهد الله الذي لا يُخْلَفُ، لرأيت الحق يسمو، والباطل يسفل، ولرأيت نوراً يبهر الأبصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار»(١).

وقال المراغي: «والمسلمون اليوم قد تحكَّم فيهم الغرب وأذلُّوهم، فأصبحوا عبرة، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية، بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، أي: الصالحون لاستعمارها والانتفاع بها»(٢).

وقال عبد الكريم الخطيب: «والخطاب هنا للمؤمنين جميعاً في مواجهة المنافقين، وأن المؤمنين موعودون من الله إذا هم صدَّقوا إيمانَهم بالعمل الصالح أن يستخلفهم في الأرض، ويجعل لهم السلطان المتمكن فيها، وهذا ما أشار إليه القرآن في مواضع، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]»(٣).

(١) تفسير المنار (١٠/٣٧ - ٤٠) بتصرف واختصار شديدين.
(٢) تفسير المراغي (١٣/٧٩) بتصرف واختصار شديدين.
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/١٣١٤ - ١٣١٧) بتصرف واختصار شديدين.

وقال طاهر بن عاشور: «في إطلاق اسم الأرض أنَّ سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح، وقد صدق الله وعده»(١).

وقال أبو زهرة: «أي أن الأرض كلها ليست لملك طاغ ولا لرئيس يقود الناس إلى مراتع الفساد، إنما هي لله ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ أي: يعطيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصالحين، وعبَّر بقوله: ﴿يَرِثُهَا﴾ لأن الصالحين يخلفون الفاسدين عليها»(٢).

وقال ابن عثيمين: «إذاً فالمتقون هم الوارثون للأرض، فأحق النَّاس بفلسطين ليسوا العرب، بل المسلمون لا غير، وبوصفهم عباداً صالحين، ولذلك لن ينجح العرب في استرداد فلسطين باسم العروبة أبداً، ولا يمكن أن يستردوها إلَّا باسم الإسلام، ومهما حاول العرب، وملئوا الدنيا بالاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبداً حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم الإسلام بعد أن يطبقوه في أنفسهم، فإن فعلوا فسيحققون خبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»(٣)، فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود قائلاً: «يَا عَبْدَ اللهِ» باسم العبودية لله، ويقول: «يَا مُسْلِمُ» باسم الإسلام، والرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «يقاتل المسلمون اليهود»، ولم يقل: «العرب»؛ ولهذا أقول: لن نقضي على اليهود إلا بالإسلام، ومن شاء فليقرأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فجعل الميراث لعباده الصالحين، وما علق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (١٦١/١٧ - ١٦٤) بتصرف واختصار شديدين.
(٢) زهرة التفاسير (٤٩٢٧/٩) بتصرف واختصار شديدين.
(٣) [صحيح] رواه الإمام أحمد (٩٣٩٨)، ومسلم (٢٩٢٢).
(٤) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (١٦٨/١ - ١٧١) بتصرف واختصار شديدين.

الفصل الخامس
شبهات مطروحة مع الإجابة عليها

الشبهة الأولى: قالوا بأن المراد الجنة؛ لأنَّ الدنيا تكون للصالحين والمنافقين.

الإجابة: وهذه الشبهة في حقيقتها تؤكد أن المقصود هو أرض الدنيا لا الجنة، وذلك أن لفظ الإرث لم يُجْعَلْ إلا لتملك الوارث بعد هلاك الموروث الذي بقي الإرث في يده مدة من الزمن.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة، فقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن البلاد ستبقى في أيدي الكافرين زمناً، حتى يأذن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهلاكهم ليخلفهم الصالحون عليها.

وقد تطول الفترة التي تبقى فيها البلاد في أيدي الكافرين بناء على تمسك المؤمنين بدينهم، وقيامهم بفريضة الجهاد.

فقد بقيت القدس في أيدي الكافرين أربعين عاماً زائدة بسبب خذلان بني إسرائيل لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى نشأ جيل جديد أقام شريعة الجهاد وورث القدس من الكافرين.

ومرة أخرى بقيت القدس زمناً بأيدي الكافرين حتى هبَّت أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطبقت الشريعة، ورفعت علم الجهاد بقيادة الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وورثته من الكافرين.

فلما تخلَّوا عن الشريعة، ونكسوا علم الجهاد حقَّت عليهم سنة الخذلان، فعادت القدس إلى أيدي الكافرين، وبقيت بأيديهم حتَّى عاود المسلمون دينهم، ورفعوا علم الجهاد بقيادة صلاح الدين فأورثهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ديار الكافرين مرة أخرى.

فما لبث المسلمون أن تخلوا عن دينهم حتى استحقوا سُنة الخذلان، وعادت القدس إلى أيدي اليهود، وسفكوا فيه الدم، وهتكوا فيه العرض، ومنعوا الآذان.

وستبقى القدس تَئِنُّ تحت أقدامهم حتى يراجع المسلمون دينهم، ويوحدوا صفَّهم، ويطبقوا شرع ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقيموا علم الجهاد لتحريره ابتغاء وجه ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحينئذٍ فقط يكونون مستحقين لوعد ربهم، مستوجبين لنصرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقاتل معهم الحجر والشجر كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشبهة الثانية: إن القول بوراثة الصالحين للأرض يتنافى مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ»(١).

الإجابة: إنَّ الحديثَ يؤكدُ بأن الأرض المقصودة هي الدنيا، وذلك أنَّ المقصد الإلهي من خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي خلافة الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه بالعمل الصالح.

والفترة التي يتسلط فيها الكفار والمنافقون على الأرض كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمهلهم حتى يتوبوا أو يستأصلهم بأيدي الصالحين ويورثهم ديارهم، فلما قبض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصالحين، ولم يعد يُنْتَظرُ وارثٌ صالحٌ يرث الدنيا من الكافرين، انعدمت العلة التي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها الدنيا، فحينئذٍ يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقيام الساعة لانعدام الوارث الصالح.

الشبهة الثالثة: كيف يرث المؤمنون الدنيا، وكل الآيات والأحاديث تتحدث عن تمتع الكافرين في الدنيا بينما متعة المؤمنين لا تكون إلا في الآخرة فحسب؟!

الإجابة: إنَّ المؤمنين مهما تمتعوا في الدنيا، فليست متعتهم بشيء جنب ما ينتظرهم في الآخرة، ومهما تعذَّب الكافرون في الدنيا فليس عذابهم بشيء متى قورن بما ينتظرهم في الآخرة.

ومن جانب آخر يجب التفريق بين التمتع الحيواني في حق الكافرين والمنافقين، والإمامة والتمكين للصالحين، فلقد مكث الكافرون يتمتعون في مكة كالأنعام، ثم أورث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرض مكة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصالحين معه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فماذا فعلوا؟

(١) [صحيح] رواه مسلم (١٩٢٤).

لقد حطَّموا الأوثان، وأقاموا شريعة الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يمكث النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، ولا رخَّص للصحابة أن يقيموا فيها أكثر من ثلاثة أيام حتى يبقى الفتح خالصاً لوجه الله الكريم، فلم يَجْنِ الصالحون من فتح مكة مصلحة شخصية، ما حصَّلوا مالاً، ولا أقاموا في ديارهم، ولكنهم سخَّروا تمكين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم في نصرة شريعته وتحقيق توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الخاتمة

وخلاصة البحث ونتائجه

والخلاصة: إن الآية الكريمة ترسِّخ السُّنَّة الربانية التي لا تبديل لها ولا تحويلا بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جزم بما لا مرية فيه بأنَّ صولة الكافرين مهما طالت، وتمكن المنافقين مهما اشتد، فإنه إلى فناءٍ مؤكد، وزوالٍ متيقن، كما أكَّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هذا الفناء المؤكد، وذاك الزوال المتيقن لن يتحققا إلا على أيدي الصالحين الربانيين الذين يقيمون شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يخافون لومة لائم، وبناءً عليه فعلى الصالحين الألباء، والمتقين الفطناء، والمؤمنين الأذكياء ألا يشغلوا أنفسهم بكثرة عدوهم، وألا يهولنَّهم قوة عتادهم، وأن يوقنوا بأن الشيء الوحيد الذي يجب أن يشغلوا به أنفسهم هو تحقيق كمال العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك باتباع أمره عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نهيه عَزَّوَجَلَّ، وعلى رأس ذلك تحقيق الوحدة الإسلامية والحذر من الفرقة الشيطانية، وأن يعاهدوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم إذا مكَّنهم في الأرض أن يقيموا شريعته على الشريف والفقير لا يخافون في الله لومة لائم، فإن فعلوا ذلك استوجبوا وعد ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستحقوا بشرى نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلَّا فجريٌ وراء السراب، وسعي لا يكون إلا في تباب، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أصدق من ربي حديثاً.

ونلخص نتائج البحث فيما يلي:

١. محو الإحباط، وإبطال التثبيط الناتجين من عقيدة خاطئة عند بعض العامة، وهي: «أن المؤمنين لا دار لهم غير الآخرة، بينما الدنيا الفانية عجَّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمشركين والمنافقين، فهي دارهم من دون المؤمنين».

وبيان العقيدة الصحيحة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما استخلف على الدنيا نبياً صالحاً وهو آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليقيم شريعته على أرضه، وأنه كتبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له وللصالحين من أولاده، وأن الإمامة في الدنيا والسلطان عليها لا يكون إلَّا للصالحين لا الظالمين. وصدق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ يقول: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤]. وأن سلطان الكافرين مؤقت لحين تمسك المؤمنين بإيمانهم فيصبحوا مستحقين لوراثة الحكم.

٢. تَبَيَّنَ أنَّ السلطان لا يكون في أيدي المنافقين أو الكافرين إلا بغفلة من المؤمنين عن إيمانهم، وأنهم متى استعادوا إيمانهم ورثوا حكم الأرض منهم.

٣. تَبَيَّنَ أنَّه من الحكم الإلهية من وراء عدم دوام السلطان في أيدي المؤمنين تحقيق الاختبار للمؤمنين إذا صبروا على إيمانهم تحت وطأة ظلم الكافرين وسلطانهم.

٤. بيان عدم مشروعية الاعتماد على الآثار بغير تحقيق دقيق لها، وذلك لوجود الكثير من الآثار غير الصحيحة.

٥. بيان عدم مشروعية صرف النص عن ظاهر لفظه، أو تخصيص عمومه إلَّا بنص صريح، وأهمية تنقية كتب التفسير من كل الآراء غير المدعومة بالأدلة.

٦. لقد وجدت أثر ابن عباس في عشرات الكتب إذ اعتمد أصحابها عليه، وهذا يعكس حاجة المكتبة الإسلامية عامة، ومكتبة التفسير خاصة لمحقِّقِين مدقِّقِين يُخْرِجُون للأمة صافي الآثار الصحيحة.

٧. بيان الفرق بين التفسير القائم على التجميع المجرد للآثار، والتحقيق الدقيق للأثر قبل الاعتماد عليه، إذ من السهل أن يقوم إنسان بجمع كل الآراء في المسألة، وتذييل كل رأي بالآثار الواردة، وبهذا ينجز أعمالاً ضخمة جداً جداً.

ولكن التحدي هو تنقية تلك الآثار وتصفيتها، والاقتصار على صحيحها فحسب، والخروج بالقول الفصل بناءً على أدلة يقينية.

وأخيراً... فما كان من صواب فمن الله وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأنا منه بريء، وعنه مقلع، وألوذ بمن لا ملاذ لي سواه من القلم الرديء، واللفظ البذيء، وأعوذ بمن لا معيذ لي غيره من مدخول النية، وفاسد الطوية، وأسأله بذاته العلية، وأنواره السنية حسن السريرة والعصمة من الجريرة، وأن يجعلني هادياً مهدياً، وللمتقين إماماً، فهو ولي ذلك والقادر عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المراجع والمصادر

مرتب على حروف الهجاء بإهمال «ال، أبو، أبي، ابن»

بعد القرآن الكريم

- **الأحاديث المختارة**: ضياء الدين المقدسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد (ت: ٦٤٣هـ)، الطبعة الثالثة (م١٣)، دار خضر، بيروت (١٤٢٠هـ).
- **أحكام القرآن**: القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي (ت: ٢٩٠هـ)، الطبعة الأولى (م١)، تحقيق: عامر حسن صبري، دار ابن حزم (١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: الأمين الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ).
- **إعراب القرآن**: النَّحَّاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢١هـ).
- **إعراب القرآن وبيانه**: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: ١٤٠٣هـ)، الطبعة الرابعة (م١٠)، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص (١٤١٥هـ).
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي (ت: ٦٨٥هـ)، الطبعة الأولى، إحياء التراث العربي، بيروت (١٤١٨هـ).
- **البحر المحيط في التفسير**: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت (١٤٢٠هـ).
- **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الأنجري (ت: ١٢٢٤هـ)، حسن عباس زكي، القاهرة (١٤١٩هـ).
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، (م٦)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م).

- **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت: ٧٤٨هـ)، الطبعة الأولى (م١٥)، دار الغرب الإسلامي (٢٠٠٣م).
- **تاريخ دمشق**: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، الطبعة الأولى (م٨٠)، دار الفكر (١٤١٥هـ).
- **التاريخ الكبير**: البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، (م٨)، دائرة المعارف العثمانية.
- **تاريخ ابن يونس المصري**: ابن يونس المصري، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، أبو سعيد (ت: ٣٤٧هـ)، الطبعة الأولى (م٢)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢١هـ).
- **التحرير والتنوير**: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، (م٣٠)، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤م).
- **التسهيل لعلوم التنزيل**: ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي، الطبعة الأولى، دار الأرقم، بيروت (١٤١٦هـ).
- **التصاريف لتفسير القرآن**: يحي بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت: ٢٠٠هـ)، (م١)، الشركة التونسية للتوزيع (١٩٧٩م).
- **تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس**: ابن حجر، أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، مكتبة المنار، الأردن (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- **تفسير الإيجي**: الإيجي الحسيني، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الإيجي الشافعيّ (ت: ٩٠٥هـ)، الطبعة الأولى، (م٤)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٤هـ).
- **تفسير ابن باديس**: ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس (ت: ١٣٥٩هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٦هـ).
- **التَّفْسِيرُ البَسِيْط**: النيسابوري، الشافعي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، الطبعة الأولى، (م٤)، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٣٠هـ).

- **تفسير الثوري**: الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (ت: ١٦١هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٣هـ).
- **تفسير الجلالين**: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، دار الحديث، القاهرة.
- **تفسير روح البيان**: الإستانبولي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (ت: ١١٢٧هـ)، (م١٠)، دار إحياء التراث العربي.
- **تفسير أبي السعود**: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **تفسير الطبري**: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، (ت: ٣١٠هـ)، الطبعة الأولى، (م٢٦)، دار هجر (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- **تفسير الفاتحة والبقرة**: ابن العثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، الطبعة الأولى، (م٣)، دار ابن الجوزي، السعودية (١٤٢٣هـ).
- **تفسير القرآن**: السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد السمعاني ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، الطبعة الأولى، دار الوطن، السعودية (١٤١٨هـ).
- **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري (ت: ٧٧٤هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٩هـ).
- **تفسير القرآن العظيم**: لابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، الطبعة الثالثة، (م١)، نزار مصطفى، السعودية (١٤١٩هـ).
- **تفسير القرآن من الجامع لابن وهب**: ابن وهب أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت: ١٩٧هـ)، الطبعة الأولى، (م٣)، دار الغرب الإسلامي (٢٠٠٣م).
- **التفسير القرآني للقرآن**: عبد الكريم الخطيب، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: ١٣٩٠هـ)، (م١٦)، دار الفكر العربي، القاهرة.
- **تفسير القشيري**: القشيري عبد الكريم بن هوازن (ت: ٤٦٥هـ)، الطبعة الثالثة، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

- **تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة»**: الماتريدي محمد بن محمد أبو منصور (ت: ٣٣٣هـ)، الطبعة الأولى، (م١٠)، دار الكتب العلمية، لبنان (١٤٢٦هـ).
- **تفسير الماوردي = النكت والعيون**: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد البغدادي (ت: ٤٥٠هـ)، (م٦)، دار الكتب العلمية، لبنان.
- **تفسير مجاهد**: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي (ت: ١٠٤هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر (١٤١٠هـ).
- **تفسير المراغي**: المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، الطبعة الأولى، (م٣٠)، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (١٣٦٥هـ).
- **التفسير المظهري**: المظهري، محمد ثناء الله العثماني المظهري، تحقيق: غلام نبي تونسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٥هـ).
- **تفسير مقاتل بن سليمان**: مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي (ت: ١٥٠هـ) الطبعة الأولى، (م١)، دار إحياء التراث، بيروت (١٤٢٣هـ).
- **تفسير المنار**: رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد (ت: ١٣٥٤هـ)، (م١٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر (١٩٩٠م).
- **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**: الزحيلي، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، الطبعة الثانية، (م٣٠)، دار الفكر المعاصر، دمشق (١٤١٨هـ).
- **تفسير النسفي**: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، (ت ٧١٠هـ)، الطبعة الأولى، (م٣)، دار الكلم الطيب، بيروت (١٤١٩هـ).
- **تفسير يحي بن سلام**: يحي بن سلام بن أبي ثعلبة القيرواني (ت: ٢٠٠هـ)، الطبعة الأولى، (م٢)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٥هـ).
- **تقريب التهذيب**: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، (م١)، دار الرشيد، سوريا (١٤٠٦هـ).
- **التمهيد**: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت: ٤٦٣هـ)، (م٢٤)، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب (١٣٨٧هـ).

- **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**: ينسب: لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت: ٦٨هـ)، جمعه الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ)، (م١)، دار الكتب العلمية، لبنان.
- **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر (ت: ٣١٠هـ)، (م١)، مطبعة المدني، القاهرة.
- **تهذيب التهذيب**: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الطبعة الأولى، (م١٢)، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند (١٣٢٦هـ).
- **التيسير في أحاديث التفسير**: محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)، الطبعة الأولى، (م٦)، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، سوريا (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
- **الثقات**: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، الطبعة الأولى، (م٩)، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، الطبعة الثانية، (م١٠)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).
- **الجرح والتعديل**: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٢٧١هـ - ١٩٥٢م).
- **الدر المنثور**: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، (م٨)، دار الفكر، بيروت.

- **دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية**: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ)، الطبعة الثانية، (م٦)، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق (١٤٠٤هـ).
- **رجال صحيح مسلم**: ابن مَنْجُويَه، أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن مَنْجُويَه (ت: ٤٢٨هـ)، الطبعة الأولى، (م٢)، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت (١٤٠٧هـ).
- **روائع التفسير «الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي»**: ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، (ت: ٧٩٥هـ)، الطبعة الأولى، (م٢)، جمع: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، السعودية (١٤٢٢هـ).
- **الروح**: ابن القيم، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر (ت: ٧٥١هـ)، الطبعة السادسة، (م١)، تحقيق: أبي محمد محمد بن فريد، التوفيقية، مصر (٢٠١٣م).
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**: الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، الطبعة الأولى، (م١٦)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٥هـ).
- **زاد المسير في علم التفسير**: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٢٢هـ).
- **زهرة التفاسير**: أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت: ١٣٩٤هـ)، الطبعة الأولى، (م١٠)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
- **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**: الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، (م٤)، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة (١٢٨٥هـ).

- **سير أعلام النبلاء**: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، الطبعة الثالثة، (م٢٥)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (١٤٠٥هـ).
- **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ ابن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، الطبعة الثالثة، (م٢)، تحقيق: الحافظ السيد عزيز، الكتب الثقافية، بيروت (١٤١٧هـ).
- **شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور**: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، تحقيق: عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة، لبنان (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- **شرح علل الترمذي**: ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن (١٤٠٧هـ).
- **شعب الإيمان**:، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، الطبعة الأولى، (م١٤)، مكتبة الرشد بالرياض (١٤٢٣هـ).
- **صفة الجنة**: أبو نعيم الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى (ت: ٤٣٠هـ)، (م٣×٢)، دار المأمون للتراث، سوريا.
- **الضعفاء الكبير**: العقيلي، أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي المكي (ت: ٣٢٢هـ)، الطبعة الأولى، (م٤)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٤هـ).
- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: ابن القيم، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، (م١)، دار المعرفة، لبنان (١٣٩٨هـ).
- **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، الطبعة الأولى، (م٤)، دار العاصمة، الرياض، السعودية (١٤٠٨هـ).

- **الطبقات الكبرى**: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري، البغدادي (ت ٢٣٠هـ)، الطبعة الأولى، (م٨)، دار صادر، بيروت (١٩٦٨م).
- **العلل ومعرفة الرجال**: ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، الطبعة الثانية، (م٣)، دار الخاني، الرياض (١٤٢٢هـ).
- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد القمي (ت: ٨٥٠هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٦هـ).
- **غريب القرآن**: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية (١٣٩٨هـ).
- **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**: القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن البخاري (ت: ١٣٠٧هـ)، (م١٥)، العصريَّة، بَيروت (١٤١٢هـ).
- **فتح القدير**: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت (١٤١٤هـ).
- **القضاء والقدر**: البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي، أبو بكر (ت: ٤٥٨هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، العبيكان، الرياض (١٤٢١هـ).
- **الكامل في ضعفاء الرجال**: ابن عدي، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٨هـ).
- **الكشاف**: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الطبعة الثالثة، (م٤)، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ).
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: الثعلبي، أحمد بن محمد، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)، الطبعة الأولى، (م١٠)، إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٢هـ).
- **لباب التأويل في معاني التنزيل**: الخازن، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن (ت: ٧٤١هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٥هـ).
- **اللباب في علوم الكتاب**: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)، الطبعة الأولى، (م٢٠)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٩هـ).

- **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم، الدارمي، الطبعة الأولى، (م٣)، دار الوعي، حلب (١٣٩٦هـ).
- **مجموع الفتاوى**: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية (١٤١٦هـ).
- **محاسن التأويل**: القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد (ت: ١٣٣٢هـ)، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٨هـ).
- **المدخل لدراسة القرآن الكريم**: أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت: ١٤٠٣هـ)، الطبعة الثانية، (م١)، مكتبة السنة، القاهرة (١٤٢٣هـ).
- **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**: البنتني، محمد بن عمر نووي، التناري بلدا (ت: ١٣١٦هـ)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٧هـ).
- **المراسيل**: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الرازي، (ت: ٣٢٧هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، الرسالة، بيروت (١٣٩٧هـ).
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: ابن حنبل، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، (ت: ٢٤١هـ)، الطبعة الأولى، (م٤٥)، تحقيق: الأرنؤوط، الرسالة، لبنان (١٤٢١هـ).
- **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مسلم، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)، (م٥)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **مشاهير علماء الأمصار**: ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، دار الوفاء، المنصورة (١٤١١هـ).
- **تفسير البغوي**: البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد (ت: ٥١٠هـ)، الطبعة الأولى، (م٥)، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٠هـ).
- **معاني القرآن**: الفراء، أبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧هـ)، الطبعة الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت: ٩١١هـ)، الطبعة الأولى، (م٣)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٨هـ).
- **المعرفة والتاريخ**: أبو يوسف، الفسوي، يعقوب بن سفيان بن جوان (ت: ٢٧٧هـ)، الطبعة الثانية، (م٣)، تحقيق: أكرم ضياء، الرسالة، بيروت (١٤٠١هـ).
- **معرفة الرجال ليحيى بن معين/رواية ابن محرز**: ابن معين، أبو زكريا يحيى بن معين، البغدادي (ت: ٢٣٣هـ)، الطبعة الأولى، (م٢)، مجمع اللغة العربية، دمشق (١٤٠٥هـ).
- **مفاتيح الغيب**: الرازي، فخر الدين خطيب الري أبو عبد الله محمد بن عمر (ت: ٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة، إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٠هـ).
- **المفردات في غريب القرآن**: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)، الطبعة الأولى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت (١٤١٢هـ).
- **من كلام أحمد بن حنبل في علل الحديث**: ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، الطبعة الأولى، (م١)، المعارف، الرياض (١٤٠٩هـ).
- **من كلام يحي بن معين في الرجال (رواية طهمان)**: ابن معين، أبو زكريا يحي بن معين ابن عون بن زياد (ت: ٢٣٣هـ)، (م١)، دار المأمون، دمشق.
- **الموسوعة القرآنية**: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (ت: ١٤١٤هـ)، مؤسسة سجل العرب (١٤٠٥هـ).
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ)، الطبعة الأولى، (م٤)، دار المعرفة، لبنان (١٣٨٢هـ).
- **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، الرسالة، لبنان (١٤٠٤هـ).
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي (ت: ٨٨٥هـ)، (م٢٢)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- **النكت على مقدمة ابن الصلاح**: الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله (ت: ٧٩٤هـ)، الطبعة الأولى، (م٣)، أضواء السلف، الرياض (١٤١٩هـ).
- **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره**: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد القيسي (ت: ٤٣٧هـ)، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).
- **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، الطبعة الأولى، دار القلم، جدة (١٤١٦هـ).
- **الوجوه والنظائر**: أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى (ت: ٣٩٥هـ)، الطبعة الأولى، (م١)، مكتبة الثقافة، القاهرة (١٤٢٨هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٦١
المقدمة	٦٢
الفصل الأول: ذكر من قالوا: «إنَّ الأرض المعنية هي الجنة»	٦٥
الفصل الثاني: ذكر من قالوا: «إن الأرض المعنية هي الدنيا»	٦٩
الفصل الثالث: ذكر مجموعة من أقوال العلماء والمفسرين	٧٢
الفصل الرابع: النقد والترجيح	٧٥
الفصل الخامس: شبهات مطروحة مع الإجابة عليها	٨١
الخاتمة وخلاصة البحث ونتائجه	٨٤
المراجع والمصادر	٨٧
فهرس الموضوعات	٩٨

التوازن في المنهج القرآني وآثاره التربوية

د. جمال الدين أحمد القادري[1]

مُلخّصُ البحث

يعدُّ التوازن في المنهج القرآني خصيصة من خصائص الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وهو يلبّي جانباً أصيلاً من جوانب هذه الفطرة، ويحقّق لها الارتياح والطمأنينة.

وهناك عديدٌ من الموازنات تجسّد هذه الحقيقة، يدرسها الباحث ليبيّن ويؤكّد - من خلالها ومن خلال ما يترتّب عليها من آثار تربوية - أحقيّةَ الرسالة الإسلامية في قيادة البشرية لكل ما يحقّق لها السعادة التي ينشدها كل عاقل.

وهذه الموازنات تتناول مسائل تتعلق بقضايا الغيب والشهادة، والمشيئة الإلهية ومسائل السّنن الكونية، ومفهوم القدر الإلهي والاختيار الإنساني، وعبودية الإنسان لله، ومقامه عند خالقه ومولاه، والوحي الإلهيّ والعقل الإنساني، ومفهومي الرهبة من الله، والطمأنينة بالله، مع الآثار التربوية المترتبة على كل قضية على حدة، بتوفيق من الله وفضل منه وإحسان.

---

(١) أستاذ التفسير المساعد في قسم الدراسات القرآنية، جامعة طيبة.

مقدمة عامة

الحمدُ لله، والصّلاةُ والسّلامُ على رسول الله وآله وصحبه.

مشكلة البحث:

لا مشكلة قائمة في البحث من حيث استنباط التوازنات ودراستها بمضمون جدّي موضوعي وأسلوب يتناغم مع مضمونه، فالله تعالى هو الموفق المعين، ولكن المشكلة تكمن عندما يستشعر الباحث أهمية الموضوع الذي يطرقه ويحاول جاهداً أن يلبي تطلّعاته في الوصول لكبد الحقيقة في قضايا عقدية وتشريعية وأخلاقية تلحّ على أرباب التخصّص لدراستها ومعالجتها بمنهج تأصيلي متمكّن يضمن - بعون الله - استيعابها والتفاعل معها نظرياً وتطبيقياً من قبل أبناء هذا الدين الذي تخلّف كثير منهم عن الفهم الحقيقي الشرعي لتلك الحقائق، وبالتالي الممارسات الصحيحة لها، وما جرّه ذلك من آثار سلبية في المجتمعات المسلمة، وما كان له من انعكاسات غير مرضية على المجتمعات غير المسلمة.

الهدف من الدراسة وأهميتها:

يتجلّى الهدف من هذا البحث وبالتالي معرفة أهميته بما يلي:

١. بيان معنى «التوازن» في المفهوم الاصطلاحي، وبخاصة أن هذا المفهوم ليس واضحاً في أذهان كثير من الناس.
٢. اعتماد مفهوم التوازن كركن مهمّ من أركان المنهج القرآني.
٣. ربط مفهوم التوازن في المنهج القرآني بالآثار التربوية المترتبة عليه.
٤. دراسة عديد من التوازنات في قضايا تُعدّ من أهم ركائز قيام العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها.

٥. تجلية بعض التوازنات التي كان لعدم فهم المسلمين لها فهماً صحيحاً آثار سلبية مريرة في حياة الأمة المسلمة.

٦. المشاركة في بيان التربية القرآنية للإنسان التي تصل به إلى شخصية سويّة في دينها وخلقها وتربيتها وثقافتها.

٧. نقد بعض النظريات الإلحادية لملحدين اغترّ بهم كثير من الناس حتى في الديار الإسلامية وللأسف الشديد.

الدراسات السابقة:

لم أحظَ بكتب تناولت هذا الموضوع بعنوان ودراسة مستقلة، وبالموازنات التي بحثت فيها، وإن كان هناك من بعضها من الكُتّاب عَرَضاً دون إفراد وبتفصيل وتحليل بعض كتب الثقافة الإسلامية التي تعرضت لخصيصة التوازن بصورة عامة إجمالية دون تفصيل لأي ركن من أركان التوازن التي درستها في البحث - بفضل الله - ولا غَرْوَ بعد ذلك أن لا نجد من تحدَّث عن الربط.

منهج البحث:

تعتمد منهجية هذا البحث التوصيف، والاستدلال، والسَّبْر، والمقارنة، والاستنباط، وضرب الأمثال، والقصص، وذلك بما يخدم التركيز على خصيصة التوازن التي تعدّ من أهم خصائص المنهج القرآني الفريد. ولا أقصد البيان النظري فحسب، بل أضيف إليه الوقائع العملية التي هي الآثار الإيجابية الرائعة لتلك الخصيصة، والتي أفرزت وتفرز تربية إيمانية فذّة، الأمّة الإسلامية بحاجة ماسّة إليها وبخاصة في هذا العصر.

خطة البحث، وتتضمن:

مقدمة عامة: وتحتوي:

مشكلة البحث.

الهدف من الدراسة وأهميتها.

الدراسات السابقة.

منهجية البحث.

ثمانية عشر مبحثاً:

خمسة مباحث في تعريفات لغوية واصطلاحية لمفردات عنوان البحث، وفيها مطالب.

مبحث في بيان أهمية المنهج القرآني.

أربعة عشر مبحثاً في إيراد عديد من التوازنات محلّ البحث، ويُضمّ إليها الآثار التربوية المترتبة على كل توازن، وكما هو مفصّل بأسمائها في فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

المبحث الأول: تعريفُ التّوازنِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريف التّوازنُ لغةً: يقال: وهو وَزْنَهُ، بالفتح، وزِنَتَهُ ووِزانَهُ، وبوزانِهِ وبوزانَتِهِ، بكسرِهنّ: قُبالَتَهُ، ووازَنَه: عادَلَهُ، وقابلَهُ، وحاذاهُ[1].

المطلب الثاني: تعريف التّوازنُ اصطلاحاً: من خلال ما سقناه آنفاً من المعنى اللّغوي لكلمة التّوازن، نجد أنّ مفردات المقابلة، والمحاذاة، والمعادلة هي المرادة في الموازنة بين مفاهيمَ، وقيَمٍ، وأركانٍ، وأصولٍ متقابلةٍ، تحتاج إلى إثبات الاعتدال فيما بينها، فلا إفراطَ ولا تفريطَ بين أيٍّ منها وما يقابله؛ بل كُلٌّ يَعطى حقّه كاملاً دون إهدارٍ لحقّ الجانب الآخر، باتّزانٍ دقيقٍ وتناسقٍ سديدٍ.

المبحث الثاني: تعريفُ المنهج لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: التّعريفُ اللّغويُّ: المنهجُ كالمنهاج، وهو الطّريقُ البيّنُ الواضح، يقال: أنهج الطّريقُ إذا وَضُح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً[2].

وفسّر الطبريُّ قوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة: ٤٨]، فقال: «معنى الكلام: لكلّ قومٍ منكم جعلنا طريقاً إلى الحقّ يؤمّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به»، وهذا ما فسّره به ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

المطلب الثاني: التُعريفُ الاصطلاحيُّ: اجتهد علماءُ البحث العلميّ في وضع تعاريفَ للمنهج، وكان من أبرز من تصدّى لذلك:

١. الدكتور علي سامي النّشار الذي عرّف المنهجَ بأنّه: «طريق البحث عن الحقيقة في أيّ علمٍ من العلوم، أو في أيّ نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية»[4].

(١) لسان العرب، ابن منظور، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي: مادة (وَزَنَ).
(٢) المصدران السّابقان: مادة (نَهَجَ)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٨٤/١٠).
(٣) المصدر السابق الأخير (٣٨٨/١٠، ٣٨٩).
(٤) نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين للنشّار (ص٧).

٢. الدكتور عبد الرحمن بدوي، وقد عرّف المنهجَ بأنّه: «الطّريقُ المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن على سير العقل، وتحدّد عملياته حتى يصل إلى نتيجةٍ معلومة»(١).

وتعريف الدكتور بدوي تضمّن التّعريفَ الأوّلَ، وزاد عليه القواعد المنظّمة للمنهج، ولو قال في تعريفه: «البحث» عوضاً عن «العقل»، لكان أقرب إلى إصابة أُسّ المعنى للمنهج، حيث يشمل بذلك العلوم النظرية والتطبيقية، ولا شكّ أن العقل هو المرشد الرئيس في فهم العلوم، وإدراك النّتائج النّهائية للتّجارب والتّطبيقات الحسيّة.

المبحث الثالث: تعريفُ القرآنِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ القرآنِ لغةً: القرآن من الفعل (قرأ) على الرأي الراجح، فهو مهموز الأصل، استناداً إلى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق، وهو بمعنى الجمع والضّم، والقراءةُ: ضمُّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، فالقرآنُ في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآناً، قال تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ**﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]؛ أي: قراءته، فهو مصدر على وزن (فُعلان) بالضمّ، كالغُفران والشّكران، تقول: قرأته قرءاً وقراءةً وقرآنا، بمعنى واحد. سُمّي به المقروء تسميةً للمفعول بالمصدر(٢).

وقد خُصّ القرآنُ بالكلام المنزّل على محمّدٍ ﷺ، فصار له كالعلم الشّخصيّ.

أمّا القولُ بأنه غير مهموز الأصل؛ لأنه وصفٌ من القَرء بمعنى الجمع، أو أنه مشتقٌّ من القرائن، أو أنه مشتقٌّ من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجلٌ على الكلام المنزّل على النبيّ ﷺ، فكلّ أولئك لا يظهر له وجهٌ وجيهٌ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلْفةٍ، ولا من بُعدٍ عن قواعد اللغة وموارد الاشتقاق(٣).

(١) مناهج البحث العلمي لبدوي (ص٥).
(٢) ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (قرأ).
(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني (٧/١)، ومباحث في علوم القرآن، منّاع القطان (ص١٥، ١٦).

المطلب الثاني: تعريفُ القرآنِ اصطلاحاً: هو: «كلامُ اللهِ المنزَّلُ على محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المتعبَّدُ بتلاوته». فـ (الكلام) جنسٌ في التعريف، يشمل كلّ كلامٍ، وإضافته إلى (الله) يُخرِج كلام غيره من الملائكة والإنس والجنّ.

و(المنزَّلُ) يُخرِج كلامَ الله الذي استأثر به سبحانه ﴿**قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩].

وتقييدُ المنزَّل بكونه (على محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُخرِج ما أُنزل على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و(المتعبَّدُ بتلاوته) يُخرِج قراءاتِ الآحاد، والأحاديثَ القُدسيّة - إنْ قلنا: إنّها منزَّلةٌ من عند الله بألفاظها - لأنّ التعبّد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك[١].

المبحث الرابع: تعريفُ الأثرِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ الأثرِ لغةً: يُطلَق الأثرُ في اللّغة على معانٍ عديدةٍ، نكتفي منها بما يُسعفنا في بحثنا:

١. بقيّةُ الشّيء، وخرج في إثْره وأَثَره: بعده، والتّأثُّر: إبقاءُ الأثر في الشّيء، وأثّرَ في الشّيء: تركَ فيه أثَراً[٢].

٢. العلامةُ[٣].

٣. السّببُ أو النتيجةُ؛ يقال: تُوفّي من أثَرِ الجرح الذي أُصيب به؛ أي بسببه. وترك فيه أثَراً؛ أي: نتيجةً[٤].

٤. ما بقي من رسم الشّيء وضربة السّيف، وسُنَن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥].

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (١٣/١)، ومباحث في علوم القرآن (ص١٧).
(٢) لسان العرب، والقاموس المحيط مادة (أثر).
(٣) المعجم الوسيط مادة (أثر).
(٤) المصدر السّابق.
(٥) مختار الصّحاح، أبو بكر الرّازي، مادة (أثر).

المطلب الثاني: تعريفُ الأثرِ اصطلاحاً: لايخرج المعنى فيه عن المعاني اللّغويّة التي سقناها آنفاً، ويمكن أن نمثّل لذلك عند الفقهاء، حيث يستعملون كلمة الأثر للدّلالة على بقيّة الشّيء، أو ما يترتّب عليه، فيقولون: أثرُ عقد البيع، وأثرُ الفسخ، وأثر النّكاح...[١].

المبحث الخامس: تعريفُ التّربيةِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ التّربيةِ لغةً: اسمٌ مشتقٌّ من الربّ، ويطلق في اللّغة على المالك، والسّيد، والمدبّر، والمربّي، والقيّم، والمنعم، ولا يطلق غير مضافٍ إلّا على الله تعالى، وإذا أُطلق على غيره، فيقال: ربُّ كذا.

ويقال: رّبّه يُربّه: أي: كان له ربّاً[٢].

وتستعمل كلمةُ التّربية بمعنى التّهذيب وعلوّ المنزلة، وقد ذكر ذلك الزّمخشري؛ فقال: «ومن المجاز: فلانٌ في رَباوةِ قومه: في أشرفهم»[٣].

المطلب الثاني: تعريفُ التربيةِ اصطلاحاً: فقد ورد فيها تعاريفُ عديدةٌ أسوق منها - مع التّصرّف -:

١. إنشاء الشّيء حالاً فحالاً إلى حدّ التّمام[٤].
٢. تغذيةُ الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفةً[٥].
٣. الزيادةُ والنّماءُ في تزويد الطّفل بأنواع المعرفة، لينمو عقله، وتصفو نفسه، وتزكو روحه[٦].

---

(١) لسان العرب، مادة (أثر).
(٢) النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: باب الرّاء مع الباء (٤٥٠/٢)، والقاموس المحيط، مادة (ربو).
(٣) أساس البلاغة، كتاب الرّاء، مادة (ربو) (١٥٨/١).
(٤) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، باب التّاء، فصل الرّاء (ص١٦٩).
(٥) أصول الفكر التّربوي في الإسلام، عباس محجوب (ص١٥).
(٦) تربية الأطفال في ضوء القرآن والسّنة، يوسف بديوي ومحمد قاروط (١٤/١).

٤. رفعُ درجة وعي الفرد من مختلف الأعمار وفي شتّى الظّروف والملابسات، وفي كافّة الجوانب الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسية، بغية تحقيق السّعادة والاستقرار للفرد والأسرة والمجتمع(١).

وهذه التعاريف تصلح بمجموعها أن تكون أهلاً لتعريف جامعٍ للتربية بالمعنى الاصطلاحي.

المبحث السّادس: أهميةُ المنهج القرآنيّ:

ومن خلال التّعريفات اللّغويّة والاصطلاحيّة السّابقة جميعها تظهر أهميةُ المنهج القرآني في حديثنا عن التّوازن كَسِمَةٍ بارزةٍ من سماته، وما يترتّب عليه من آثار تربويّة متميّزة، نُدركُها:

١. **بصورةٍ عامّة**: من حيث إنّه الطّريقُ المنظَّمَةُ التي يُقَدَّمُ من خلالها حقائقُ دقيقةٌ، وتربيةٌ عميقةٌ، تهدف إلى بناء مجتمعٍ مؤمنٍ متماسكٍ قويٍّ.

٢. **بصورةٍ خاصّة**: من حيث دورُه الفعّال في تكوين إنسانٍ سَويّ الشّخصية في دينه وخلقه وتربيته وثقافته وعلمه وعمله، يعرف ما عليه من واجبات وما له من حقوق، ولا يبخل في تقديم خبراته إلى الأجيال المتعاقبة لتستفيد منها بكلّ مجالاتها: العقدية، والعلمية، والفكرية، والسلوكية، والتربوية.

ولذلك نجد أنّ حديثنا عن التّوازن في المنهج القرآنيّ يُعدّ خصيصةً من خصائص الفطرة البشرية التي فطر اللهُ النّاسَ عليها، وهو يلبّي جانباً أصيلاً من جوانب هذه الفطرة، ويحقّق لها الارتياح والطّمأنينة، ويملأ ساحةَ التّصورات البشرية في جميع مجالاتها بالوسطية (الاعتدال)، والتي هي ترجمة صادقة للخيريّة التي تتمتّع بهما الأمّة الإسلاميّة الحقّة، كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، والذي يجعلها تتبوّأ مكانة الشّهادة على الأمم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) دور التّربية الأسريّة في حماية الأبناء من الإرهاب، د. سارة صالح الخمشي (ص٧).

وهناك عديدٌ من الموازنات التي تجسّد هذه الحقائق، وتبرز أحقيّة الرّسالة الإسلامية في قيادتها للبشرية، وتلبية حاجاتها النفسية والجسدية والفكرية والعلمية... وتغذّي جميع خصائص النفس الإنسانية بمنهجٍ متوازنٍ دقيقٍ يحقّق السّعادة التي ينشدها كلُّ عاقل.

وسنبحث - بعون الله - في أهمّ هذه الموازنات المستنبَطة من القرآن الكريم، ونُغذّيها - بتوفيق الله - ببيان الآثار التّربوية المترتّبة عليها كتطبيقٍ عمليٍّ تحتاجه الأمّةُ المحمديّةُ.

المبحث السّابع: التّوازنُ في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة:

راعتِ العقيدةُ الإسلاميةُ الفطرةَ البشريّةَ في جميع مجالاتها، ذلك أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الذي خلق الإنسانَ وأمره بالإيمان بهذه العقيدة والتّمسّك بها - علم أنّ الإدراكَ الإنسانيّ لن يستوعب كلّ أسرار هذا الوجود، ولن يقوى على إدراكها جميعها، فأودع في فطرته الارتياحَ للمجهول، والارتياحَ للمعلوم، وجعل هذا الفكرَ البشريّ بما ملّكه إياه من عنصر الوعي، قادراً على تناول ما يقع تحت هذين العالَمين الغيب والشهادة، ذلك أنّ هذا الفكر لا بد أن يستقبل شيئاً مفهوماً له يستطيع أن يدركه ثم يعمل بما فيه، فيتدبّر ويفهم ثم يطبّق، وإلا فإن العقيدة التي لا تملك لأبنائها إلا المعمّيات والطلاسم والأساطير التي لا تدركها العقول ليست عقيدة، وهي إن سُمّيت عقيدةً فإنّها تحمل في موادّ بنائها عواملَ فنائها، ولذا نجد ديننا الحنيف حفل بالعقل إيّما احتفال، بل جعله صاحباً مخلصاً له، متّفقاً معه ومتعاوناً على بلوغ الغاية، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فلا بد للدّين من عقل يدركه، ويؤثّر به وينفذه، ومن أجل ذلك سقط التّكليف عن المجنون، ولا بدّ للعقل من وحي يكمل نقصه، ويمكّنه من إدراك ما لا يستقلّ بإدراكه منفرداً، فالوحيُ لا يناقض العقلَ، ولا يوجب ما يحيله أو يحيل ما يوجبه[1]، ورفضُ ما يدلّ عليه الدّليل العقليُّ القاطع،

(١) فكر ومباحث للشيخ علي الطنطاوي (ص٨٠، ٨١) بتصرف.

يقتضي هدم الأصل وهو (العقل) الذي ثبتت به رسالةُ الرسول المتكلّمُ على صدق دعواه الرسالة، فإذا هُدِم الأصلُ هُدِم الفرعُ لا محالة، فرفضُ الدّلائل العقليّة رجوعٌ على الدّلائل النّقلية بالنّقض[1].

وهذا فضل من الله على البشرية، حيث رضي لها عقيدةً شاملةً تلبّي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة توازناً يريحها وتجد فيه كفاء ما أودعه الله فيها من قدرات وطاقات وأشواق.

فإذا كان لا سبيل للعقل البشري إلى الإحاطة بحقائق الغيب؛ لأنه لم يوهب القدرة على إدراكها في ماهيتها أو كيفيتها - وإن كان يدرك إمكانها كما أسلفت في بداية هذه الفِقْرة - وفي مقدّمتها حقيقة ماهية الذات الإلهية، فهناك صفات الذات الإلهية من: وجود، ووحدانية، وعلم، وقدرة، وحكمة، وخلق، وإرادة... وهب الله الفكر الإنساني القدرة على إدراكها، وإدراك ضرورتها، وجعل كل المكونات في هذا الوجود تنطق بها وتدلّ عليها.

ومن هذا الجانب الدّقيق الواعي الحرّ من جوانب التوازن في أهم قضية من قضايا العقيدة الدقيقة الواعية الحرّة نستعرض آياتٍ بيّناتٍ تشرق بتلك الحقائق السابقة، أودعها الله في قرآنه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ومن هذه الآيات قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشّورى: ١١]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][2]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، للشيخ نديم الجسر (ص٢١٠). وينظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهذا الكتاب القيّم النفيس كلّه في تحقيق هذا المعنى، والبحث فيه بتفصيل دقيق رائع.

(٢) المنفيُّ هنا هو الإدراك - الذي هو عبارة عن الإحاطة - لا مجرّد الرؤية، فإنّ الرؤية ثابتة بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شكّ فيه ولا شبهة، والتقدير: لا تدركه الأبصار، بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين يوم القيامة، كما تعين ثبوت ذلك - كما أسلفنا - واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. انظر: تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٦١/٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢٠٩/٢).

فهذه الآياتُ تصرّح بأنّ العقل البشريّ لا يدرك ولا يستطيع أن يدرك كُنْهَ الذّات الإلهيّة، فأنّى للمحدود أن يحيط بذات اللّامحدود، وأنّى للمقيَّد أن يستوعب ذات المطلق، وإذا كان ذلك كذلك فإنّه لا يمكن أن تجري مقابلة المثل بمثله، ولا يصحّ أن يقاس النّظير على النّظير؛ لأنّ كُنْهَ الذات الإلهية ليس هناك شيءٌ يماثلها فتُقابَل به، ولا نظير يجاريها فتقاس عليه.

نجد ذلك جليّاً في آيات قرآنية كثيرة، ومنها ما ورد في سورة آل عمران [٤٠، ٤٧، ٥٩] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فهذه الآيات البيّنة تدلّ على مشيئة الله المطلقة أو تعلّقها بالخلق دون بيانٍ للكيفية؛ لأنها تفوق الإدراك البشريّ والوعي الإنسانيّ، وفوق حدود الطّاقة العقليّة التي وهبها الله لعباده، فلا يمكن والحالة تلك أن تتعدى فتتجاوز الحدود، وإلا فإن صاحبها يَخلِطُ في وهمه ويتخبط في تخيلاته ولا يصل إلى مبتغاه.

يقول الدكتور هنري لنك الطبيب النفسي المشهور: «فهل يُعقل أن يحسّ البصر أو السّمع أو الشّمّ إحساساً عادياً بخالقه وهو محدود بما أراد له هذا الخالق لا يتعدّاه؟! إنه لو أراد ذلك ما تمكّن؛ لأنه مرتبط بحدّ لا يتعدّاه... كذلك البشر مُنحوا عقلاً، مجالاته وصَوْلاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشآته المختلفة؛ أي محدودة بالكون الفسيح؛ لأنه هو مجال المعرفة لا يتعدّاه العقل»[1].

(١) العودة إلى الإيمان، د. هنري لنك (ص٨٠، ٨١)، وينظر في ذلك: العقيدة الإسلامية وأسسها، د. عبد الرحمن حسن حبنكة (ص١٨، ١٩).

فهناك من الآيات ما يتعلق بقضية الغيب الذي استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه[1]، كما في مسألة الروح، حيث قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن هذه المفاتيح ما ورد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وكذلك مسألةُ علم موعد السّاعة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وهناك من الآيات ما يُظهر إذن الله لمن شاء أن يطلعه على بعض المغيّبات، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك أيضاً ما أورده القرآن الكريم عن عديد من أشراط الساعة، كنزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سياق حديثه عن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ... وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزّخرف: ٥٧ - ٦١].

---

(١) وممّا أطلع الله عليه عباده ما حدثنا به القرآن، ومن ذلك حديثه عن معاناة الظّلمة المتكبرين عند معاينة سكرات الموت من الإهانة البالغة من ملائكة الموت، حيث قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأيّ بيانٍ رادعٍ وزاجرٍ بعد هذا البيان؟!

فقوله تعالى: ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: دليلٌ على قيامها، وإنما يكون ذلك بنزوله من السماء حكماً مُقسِطاً عدلاً؛ وهذا هو المعتمد(١) الذي تفسرّه وتؤيّده القراءة الأخرى: (لَعَلَمٌ) بفتح العين واللام بعدها؛ أي: إشارة وأمارة على وقوعها(٢).

ويؤيّد هذا كثير من الأحاديث الصحيحة في بابه.

ومن أشراط السّاعة خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى في الحديث عن سدّ يأجوج ومأجوج: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

ويجب حيال ما سبق التّلقي ثم الإيمان والاتّباع؛ لأنه فوق مدرَكات الفكر البشري، فلا بدّ للعقل من نور يستعين به في هذه الحال، وهو الخبر الصادق، الصادق في طريقه، والصادق في مصدره، وهو الوحيُ الإلهيُّ(٣)، وهذا ما بيّنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧].

فالآياتُ المتشابهاتُ من مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]،

(١) تفسير ابن كثير (١٣٢/٤)، وفتح القدير (٧٣٤/٤).

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للشيخ أحمد بن محمد البنا، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل (٤٥٨/٢)، وتفسير الكشاف للزمخشري (٤٩٤/٣)، وتفسير روح المعاني للآلوسي (٩٥/٢٥).

(٣) ينظر: المنقذ من الضلال للإمام الغزالي، الفصل الرابع: البحث العقلي في ما وراء الطبيعة عبث، والفصل الخامس: العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة، والتفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد الحليم محمود (ص٤٦٣ - ٤٦٧)، والنبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبيد الله دراز (ص٣٩).

هذه آيات في حقّ صفات الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نؤمن بها ونثبت ما أثبته الله لنفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف، بل كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

سُئل الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستواء، فقال: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفيّةُ مجهولةٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ»(١).

ونأتي في مقابلة ما سبق كلّه - ممّا يدخل في حيّز كُنْه الذّات الإلهية، ومشيئة الله المطلقة، وعلم الله المطلق، ممّا لا يستطيع الفكر البشري أن يدركه - إلى الحديث عما يستطيع الفكر البشري أن يجول فيه ويصول، فيستوعب ويدرك ويعمل، فصفحة هذا الوجود الكوني الذي يموج وينطق ويقرّ بخصائص الذات الإلهية من: وجود، ووحدانية، وقدرة، وخلق، وتدبير، وإرادة، وحكمة... كلّ ذلك يقدمّه لنا القرآن ببراهينه المقنعة، ويعرضه بأسلوب بيانيّ معجز، ومنطق مفهوم واضح، تهضمه العقول والقلوب بسهولة ويسر، وتتلقّاه الفِطرة بالقَبول والتّسليم.

ولنقرأ ولنستمع معاً إلى مجموعة من الآيات القرآنية التي ضمّت حشداً كبيراً من الاستفهامات الإنكارية والتّعجبية، والتي تنعى على الكفّار عدم نظرهم في أنفسهم الذي هو أقرب الأدلة إليهم وألصقها بهم ومن أقواها على وجود الله ووحدانيته، فكيف مع هذا كله يعبدون أو يشركون معه غيره؟! قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات: ٢١]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصّلت: ٥٣].

ومن تلك الاستفهامات الإنكارية التّعجبيّة ما يلي: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور: ٣٥، ٣٦].

(١) ينظر: تفسير ابن عطية المحرر الوجيز (٤/٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣٩٨/٣)، وشرح العقيدة الطحاوية (٩٦/١).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ * أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٤].

ولِطول ما هرب الغربيون من الله إلى «الطبيعة»، أو بالأَحْرَى من الكنيسة التي كانت تمارس معهم صنوفاً من الاستبداد والإذلال والمهانة الروحية والفكرية والمادية.

لِطول ما هربوا من فكرة الله الكَنَسية إلى فكرة الطبيعة، ونَسُوا أنّ هذه الطبيعة ذاتها غيبٌ، لكنّه غيْبٌ ضالٌّ منحرفٌ، لا تُدرَك حقيقتُه، ولكن تُدرَك فقط آثارُه، ومن ثَمّ فهذا الإيمانُ الضَّالُّ بالطبيعة هو - من حيث جوهره إيمانٌ بالغيب - عن طريق تلك الطاقة الفطرية التي تُؤمر بما لا تدركه الحواسُّ، وهكذا ظنّت أوروبا أنها تهرب من «الغيبيات»، فإذا بالغيبيات تلاحقها في مهربها، ولكنّها في صورةٍ ضالّةٍ تناسب ما هي عليه من ضلالٍ وانحرافٍ.

وبالنتيجة نقول: إنّ طاقةَ ما لا تُدركه الحواسُّ «الغيب» وما تدركه الحواسّ «الشّهادة» موجودةٌ في كيان الإنسان وعالم الإنسان، ومتّصلةٌ كذلك اتصالاً وثيقاً في عالمه الشّامل الكبير.

وبعد ذلك: فلنقرأ ولْنُصغ إلى هذه الآيات التي تنطق بأعظم الآيات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرّوم: ٢٠ - ٢٥].

المبحث الثامن: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازن في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة:

نجد من خلال البيان السّابق، وما استعرضناه من آيات الله النّاطقة بعالمَيّ الغيب والشهادة، وآيات الله في الآفاق والأنفُس الدّاعية إلى النّظر والتّفكر والتّدبُّر، أنها كلّها تقدّم الدّليل تلو الدّليل بحُجَجٍ قويّة دامغة على إدراك خصائص الذّات الإلهية، وتفرّد هذه الذّات القدسيّة العظيمة بالخلق والإيجاد والإنعام والإمداد، مما يربط بوثاق محكم وشيج بين المجهول والمعلوم، والغيب الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأذهان، والمكشوف الذي تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، وهي تستشعر إزاء الغيب الذي لا تستوعبه جلالَ الرّبوبية وكمالَ قدر الألوهية، وتستشعر إزاء المعلوم الذي تدركه ما حباه الله لهذا الإنسان - المخلوق الصغير في هذا الكون - من قيمةٍ عالية وكرامة مهيبة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وبهذا وذاك تتوازن النّفسُ الإنسانيةُ توازناً منضبطاً، يُضفي عليها الرّاحةَ والسعادةَ، وهي تؤمنُ بعالم الغيب الواسع الكبير، وهي في الوقت ذاته تتفكّر وتتدبّر في عالم الشهادة الممتد الكبير، ممّا يزيد إيمانها إيماناً ويقينها يقيناً بعظمة الله وعلمه الذي هو أوسع من كل غيب ومن كل شهادة.

المبحث التاسع: التّوازنُ بين طلاقةِ المشيئة الإلهية وثباتِ السُّنن الكونيّة:

مشيئةُ الله مطْلقةٌ لا تحدّها حدودٌ ولا تقيّدها قيودٌ، وذلك من خصائص الذّات الإلهية الخالقة المدبّرة الحكيمة، وهي تتآلف تآلفاً كليّاً مع قدرة الله المطلقة، فإذا أرادت مشيئة الله شيئاً وقع ولا رادّ له، يعبّر عن ذلك بالجملة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النّحل: ٤٠].

ويجسّد هذه الحقيقةَ بالتّفصيل وقائعُ كثيرةٌ قصّها على مسامعنا القرآنُ الكريم في عديدٍ من الآيات، والتي منها: ﴿**أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠].

﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ**﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ * قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩].

﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ [الشّعراء: ٤٥].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ * فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشّعراء: ٦١ - ٦٣].

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصّافات: ١٧١ - ١٧٣].

وكثيرةٌ هي الآياتُ التي تقرّر طلاقةَ المشيئة الإلهية، ممّا يقضي بحتمية الإيمان بها والانصياع لمقتضياتها، وفي مقابل ما سبق نجد أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بثّ في هذا الكون سُنناً جاريةً، ونواميسَ مطّردةً، وأمر عباده بالنّظر فيها وإدراكها، والتكيّف وفقها، والتّعامل مع الكون على أساسها، وهنا أمرٌ وشيجُ الصّلة بالتوازن السابق لا بدّ من بيانه، وهو أنّ الكشف عن سُنن الله التي لا تبديل لها لا يُخلّ أبداً بحقيقة «الغيب» المجهول للإنسان - والذي سيظلّ كذلك مجهولاً - ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كلّ شيء بقدَرٍ غيبيٍّ خاصٍّ من الله تعالى، يُنشيء هذا الحدثَ ويُبرزه للوجود في تناسقٍ تامٍّ في العقيدة الإسلامية، وفي تصوّر المسلم الناشيء من حقائق العقيدة.

وهم لا يعلمون فيما وراء العلم الذي منحهم الله إياه إلا الظّنّ، وإنّ الظن لا يُغني من الحقّ شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: ٢٨].

وباعتبار أنّ الغيب يُعدّ ركن طلاقة المشيئة الإلهية، وبه يتجلّى مفهوم القدَر الذي تنفذ من خلاله هذه السُّنن، فإننا نقول: إنّ الغيب هو الحقيقة «العلمية» الوحيدة المستيقنة من وراء كلّ التّجارب والبحوث.

يقول العلّامةُ الطبيعيُّ «ماريت ستانلي كونجدن» عن الحقائق التي يصل إليها العلم: «إنّ العلومَ حقائقُ مختبرة، ولكنّها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه، ومدى بعده عن الدّقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائجُ العلوم مقبولةٌ داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكميّة في الوصف والتّنبؤ، وهي تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات كذلك، وليس باليقين، ونتائجُ العلوم تقريبيّةٌ، وعُرضةٌ للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات، ونتائجُها اجتهاديّةٌ، وقابلةٌ للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائيّةً، وإنّنا لَنرى أنّ العالِم عندما يصل إلى قانونٍ أو نظريةٍ يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن، ويترك الباب مفتوحاً لما يستجدّ من التّعديلات»[1].

هذا وإنّ القرآن لَيعرض أمامنا عديداً من الآيات التي يتبلور فيها هذا المفهوم بشكل واضح، يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فهاتان الآيتان الكريمتان تجمعان مَعْلَماً من معالم السُّنن الكونيّة تتجلّى فيها حقيقةٌ من حقائق الغيب ومشيئةُ الله الطّليقة.

فالحراثةُ سُنّةٌ من سُنن الله في كونه، يقوم بها الإنسانُ كسبب يُوصلُ إلى نتيجةٍ مترتّبةٍ عليها، ولكنّ هذه النتيجة وهي إحياء البذرة من سُباتها، وبعثها من قبرها في

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من العلماء، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، من مقال: «درس من شجيرة الورد» لماريت ستانلي كونجدن.

التّربة، وانتعاشها بعد ذلك، كلّ هذا وفق نظامٍ يتمّ بقدَرِ الله وقدرته، ويلمّ النّاسُ بطرَفٍ من هذه الظّاهرة، ولكنّهم يجهلون الحقيقة الكامنة في هذه العملية، وهي في حدّ ذاتها غيبٌ من الغيوب، وهذا ما تمثّله الآية الكريمة التي يقول فيها اللهُ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحجّ: ٥، ٦].

ومن الآيات التي تعبّر عن هذه الحقيقة قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: ١١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

بَيْدَ أنّ ثَمَّةَ أمراً آخرَ لا بدّ من اعتباره، وهو أنّ هذه السُّنن ليست ضرباً لازباً لا تنخرم ولا تتخلّف، بل يمكن أن يحدث لها ذلك إذا أرادته مشيئةُ الله، وإذا توجّهت إليه قدرتُه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلق هذه السُّنن ورتّب عليها آثارها، وهو قادر على تعطيلها وإخماد مفعولها متى شاء وكيف شاء، وفق إرادته وحكمته، والآيات التي أوردتُها في بداية حديثي عن طلاقة مشيئة الله هي نفسها تصلح دليلاً هنا.

المبحث العاشر: الآثارُ التّربوية المترتّبة على التّوازن بين مشيئة الله المُطْلَقة، والسُّنن الكونيّة الثّابتة:

بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السّنن الكونية يعيش المسلمُ وروحُه موصولةٌ بخالقها، وقلبُه متعلّقٌ بمشيئة مَنْ فطره، وجعله بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمؤمن وفي حالته تلك يباشر الأسبابَ الماديّة، ويتعامل مع سنن الله الكونية، دون إخلالٍ بها أو تقاعسٍ، وإذا وجد أنّ هذه الأسبابَ قد تُحاط أو تصطدم بعقباتٍ تُفشل سريان مفعولها وتحقيق نتائجها، فإنه في هذه الحالة مطالبٌ بمباشرة هذه الوسائل والأسباب، وفق سُنن الله، ملتجئاً بقلبه إلى الله، متوكّلاً عليه، مستعيناً بقوته وقدرته وتدبيره ليصل إلى ما يرجوه وفق حكمة الله ومشيئته.

وهذا التّوكل عملٌ من أعمال القلب، فإذا امتلأ به قلبُ المؤمن، وهو يباشر الأسبابَ المادية على قدر استطاعته، ازدادت قوته المعنوية، وامتلأ قلبه ثقةً بالله وأملاً به في الحصول على النتائج المرجوة.

وإذا لم يتحقّق له ما يرجوه، مع أنه بذل ما في وسعه وطاقته، فإنه يثق عندئذٍ بأنّ الله تعالى قد شاء له وقدّر ما هو خير، وادّخر له الأفضل والأصلح، فهو يستقبل ما لم يتحقّق له من نتائج بمثل استقباله لها فيما لو تحقّقت، فهما حينئذٍ سيّان، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ المتوكّلين، فهذا هو بأبي وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمر بالهجرة إلى المدينة،

فيستجمع كلَّ الأسباب التي تؤدي به إلى برّ الأمان، دون أن يتواكل أو يقصّر في اتخاذ سببٍ مفيدٍ مناسبٍ له في هجرته[1].

ويجب على المسلم أنْ يعتقد أنّ سُنَنَ الله في كونه، ونواميسَه في خلقه، هي مجرّد أسباب ووسائل يتعامل بها؛ لأنّه مأمور بالتعامل معها ومراعاتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وليست هي المنشئة للمسبّبات والنتائج، وإنّما المنشئ لها خالقُها ومدبّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمسلم مطالبٌ بردّ الأمور كلّها إلى خالق الأسباب ومسبّباتها، والتّعلّقِ به وحدَه دون غيره من وراء الأسباب بعد القيام بواجبه في السّعي والعمل طاعة لأمر الله.

وهكذا يسير المسلم في حياته واثقُ الخُطْو متوازناً مطمئناً زكيَّ النّفس باتصاله بالله وثقته به، عاملاً جادّاً وكادحاً نشيطاً في انتفاعه بثبات السّنن الكونية وبناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية، مكتشفاً لأسرار الكون ومكنوناته، محصّلاً لمزايا العلوم النظرية والعملية، مسخِّراً لها في تجاربه الحياتية مستفيداً منها منتفعاً بثمراتها.

وهكذا يتربّى المسلم في ظلّ هذه المعطيات وممارسته لها، فتصطبغ حياته بمزيج من القيم الأدبية الزكية والأخلاقية الرفيعة التي تسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى درجات الكمال التي قدّرها الله لها، وفي حدود الطّاقة التي وهبها اللهُ للإنسان والقُدرات التي ملّكه إيّاها.

المبحث الحادي عشر: التّوازنُ بين مفهوم القَدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ:

هذا التوازن وشيجُ الصّلة بالذي سبقه، من حيث إنّ قدر الله تعالى يعبّر عن طلاقة المشيئة الإلهية وتفرّدها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، والتي منها حركة الإنسان وسعيه، وهذا السّعي وتلك الحركة في التعامل مع سُنن الله يعبّر عن

(١) يُنظر في: السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٢ - ٢٣٥)، والروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي (٢/٢٢١ - ٢٣٧).

إرادة الإنسان ومشيئته واختياره، وكلّ ذلك داخلٌ في نطاق المشيئة الإلهية الطّليقة، كما أنه تكريمٌ لهذا المخلوق البشريّ أيّما تكريم:

أوّلاً: حيث جعل اللهُ من هذه الميزات التي ميّز بها الإنسانَ عن غيره من المخلوقات محكّاً لاختباره.

ثانياً: منحه الدَّوْرَ الأوّل في خلافة الأرض، وهو دورٌ ضخمٌ هائلٌ يحوز الإنسان بسببه مركزاً ممتازاً في النّظام الكوني، ويعطيه مجالاً واسعاً للحركة والسّعي والعمل والفاعلية والتأثير في توازنٍ تامٍّ متكاملٍ مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية كما تقدّم.

إنّ قضيةَ القدر قضيةٌ مشهورةٌ في تاريخ الفلسفات الإسلامية وغير الإسلامية، وقد ثار حولها جدلٌ كثير وكبير تبنّته عديد من الفرق، حتى أن بعضها وُسِمَ باسم هذه القضية وأصبح لها رمزاً وعنواناً مثل: فرقة القَدَرية[1]، وفرقة الجبرية[2]، ولسنا الآن في صدد تفنيد أقوالهم وشبهاتهم والرّد عليها.

وإنما يهمّنا الآن أن نعتقد ثم نعلن: أنّ هذه القضية على الوجه الذي ذكرناه آنفاً هي التي تجعل كفّتي الميزان - الأولى تمثّل قدرَ الله ومشيئته المطلقة، والثانية تمثّل كَسْبَ الإنسان واختياره ومشيئته - معتدلتين متوازنتين بدقّة محكمة وتدبير حكيم، وحسبنا ذلك دليلاً بيّناً قوياً على صحّة اعتقاد أهل السُّنة والجماعة - والذي يمثل الوسطيّةَ والاعتدالَ المجرّدين - وحُجَّةً دامغةً على تهافت اعتقاد القدرية والجبرية، والذي يمثّل الإفراط والتفريط المذمومين.

(١) هي نفسها فرقة المعتزلة، سمّيت بالقدرية لنفيها القدر، وقالوا: إن الإنسان خالقٌ لأفعال نفسه، ومذهبهم يقوم على الأصول الخمسة التي سمّوها: العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لبّسوا فيها الحقّ بالباطل. وسبب تسميتهم بهذا الاسم: أن رأسهم واصل بن عطاء قد اعتزل مجلس الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالتفّ حوله عددٌ من النّاس، فسمّوا بالمعتزلة. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (٧٩١/١ - ٧٩٤)، والفَرق بين الفِرَق (١١٧، ١١٨)، والملل والنحل (٦٤/١).

(٢) هي فرقة خالفت أهل السنة والجماعة وقالت: الإنسان مُسيَّرٌ مجبور في أعماله وأفعاله كلها، فهو كالريشة في الهواء، تتقاذفها الرياح أنّى شاءت، وللجبرية أصناف. انظر في تفصيل ذلك: الملل والنحل للشهرستاني (٨٥/١).

وآياتُ الله التي تقرّر كِفَّتيّ الميزان السابقتين كثيرةٌ، أذكر منها في الجانب الأوّل قولَه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النّساء: ٧٨].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التّوبة: ٥١].

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

وفي الجانب الثاني نقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ [النساء: ١١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشّمس: ٧ - ١٠].

لكنّنا وبالرغم مما تقدّم نجد كثيراً من المسلمين عاميِّهم ومثقّفِهم يستشكلون في أذهانهم قضية القدر[١]، فنراهم يحومون ويجولون في دائرة من التّيه، فلا يخرجون منها إلّا محمّلين بالحَيْرة والتّخبُّط والخَلْط، وأرى أنّ سبب ذلك يعود إلى أمرين اثنين:

الأوّل: أنهم تأثّروا بمناهج الفلسفات المحرّفة كالفلسفة الاعتزالية والجبرية والإغريقية، فقلّدوها على غير هدًى ولا بصيرة، ولم يكلّفوا أنفسهم ردّ ذلك إلى ما

(١) ينظر: موقف البشر تحت سلطان القدر، للعلاّمة مصطفى صبري (ص٢١٩ - ٢٢٦).

ورد في كتاب الله وسُنّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى فرض عدم فهمهم لما فيهما - مع وضوحه - فإنّهم لم يرجعوا إلى أهل الذِّكر - وهم أهل العلم - فيسألونهم عمّا لا يعلمون، ويزيحون عن عقولهم شُبَه ما يستشكلون.

والثاني: أنهم حكّموا عقولَهم وأَرْخَوْا لها العِنانَ مع ما يشُوْبها من نزغاتِ الأهواء والشّهوات الفكرية والنفسية، والأسبقيات العصبية والانتمائية، فبنَوْا لأنفُسهم تصوّراتٍ وإيحاءاتٍ نصّبوها قواعدَ وضوابطَ، فما وافقها - حسب زعمهم - فهو الحقّ، وما خالفها وحاد عنها فهو الباطل.

ولذلك أعلنوا عن وجود مشكلةٍ في قضية القدر، وأنّ هناك تعارضاً وتناقضاً بين قدر الله واختيار الإنسان، وبين مشيئة الله ومشيئة الإنسان.

والحقُّ يُقال: إنّ هذه المشكلةَ ليست في قضية القدَر، وإنّما في عقولهم ومنهج تفكيرهم.

فالتّعارضُ والتّناقضُ إنّما يقع عندما يُنظر إلى القضية بمنظارٍ عقليٍّ مجرّدٍ، ويُجعل هذا النّظرُ العقليُّ الحَكَمَ على موضوعٍ عَقَديٍّ غيبيٍّ جليلٍ، لا يمكن والحال هذه أن يكون للعقل عليه أيُّ سلطانٍ؛ لأنّه مخالفٌ للمنهج السّويّ السديد الذي يقرّر أنّ المصدر الصّحيح الذي يجب أن نعتمده في هذا الأمر وأمثاله هو النّصوصُ الصّحيحةُ الصّريحةُ، فهي التي نستمدّ منها مقرّراتنا العقلية في المجال الذي لا دليلَ لنا فيه إلّا ما يُطلعنا اللهُ عليه منه، وفي هذه القاعدة تكريمٌ للعقل أيّما تكريم.

ويمكن أن نُلخّص هذه الحقيقة في قضية القدر، فنقول: إنّ كلَّ شيءٍ في هذا الوجود مخلوقٌ بقدَر الله، وكلَّ حركة وسكنة تتمّ فيه بقدَر الله، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ**﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠].

فحياةُ الناس وشؤونُهم وتقلبّاتُهم وأعمالُهم، وما ينشأ عن ذلك من أحداثٍ، كلُّه بقدَر الله، فهو الذي فطرَه وخلَقه.

وإنّ قدَرَ الله في الناس يتحقّق ويقع من خلال كسبهم واختيارهم وإرادتهم وعملهم، فما يصدر منهم من سوءٍ فبقدَر الله، وما يصدر من خير فبقدر الله، وهم مجزيون بهذا وذاك بما كسبت أيديهم وبما اختاروه هم لأنفسهم، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر، فالقضيّةُ سهلةُ الفهم، يسيرةُ المنال.

وقد جسّد هذه الحقيقة كثيرٌ من آيات الله التي جاء كلا الأمرين فيها مجتمعين في نصٍّ واحدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦][1].

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

المبحث الثاني عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مفهوم القدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ:

والنصوص القرآنية الأخيرة، والنصوص التي سقتها سابقاً في مجموعتين الأولى التي تتحدث عن مشيئة الله المطلقة، والثانية التي تعلن عن وجود المشيئة الإنسانية، كلُّ ذلك من شأنه أن يكوّن حقيقةً واضحةً، وهي أنّ مدلولاتِ تلك النصوص تمنح الإنسانَ ساحةً واسعةً من التّصورات الإيجابية، ويردف تلك التّصورات ما يحقّقها على أرض الواقع من الاتّجاه السّديد، والعمل الأَمْثل، والسّلوك الأقوم، وبما ينهض على ذلك كلّه من مفهوم التّكليف والمسؤولية والجزاء.

(١) المصيبة هنا: ما أصيب من المسلمين يوم أُحد من قتل السبعين، وأما المثلان: يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين. انظر: تفسير ابن كثير (٣٧٤/١)، وتفسير أبي السعود (٥٩٣/١).

وإذا كانت كيفياتُ أفعال الله وقدَره ومشيئته في خلقه لا تدخل في نطاق قدرات العقل البشري؛ لأنها خارجةٌ عن حدود إدراكه ووعيه، فإن من المسلّمات الواضحة الناتجة عن هذه الحقيقة أن يتنكّب التفكير الإنساني مزلّة الحكم على العلاقات والنّسب والكيفيات والارتباطات بين المشيئة الإلهية المطلقة والمشيئة الإنسانية المحدودة، والتي يعبّر عنها كسب الإنسان واختياره.

ومن واجب التّفكير الإنسانيّ حينذاك أن يدعَ ذلك كلّه ويَكِلَهُ لعلم الله المطلَق، وتدبيره المطلَق، وحكمته المطلَقة، مع ضرورة اليقين الجازم والطّمأنينة الكاملة بقدر الله ورحمته وعدله وفضله وإحسانه، فاللهُ وحده هو الذي يعلم حقيقة الإنسان، وما أَودَعَ فيه من طاقاتٍ وقُدُراتٍ، وما فطره عليه من نزعات وأشواق، ومدى ما أوجده فيه من خاصيّة الاختيار في نطاق مشيئة الله المطلقة، ومدى ما يترتّب على هذا الاختيار من مسؤولية وجزاء.

وفق هذا المنهج القويم يقع التّوازنُ الدّقيقُ الواعي في تصوّرات الإنسان ومشاعره وتطلّعاته وأشواقه، وبما يصطبغ به ذلك كلّه من الطّمأنينة الكاملة إلى منهج الله جَلَّجَلَالُهُ، والعمل الجادّ المصيب تحت مظلّة ركنيّ المسؤولية والجزاء، وما ينتج عن ذلك من أملٍ كبيرٍ - برحمة الله وفضله - بمصيرٍ طيّب وخاتمةٍ حسنةٍ.

إنّ المسلم عندما يؤمن إيماناً جازماً بقدَر الله أيقن أنّ ما يفيض عليه من نِعَم، وما ينزل به من مصائب أمرٌ مقدّرٌ مرسومٌ، مرادٌ لله، مقضيٌّ بقضائه، واقعٌ بقَدَره وقُدْرته، واطمأنّ لكلّ ما يجري في الكون ممّا لا كسبَ له به، ورضي به مهما كان أمرُه مُحزِناً أو مُسِرّاً، فإن خالقه وبارئه يقول: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ * لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

والمؤمن يؤمن أنّ أمرَه كلّه له خيرٌ في حال السّراء والضرّاء، مما يزيده طمأنينةً ورضًى وتسليماً، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خيرٌ - وليس لأحدٍ إلّا للمؤمن - إنْ أصابته سرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له»(١).

ولما تشرّب قلب عملاق الإسلام عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الحقيقة عبّر عنها بفهمه الدقيق، وفطنته الواعية؛ فقال: «ما أُبالي على ما أصبحتُ، على ما أُحبّ أو على ما أكره؛ لأنّني لا أدري الخيرةَ لي، فيما أحبّ أو ما أكره»(٢).

«لقد اندفع المسلمون إلى الممالك والأقطار يفتحونها، وقدّموا تضحياتٍ كبيرةً في المال والأرواح، فأدهشوا العقولَ، وحيّروا الألبابَ بما دوّخوا الأممَ، وقهروا الدُّوَل، وامتدت سلطتُهم من جبال بيرينيه - الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا - إلى جدار الصين، مع قلّة عددهم وعُدّتهم، ونشروا في هذه البلاد رسالةَ الإسلام، وأقاموا العدلَ بين الناس بما لم يعرف له التاريخ مثيلاً، وما كان قائدَهم وسائقَهم إلى جميع هذا إلا الاعتقادُ بالقضاء والقدر»(٣).

وفي مقابل ذلك يدرك المؤمن أن ما أصابه من سوءٍ إنّما هو بما كسبت يداه، وقد يكون تكفيراً لذنبه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشّورى: ٣٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا غمٍّ حتّى الشّوكة يُشاكُها إلّا كفّر اللهُ بها من خطاياه»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق (١٣)، باب المؤمن أمره كله خير، حديث (٢٩٩٩).

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (ص١٩٠).

(٣) العروة الوثقى، للشيخ جمال الدين الأفغاني (ص٥٣).

(٤) أخرجه الشّيخان، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ينظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب المرضى (١) باب ماجاء في كفّارة المرض، وقول الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: ١٢٣]، حديث (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، وصحيح مسلم، كتاب البِرّ والصّلة والآداب (١٤)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشّوكة يشاكها، حديث (٣٧٥٢).

ولهذا كلّه كان الإعراضُ عن الأسباب المأمور بها قدحاً في الشّرع، بيّن لنا ذلك ابنُ القيّم، فقال: «لا تتمّ حقيقةُ التّوحيد إلّا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى... وإنّ تعطيلها يقدح في نفس التوّكل، وإنّ تركها - عجزاً - ينافي التّوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضرّه في دينه ودنياه، ولا بد من هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلّا كان معطّلاً للحكمة والشّرع، فلا يجعل العبدُ عجزَه توكّلاً، ولا توكّله عجزاً....»(١).

لذا فقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتّداوي، فعن أسامةَ بن شريكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه، فكأنّما على رؤوسهم الطّيرُ، فسلّمتُ، ثم قعدتُ، قالوا: يا رسول الله، أَنتداوَى، فقال: «تَداوَوْا، فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يضع داءً إلّا وضع له دواءً، غيرَ داءٍ واحدٍ»، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «الهَرَمُ»(٢).

بل إنّ الدّواءَ الذي يشفي من الدّاء هو بحدّ ذاته من قدر الله، فقد سُئل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيتَ أدويةً نتداوى بها، ورُقى نسترقي بها، وتُقى نتّقيها، هل تردّ من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قَدَر الله»(٣).

ورحمَ اللهُ عمرَ بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كم كان حصيفاً في فهمه لهذه الحقيقة، فها هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا خرج إلى الشّام لقيه أمراءُ الأمصار، فأخبروه بانتشار وباء الطّاعون(٤)،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٦٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، من طريق أسامة بن شريك، وهو شطر حديث عنده. انظر: شرح الأدب المفرد (١٣٨) باب حسن الخلق إذا فقهوا، حديث (٢٩١)، وهو أيضاً شطر من حديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب (١)، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، حديث (٣٤٣٦)، وهو حديث كامل بنصه المثبت في المتن، مخرج عند أبي داود والترمذي. انظر: سنن أبي داود، كتاب الطب (١)، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، وسنن الترمذي، كتاب الطب، باب (٢) ما جاء في الدواء والحثّ عليه، حديث (٢٠٣٨)، وقال الترمذي: وفي الباب عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي خزامة عن أبيه وابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب (١)، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، حديث (٣٤٣٧).

(٤) هو المعروف بطاعون عمواس: بفتح العين المهملة والميم، وروي بكسر العين المهملة، وسكون الميم، وقد وقع هذا الطاعون سنة ثماني عشرة للهجرة، ومات فيه أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أمير الشام، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فاستشار المهاجرين والأنصار، ثمّ مهاجرة الفتح من مشايخ قريش، فاجتمع المهاجرة على الرّجوع عن الوباء، وأمر بذلك عمر، فقال له أبو عبيدة: أَفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدةَ، نعم نفرّ من قدر الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصيبةٌ والأخرى جدْبةٌ، أليس إنْ رعيتَ الخصيبة رعيتَها بقدر الله، وإنْ رعيتَ الجدبة رعيتَها بقدر الله؟![1]

المبحث الثالث عشر: التّوازنُ بين عبوديةِ الإنسان المطلَقة لله، ومقامِ الإنسان عند الله في الكون:

وهنا يقف الإسلامُ موقفاً معتدلاً صائباً بين إفراط من ألّه الإنسان في صُوَرٍ كثيرةٍ، وتفريطِ من حقّر الإنسان إلى دركة الازدراء والإهانة.

ورضي اللهُ عن الخليفة الرّاشد عمر بن عبد العزيز القائل: «رحمَ اللهُ امرءاً عرف قَدْرَ نَفْسِه»[2]. فالإنسانُ عبدٌ مخلوقٌ لله، لا يمكن مهما بلغ من العلم والقدرة والرحمة والسّعة - وهو لم يكُ شيئاً مذكوراً - أن يُقارب ولوْ درجةً واحدة قَدْر من خلقه ولم يكُ أحدٌ معه.

فللألوهية حقيقة وخصائص تختلف اختلافاً جذرياً عن حقيقية العبودية وخصائصها.

وعدد من الصحابة الأجلّاء. انظر في ذلك: الكامل في التاريخ (٣٩٠/٢، ٣٩١)، وعمواس: ضيعة في فلسطين بالقرب من بيت المقدس، منها كان ابتداء الطّاعون ثم فشا في أرض الشام. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (١٥٧/٤).

(١) انظر هذا الحديث بكامله في صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الطب (٣٠)، باب ما يذكر في الطاعون، حديث (٥٧٢٩)، وفي نهاية هذا الحديث وفي الحديث الذي قبله والذي بعده ورد ما يؤيد فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، وقد أفاض ابن حجر في شرحه لهذا الحديث، وأورد هذه الرواية التي في المتن ابن الأثير في الكامل في التاريخ (٣٩٢/٢).

(٢) أورده الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السّالكين (٣٣١/٢)، فقال: «بلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنّك اشتريت فصّاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبعْ الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتّخذ خاتماً بدرهمين واجعل فصّه حديداً صينياً، واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه».

وآياتُ القرآن الكريم تحسم هذه القضية حسماً فاصلاً مبيناً، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يشاركه أحدٌ من مخلوقاته - ومنها الإنسان - في شيءٍ البتة، لا في ماهيّةٍ، ولا في بقاءٍ، ولا في سلطانٍ، ولا في خَلْقٍ، ولا في رزقٍ، ولا في علمٍ، ولا في مقامٍ، ولا في تشريعٍ، فالله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرّحمن: ٢٦، ٢٧].

و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

و﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزّمر: ٦٢].

و﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرّعد: ٢٦].

و﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

و﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشّورى: ٢١].

فالإنسانُ عبدٌ لله، شأنُه في ذلك شأنُ كلِّ مخلوقٍ في هذا الوجود لا يشاركُ اللهَ في حقيقةٍ ولا خاصيّةٍ، وفي هذا المبدأ والمفهوم يتفرّد الإسلامُ عن غيره من المِلَلِ الأُخرى، سواء أكانت سماويّةً فدخلها التّحريفُ كالنّصرانية واليهودية، أمْ أرضيةً اخترعها البشرُ بنقصهم وغَفلتهم، فدخلها السَّفَهُ والإسْفافُ بأجلَى معانيهما.

كيف يمكن أن تجتمع المسيحيّةُ المحرَّفةُ مع الإسلام في الحقيقة التي تحدّثنا عنها آنفاً، والكنيسةُ تقول عن المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّه الإلهُ، أو ابنُ الإلهِ، على اختلاف مذاهبهم وتصوّراتهم، كما بيّنه القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٣٠].

لقد أرادت مع أتباعها أن ترفعه وتكرّمه، فخلعت عنه عبوديّتَه وأضافت له لاهوتيةً ليست له[1]

(١) ينظر المعنى الأخير في: أقانيم النصارى، أحمد حجازي (ص٦٠).

والإسلامُ وهو دينُ اللهِ السّائرُ السّائدُ مع جميع الأنبياء والرُّسل من أوّلهم إلى خاتمهم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يقرّر قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقرّر عن عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما يلي: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزّخرف: ٥٩].

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: ١٧٢].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وكذلك في المقابل: لا يليق تصغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عندما يُراد رفع الإنسان وتعظيمه وتكريمه، وإعلان سيطرته وفاعليته في هذه الأرض، وبخاصة عندما يكتشف سرّاً من أسرار المادة، أو يستنطق طاقة من طاقات الكون كانت كامنةً محجوبةً، فمَن الذي خلق المادةَ وأسرارها وفتح منها للإنسان ما فتح ؟! ومَن الذي خلق الكون وما فيه من طاقاتٍ هائلةٍ، وفجّر من هذه الطاقات للإنسان ما فجّر؟!

الأساطيرُ التي تسلّطت على عقول الأوربيين وانتقلت للأمريكيين بعد مدّة من الزّمن - سواء أكانت أساطيرَ عبريةً أم إغريقيةً، والتي ظلّت تسيطر على تصوّراتهم وأفكارهم حتى بعدما دخلوا في المسيحيّة - هي التي ساقت لهم أمراً في غاية الإسفاف والخطورة، وهو أنّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والإنسانَ كُفُوان أو ندّان أو متصارعان، يغلب أحدُهما الآخر ويهزمه، أو يتفوّق عليه لترجح كفّته على كفّته.

فالأسطورةُ العبريّة تصوّر الإلهَ خائفاً من أن يأكل الإنسانُ من شجرة الحياة - بعد ما أكل من شجرة المعرفة - فيصبح واحداً من الآلهة، فيطرده من الجنّة، ويضرب دونه ودون شجرة الحياة حُرّاساً شِداداً غِلاظاً بسيوفٍ حادّة قويةٍ لا تُرحم.

والأسطورةُ الإغريقيةُ التي تصوّر كبير الآلهة «زيوس» غاضباً على الإله «بروميثيوس»؛ لأنه سرق سرّ النار المقدّسة «سر المعرفة» وأعطاه للإنسان خفيةً عن كبير الآلهة،

ولم يكن للإنسان أن يعرف؛ لئلّا يرتفع مقامُه فيهبطَ مقامُ كبير الآلهة ومقامُ سائر الآلهة، لذا فقد تركه لأفظع وأشنع انتقام[1].

وهذا هو «نيتشة»[2] يُطلق لأوهامه الخيالَ، فيُعلن - كالذي أصابه الصرّع - «موت الإله» ومولد الإنسان الأعلى «السُّوبرمان»[3].

وصدقُ اللهُ العظيم القائل: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح، فأين هذه الأساطير الكاذبة من الحقيقة الصادقة الناطقة التي أعلنها الإسلام بلسان القرآن الذي جعل كرامةَ الإنسان بعبوديته لله، وشرّف الإنسانَ بنفخة الله فيه من روح الله؟! وما نال هذا الوسامَ الممتازَ من بين سائر المخلوقات إلّا الإنسانُ، حتّى أنّ اللهَ يأمر الملائكةَ - الذين لا يعصون الله ما أمرَهم، وهم أقرب عباده المقرّبين - أن يسجدوا لهذا الإنسان سجودَ التّكريم والإجلال، بل جعله خليفتَه في أرضه، وسخّر له الأرضَ وما فيها، وهو كائنٌ مُبجَّلٌ محسوبٌ حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحِجْر: ٢٨ - ٣٠].

---

(١) ينظر: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ثروة عكاشة (ص٣٧٦)، محمد مندور شيخ النقاد في الأدب الحديث، د. محمود السّمرة (ص٥٣)، وأبو القاسم الشّابي، ريتا عواد (ص٦٣).

(٢) نيتشة: فيلسوف وشاعر ألماني، ولد سنة (١٨٤٤م)، كان يُدعى «القسّيس الصغير»، حيث بدأ طفلًا متديّناً كابنٍ لقسٍ بروستانتي، وعندما شبّ انقلب رأساً على عقبٍ، فكان صاحب فلسفةٍ إلحاديّةٍ، مجّدت القوة والقسوة، وأفرزت الفاشيّة والنّازيّة، مات سنة (١٩٠٠م). ينظر: نيتشة، د. عبد الرحمن بدوي (ص٣١، ٣٢، ٤١ - ٤٢)، وملحدون محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض (ص١٨)، ونيتشة، ترجمة جورج ميخائيل ديب (ص١٨٦)، والكتاب المقدّس ونظريّات العلم الحديث، ترجمة نظير عريان ميلاد (ص٥٩).

(٣) قراءة في الفلسفة العدمية لنيتشة، نضال البيابي (ص١ - ٣)، الصرّاع في الوجود، بولس سلامة (ص٢١٧)، وملحدون محدثون ومعاصرون (ص٢٢، ٢٥)، وجواب المسيحيّة على الإلحاد الشّيوعي، د. عزّت زكي (ص٧١)، ودراسات في علم اللّاهوت (ص١٥٦ - ١٥٨).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

إن أصدقَ حالات وجود الإنسان، وأقومَ مصداقيّة فطرته، وأحسنَ درجات كماله، حين يحقّق مقامَ العبوديّة الخالصة لله، ولذلك كانت غايةَ الوجود الإنسانيّ العبوديةُ لله وحدَه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦].

وهذا المقام الرفيع كان مَعْقِدَ جلال وجمال الوصف الرّبانيّ، ونسبته إليه في مقامٍ حازَه أحبُّ الخلق وأكرمُ الخلق، إنّه مقامُ الوحي ومقامُ الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولذلك فإنّ خير من ترجم لنا هذا المقام السامي - مقامَ العبودية لله - هو رسولُ الله ﷺ، ومِن قَبله جميعُ أنبياء الله ورُسله، ومِن بعدهم جميعاً صحابةُ رسول الله ﷺ، ألم نسمعْ ربعيَّ بنَ عامرٍ رضي الله عنه، وهو جنديٌّ من جنود الإسلام، وليس قائداً من قُوّاده، يرسله سعدُ بن أبي وقّاص رضي الله عنه قبل وقعة القادسيّة رسولاً إلى رستُم قائدِ جيوش فارس وأميرهم، وهو يقول لرستم: «اللهُ ابتعثَنا لنُخرجَ مَن شاء مِن عبادةِ العبادِ إلى عبادة الله»[1]. وكان النّصر حليفَ جيش الإسلام الذي حقّق العبودية الصّادقة لله.

ومِن قبلُ قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فاروقُ هذه الأمّة وعملاقُ الإسلام: «إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، فأعزّنا اللهُ بالإسلام، فمهما نُطلب العزّةَ بغير ما أعزّنا اللهُ به، أذلّنا اللهُ»[2].

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٤٦٣/٢)، والبداية والنّهاية، لابن كثير (٦٢١/٩، ٦٢٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان (٢٣٧/١)، حديث (٢١٤)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٥٥/٤).

والإسلامُ: هو التّرجمةُ العمليّةُ الصّادقةُ للعبوديّة الخالصة لله.

وفي هذا المقام أقول: إنّ خيرَ ما يعصمُنا ويعصمُ النّاسَ جميعاً على اختلاف مِلَلهم ونِحَلِهم وأفكارهم ومذاهبهم من عبوديّة بعضهم لبعض، وخيرَ ما يحفظ لهم كرامتَهم على اختلاف مراكزهم ومناصبهم، وخيرَ ما يرفعون به جباهَهم فلا تنحني إلّا لله، ولا يذلّ بها أصحابُها إلا لله، وخيرَ ما يكفيهم عن الاستكبار في الأرض بغير الحقّ، والعلوّ فيها والفساد، وخيرَ ما يجعل قلوبَهم تستجيش حبّاً لله - الذي تتساوى أمامَه وعنده كلُّ رؤوس العباد، فلا فضلَ لأحدٍ على أحدٍ، ولا كرامةَ لأحدٍ على أحدٍ إلّا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه حقيقةٌ لا يعلم وجودَها في العبد إلا اللهُ الذي يمنع منعاً باتاً أن يدّعيَ أحدُ العبيد لنفسه أيّاً من خصائص الألوهية، فَيُنَصِّب لنفسه الحقَّ في سَنّ تشريعٍ يخالف شرعَ الله، أو يجعل نفسَه مصدراً للأمر والنّهي والسّلطان والتّشريع بغير سلطانٍ من الله - إنّ خيرَ ما يعصِمُ من ذلك كلّه هو العبوديّةُ الصّادقةُ الخالصةُ للهِ وكَفَى.

وذلك وفقَ التّوازن الدّقيق الذي بيّناه بين علوّ مقام الله بالأُلوهيّة، وكرامة الإنسان بالعبوديّة.

المبحث الرابع عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين عُبوديّةِ الإنسان المُطلَقةِ لله، ومقامِ الإنسانِ الكريمِ عندَ الله في الكون:

مما لا شكّ فيه أنّ مقامَ العبوديّة لله - كما أسلفنا آنفاً - يُعدّ مقامَ رفعةٍ للإنسان، رفعةٍ في دينه، رفعةٍ في أخلاقه، رفعةٍ في أقواله، رفعةٍ في أعماله؛ لأنّ ذلك كلّه متحقّقٌ لا محالةَ في إطار التّنفيذ العملي لحقيقة العبودية، وإذا كان الإنسان عبداً لله وحده في كلّ ما تقدّم فهو يحقّق أرفعَ حالات الكمال البشري، وأصدق حالات الوجود الإنساني.

وهذا المقامُ بهذه الصّفة كان سمةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في واقع حياته وسيرته كلّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هنا خاطبه ربّه بهذه الصفة عندما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النّجم: ١٠].

ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوةٌ حَسَنةٌ للمؤمنين من عباد الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومقامُ العبوديّة لله هو الذي جعله اللهُ غايةَ الوجود الإنسانيّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦]، فقيامُ النّاسِ جميعِهم بهذا المقام هو الذي يؤصّل ويحقّق عبوديّتَهم الصّادقة لله، ويعصمهم إذْ ذاك من عبودية بعضهم لبعض، وهو الذي يحفظ كرامتَهم، ويحقّق مفهوم العزّة بمعناها الإيجابيّ، فلا تنحني جباهُهم إلّا لمن خلقَهم ورزقَهم، وبيده سقمهم وشفاؤهم ومحياهم ومماتهم ومصيرهم، وعند ذلك تذبل أو تموت دوافعُ وأسبابُ الاستكبار في الأرض والعُلوّ والفساد، فالقلوب تستجيش حبّاً لله، وتقوى لله، وإخلاصاً لله، فتتساوى الرؤوس تحت مظلّة العبودية لله، وهي مرفوعةٌ بعزّة الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولا يمكن لأحدٍ أن يدّعي أنّه مصدرُ السّلطان، وأنّ إرادتَه شريعةٌ لبني الإنسان.

المبحث الخامس عشر: التّوازنُ بين مصدريّ العلم والمعرفة: الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ:

الحقُّ الذي يَسنُده الواقع في هذه القضية أنّ الإسلام لم يُغفل أيَّ واحدٍ من مصدري المعرفة: الوحي والعقل، بل أعطى كلَّ واحدٍ منهما اعتباره، ووضعه في مكانه الذي يستحقّه مع صاحبه ونصيره، ودرجته التي هي له، في توازنٍ دقيقٍ وطمأنينةٍ فائقةٍ، فلا قيمةَ في ذلك عنده لهوًى، أو جهلٍ، أو قصورٍ، أو تعسّفٍ، وسائقه إلى ذلك أمرٌ هو أصل الحقائق وأساسها: وهو أنه يردّ الأمرَ كلَّه إلى الله - في بدايته وخاتمته وإرادته وحكمته وتدبيره - ويردّ الخلقَ كلّه إلى الله وإرادته وحكمته وتدبيره، ومن هذا الخلق: الإنسانُ وعقلُه وفكرُه ومداركُه، وهو فردٌ في منظومة الكون وما فيه، ومِنْ ثَمّ فلا نجد تناقضاً البتة في أن يكون للكون بما فيه وللحياة بما فيها دورٌ في إمداد الإنسان بالمعرفة عن طريق «العقل»، ومفتاحُه في ذلك مداركه والحواسُّ المحيطة به، والكلّ من خلق الله، ومن عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أنّ الوحيَ من عند الله كذلك.

وإذا كان الوحيُ هو المصدرُ الوحيد الصّادق المجسّد للإسلام «قرآناً وسنةً»، والنّاطقُ الرسميُّ عمّن رضيه لنا ديناً، وهو اللهُ القائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فإنّه لا يمكن أن يخضع بذلك لأيّ هوًى، أو أن يتأثر بأيِّ تبعيّةٍ مذهبية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية، ومن ثَمّ فهو أعلى المصادر وأرقاها، ولكنه في الوقت ذاته لا يُلغي العقلَ[1]، إذْ كيف يمكن أن يكون، والعقلُ مفتوحٌ على صفحة الكون الرّحب - الذي هو كتابُ الله المنظورُ - يصبّ المعرفةَ فيه - كما يصبّها الوحيُ - ولكن مع فارقٍ جوهريٍّ واحدٍ: هو أنّ معارفَ الإنسان الواردة من الوحي يقينيّةٌ، وأمّا الواردة من الكون ظنيّةٌ قابلةٌ للخطأ كما للصّواب.

وهنا يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان متوافقاً في فطرته، ومن موقعه في منظومة هذا الكون، وهو كسائر أفراد وجنود هذا الكون خلقٌ من خلق الله، والكُلّ مُتلقٍّ عن الله، متمتعٌ بهداه.

وآياتُ الله في كتابه المجيد تبيّن وتؤكّد هذه الحقيقةَ، فلْنقرأْها بتمعُّنٍ وتدبّرٍ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشّورى: ١١].

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذّاريات: ٤٩].

(١) فكر ومباحث (ص٧٨).

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

ومع تلكمُ المنظومةُ الرّائعة نجد التّعاونَ والتّواؤم والتآنُس بين أفراد هذه المنظومة - ومنها الإنسان - مما يدلّ دلالةً واضحةً على وجود الوحدة والتّضامن الذي طبع اللهُ عليهما هذه المكوّنات، وهي تتّجه بدورها إلى تحقيق المنافع العاجلة للإنسان، بل وكأنّها تتنافس في رِفادة ما يغذّي سيادةَ وريادةَ هذا المِلك وتجعله يعيش بقوّةٍ وعافية ورفاهيّة وسعادة، وآياتُ القرآن كثيرةٌ هي التي تنطق بهذه الحقيقة الناصعة، نقتطف بعضاً من زهورها ورياحينها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٦٥ - ٦٩].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠ - ٨١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النّبأ: ٦ - ١٦].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وبناءً على ما سبق فإنّنا نحصُد نتيجةً مهمّةً في هذا المقام، وهي أنّ هذه العناصرَ المهمّةَ «الكونُ والحياةُ والأحياءُ» تشكّل رافداً قوياً من روافد المعرفة لهذا الإنسان - بعد وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بل إنّ الإنسانَ نفسَه يشكّل مصدراً من مصادر المعرفة لنفسه، ألم يقلِ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات: ٢٠، ٢١].

وضرورةُ التّلقّي عن الوحي هي أهمُّ الضّروريات؛ لأنّها تمثّلُ النّبعَ الصّادقَ الصّافيَ الثّرّ، وهي المهيمنةُ على سائر مصادر المعرفة، جسّد لنا هذه الحقيقة آياتٌ كثيرةٌ، ومنها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٢، ٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وكذلك آياتٌ كثيرة تفتح معارفَ في صفحات الكون نراها ونشعر بها، بل نتمتّع بها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشّورى: ٣٢، ٣٣].

وكذلك فإنّ العقل - كما ذكرنا - من مصادر المعرفة للإنسان يتدبّر حقائقَ الوحي وحقائقَ الكون، وحقائقَ الحياة، فيتوصّل بها إلى الإيمان اليقينيّ بحقيقة وجود الله ووحدانيته، وحقيقةِ القرآن وإمامته، ورسالةِ محمدٍ ﷺ ونبوّته، واليومِ الآخر وهيبته.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النّساء: ٨٢].

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهكذا تقوم هذه العناصرُ النَّشِطةُ في قائمة الوجود «الكونُ - الحياةُ - الأحياء: ومنها الإنسانُ» كمصادرَ مهمّةٍ من مصادر المعرفة لهذا المخلوق البشري «الإنسان» - بعد وحي الله الذي أعطى كلَّ شيء خلْقَه ثم هدى - بتناسقٍ وتوازنٍ جِدُّ دقيق، يحقّق تصوّراً صحيحاً عدْلاً في الإدراك البشريّ لكلّ ما يجول في تصوراته من حقائقَ وسننٍ تنطبع كلّها بطابع الصِّبغة الخالصة لله، إنّها صِبغةُ اليقين الجازم بدَيمومة الإله الأحد، الحيّ، القيّوم، الصّمد، وأعتقد جازماً أنّ هذه أعظمُ نتيجةٍ تلدها حقيقةُ التّعانق الرّائع بين أفراد المنظومة الفذّة «الكون، الحياة، الإنسان» مع ما تتّسم به جميعها من تغيّر مستمرٍّ، وهذا أمرٌ ينسجم مع أعظم حقيقة في الوجود وهو أنّ الجميع من خلْق اللهِ لا ريبَ فيه.

وهناك أيضاً أمرٌ جليلٌ نستشفه ممّا سبق: تغيّر عناصر الوجود يحكمه سننٌ ثابتةٌ وناموسٌ ثابتٌ، يتمّ وفقه وبه ذلك التّغير والتبدّل، وهذا بدوره يُدلي بحقيقة ساطعة، وهي أنّ الأمور لا تسير سبَهْلَلا، والحياة لا تمضي جزافاً، والإنسان لم يُخلق عبثاً، وإنّما هو التّدبير الإلهيُّ: تكليفٌ وابتلاءٌ، ثمّ مسؤوليةٌ، ثمّ جزاءٌ، والمصيرُ بيد الله وإلى الله.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وهكذا يقوم الوحيُ الإلهيُّ على ساقٍ قويّةٍ، كمصدرٍ أساسٍ للمعرفة الإنسانية مع حفاوةٍ منه بالعقل الذي ميّز الله به الإنسان، مع ما يتّسم به من إدراكٍ له دورُه في حياة الإنسان وتصوّراته الصّحيحة عن «الكون والحياة والإنسان»، وهذا التّوازن والتّواؤم والتّكامل والتّميّز في الأداء الوظيفيّ لكلّ عنصرٍ من تلك العناصر نجده واضحاً جدّاً - كما رأينا - في دين الله، في وحي الله، في كتاب الله، في كون الله، مما لا نجده حقيقةً في أيّ تصوّرٍ يَنِدُّ عن هذا التّصوّر الإسلاميّ، سواء أكان من تحريفٍ وقع من البشر لدينٍ أنزله اللهُ عليهم، أم لدينٍ نَسَجَتْ خيوطَه اليدُ البشريةُ الضّعيفة النّاقصة.

المبحث السادس عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مصدريّ العلم والمعرفة «الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ»:

إنّ مِن أُولى الحقائق التي يخطّها هذا التوازن أنّه يرسُم خريطةَ التّفكير الإنسانيّ والعواطف والوجدانيّات القلبيّة الإنسانيّة وفق منهجٍ معتدلٍ يريح النّفسَ، ويسكُب فيها الطُّمأنينةَ والسّكينةَ، ذلك أنها أصبحت تؤمن إيماناً جازماً أنّ الأمرَ كلَّه لله: إرادةً، وتدبيراً، وحكمةً، وأمراً، ونهياً، ومَرَدَّ الخلق كلّه إلى إرادة الله وتدبيره وحكمته، وعندما يُستصحَبُ مع هذا الإيمان إيمانٌ آخر بأنّ وحي الله لا يمكن أن يخضع لهوًى أو يتأثّر به، فإنّ صاحب هذا الإيمان يسارع لينزع من نفسه أيّ هوًى يخالف دينَ الله، وشرعَ الله، وأمرَ الله، وليخضع بهواه لما جاء عن الله قرآناً كريماً، وسنّةً نبويّةً شريفةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [النّساء: ٦٥].

وعند ذلك أيضاً لا يمكن أن يؤلّه العقلَ أو يعطيَه مساحةً لا يستوعبها فكرُه وإدراكُه؛ لأنّ ذلك استهزاءً به وسُخريةً منه، ولكنّه يحترم العقلَ ويبجّله عندما يُعمله في حدود إمكانياته وقدراته، وهنا سيرقى به إلى معارفَ توصله إلى حقائق جليّة عن خالقه وعن الكون والحياة، وبذلك يُدرك دوره ورسالته في الحياة كعنصرِ فعّالٍ نشِطٍ، يتمتّع بالتّلقّي عن الله، كما يتمتّع بهُداه.

المبحث السّابع عشر: التّوازنُ في صلة العبد بخالقه ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ بالله:

هذا الأصلُ من أصول التّوازنات الدقيقة، والذي يُعَدّ صِبغةً مهمّةً في حياة الإنسان، وذلك أنّ الكونَ والحياةَ والإنسانَ كُلُّ أولئك مخلوقٌ لله، فلا بدّ إذْ ذاك من أن تظهر فيهم صفاتُ الله الفاعلة المدبِّرة، ومن صفات الله جَلَّجَلَالُهُ ما يهزّ الأفئدة، ويزلزل الأركان، ويذهب بالجَنان، سطّرها لوحُه المسطور في قرآنه المجيد، ولوحُه المنظور في كونه المعمور؛ ليتفاعل معها الإنسان ويرى مدى قدرةَ الله، وعظمةَ الله، وجبروتَ الله، وكبرَ الله، وانتقامَ الله، فينتبه ويتحفّز ويحذر، ويحسب ألفَ ألف حساب، ففي كتاب الله المسطور نقرأ مِنْ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقر: ٢٣٥].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٩، ٣٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمّل: ١١ - ١٤].

وغيرُها آياتٌ قرآنيةٌ كثيرةٌ، تعرض صور العذاب الربّاني في مشاهد القيامة وأحوالها وأهوالها، وهي مُرعبةٌ مُفزعةٌ.

ونظيرُ ذلك آياتٌ قرآنيةٌ تَسكُبُ في قلب قارئها الطّمأنينة والرّاحة والأمل برحمة الله وعفوه وفضله وإحسانه، ومن هذه الآيات قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ٦٢].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: ٢٨].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغابن: ١٦].

وآياتٌ كثيرةٌ كثيرةٌ هي التي تفتح أمامَ الإنسان منافذ الأمل الفسيح برحمة الله، وعفو الله، وفضل الله وإحسان الله، لا مجال هنا لسردها، ولكنِ اقْرأْها وتدبّرْها فستجد فيها بُلغتَكَ وشفاءكَ.

المبحث الثّامن عشر: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازنِ ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ باللهِ:

مراعاة هذا التوازن بقطبيه، وتحقيقه في واقع الإنسان، يجعله يسير في حياته بخطىً ثابتةٍ، وبصيرةٍ نافذةٍ، وقلبٍ حيٍّ، وعقلٍ رشيدٍ، ويستشعر بمدد الله له ورعايته له، ورحمته وإحسانه به وفضله عليه، ويوقن أنّ الله لا يريد أن يوقعه في حرجٍ ولا مشقّةٍ ولا عَنَتٍ، ولا يريد به انتقاماً ولا إذلالاً - تعالى اللهُ عن كلّ ذلك علُوّاً كبيراً - وهو في الوقت ذاته لا يغفل عن خالقه، ولا يستهين بدينه، ولا يستهتر بأحكامه.

هذا التّوازن الذي نراه ونلمسه في واقع حياة المسلم، لا نراه متحقّقاً ولا موجوداً أصلاً في أيِّ تصوّرٍ، سواء أكانَ لدينٍ سماويٍّ حرّف فيه أهلُه وزوّروا حقائقه كما فعل اليهودُ والنّصارى، أم لملّةٍ أو نِحلةٍ أو فلسفةٍ اخترعها البشر، ونسجوا خيوط أحكامها من ذوات عقولهم التي مهما سَمَتْ فهي في واقعها قاصرةٌ محدودةُ الأفق والقُدرات، وكما هو الحال عند الفرس الوثنيين، أو الإغريقيين أو أرسطو وأفلاطون وسقراط، أو غيرهم من الماديّين الملحدين.

فالإلهُ كما ترسمه تصوّراتُ بني إسرائيل المنحرفة إلهٌ خاصٌّ بهم دون غيرهم، فإذا وجد منهم عبادةً متوجّهةً لآلهة غيره ثارَ وغضب ودمّر وانتقم، ثم إذا آبَ إليه شعبُه رضي وأقلع عن غضبه وتدميره، وندم على ما فعله بهم[1].

أمّا تصوّرات النّصرانية الكَنَسية، فلم تكن أحسنَ حالاً من زميلتها اليهودية، بل كانت أشدّ وطئاً وأسوأ قيلا، فقد تلبّستِ النصرانيةُ في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، أو هذه تلبّست بتلك، حيث كانت الدولةُ الرومانيّةُ الوثنيّةُ في أشدّ وثنيّتها وانحلالها، فتسلّلت النّصرانيةُ فيها، وغزتْ أوصالَها حتّى استطاعت أن تولّي قسطنطين إمبراطوراً في سنة (٣٠٥م)، حتى تمكّنتِ النّصرانيةُ من أن تكون دينَ تلك الإمبراطورية،

(١) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٥٠٢/١).

ولكنّ العجبَ العُجاب أنّ النّصرانيةَ نفسَها أصبحتْ خاضعةً للوثنيّة الرومانيّة، وهذا ما صوّره لنا الكاتب الأمريكي: «درابر» في كتابه: «الصّراع بين الدِّين والعلم» عندما قال: «دخلتِ الوثنيّةُ والشّركُ في النّصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلّدوا وظائفَ خطيرةً، ومناصبَ عاليةً في الدّولة الرّومانية بتظاهرهم بالنّصرانية، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدّين، ولم يُخلصوا له يوماً من الأيام، وكذلك كان قسطنطين، فقد قضى عمرَه في الظّلم والفُجور، ولم يتقيّد بأوامر الكنيسة الدينية إلّا قليلاً في آخر عمره سنة ٣٣٧م»[١].

وشهادةُ حقٍّ ينطق بها هذا الكاتبُ، فيقول: «إنّ الجماعةَ النصرانيّةَ، وإن كانت قد بلغت من القّوة بحيث ولّت قسطنطين الملك، ولكنّها لم تتمكّن من أن تقطع دابر الوثنيّة، وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت بمبادئها، ونشأ من ذلك دينٌ جديدٌ تتجلّى فيه النّصرانيةُ والوثنيةُ سواءً بسواء... هنالك يختلف الإسلامُ عن النّصرانية، إذ قضى على منافسه الوثنية قضاءً تامّاً، ونشر عقائده خالصةً بغير غبش»[٢].

والواقع يشهد بأن هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوّهة التي فقدت روحها وجمالها لم تستطع أن تغيّر من سيرة الروم، وأن تبعث فيهم حياة جديدة، حياة دينية نقية طاهرة تجمع بين الخوف من الله والأنس به سبحانه، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلّها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية روما الوثنية[٣].

وفي المقابل نجدها تقوم في سيرتها على إدراك ماديٍّ محضٍ للحياة والحضارة، وإن كانت مادّتهم قد هُذّبت بذوقٍ عقليٍّ، ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحيّة[٤].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبوالحسن الندوي (ص١٦٦، ١٦٧)، وكواشف زيوف، د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ص٣٤، ٣٥).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبوالحسن الندوي (ص١٦٦، ١٦٧)، وكواشف زيوف، د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ص٣٤، ٣٥).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص١٦٥) بتصّرف.

(٤) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد (ص٣٨، ٣٩).

ومن خلال ما تقدّم يمكن أن نقول: إنّ الأساطير الوثنية والتّصورات الفلسفية قد أغرقت النصرانيةَ في مستنقعٍ من التّصورات والعقائد الفاسدة التي لا يقبلها مَن به مِسكةُ عقلٍ بشريٍ، وابتعدت بأبنائها عن التّوازن والاعتدال وأخذت بأيديهم لطرفين كلاهما مُرٌّ، إفراط أو تفريط، فكيف يمكنهم بعد ذلك أن يدّعوا بأنهم أصحابُ عقيدةٍ صحيحةٍ بالله؟!

وبعد هذا البيان - ومن منطق التّوازن الذي نحن بصدده - نصل إلى نتيجةٍ حتميّةٍ لازبةٍ لامناصَ منها، وهي أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاء برحمته وفضله وإحسانه على البشرية أن ترسوَ في نهاية المطاف على دينٍ خاتمٍ حقٍّ، ليس فيه أيُّ تدخّلٍ بشريٍّ متهوّرٍ أحمقٍ، يُحمِّل ما لا يحتملُ، ويأتي بتصوّراتٍ ومبادئ وعقائدَ نسجتْها أَخْيِلَةٌ بشريةٌ أُسطوريةٌ، تتلبّس بخلافاتٍ: سياسية، وعنصرية، وطائفية، وتُلبِسُها بالأساطير الوثنيّة والتصوّرات الفلسفيّة.

تنزّه اللهُ الأحدُ أن يكون دينُه القويمُ على تلك الشّاكلة المهترئة المتخبّطة، بل هو كما قال جَلَّجَلَالُهُ في وصف دينه: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿**ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الرّوم: ٣٠].

﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ**﴾ [الرّوم: ٤٣]، وصدقَ اللهُ العظيمُ.

فهرس المصادر والمراجع

- **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**: للشيخ أحمد بن محمد البنّا، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل، طبع عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- **الأدب المفرد**: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- **أساس البلاغة**: محمود بن عمر جار الله الزمخشري، القاهرة، دار الكتب، الطبعة الأولى (١٣٤١هـ - ١٩٢٢م).
- **الإسلام على مفترق الطرق**: محمد أسد، ترجمة: د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين.
- **أصول الفكر التّربوي في الإسلام**: عباس محجوب، دمشق، دار ابن كثير (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- **الإغريق بين الأسطورة والإبداع**: ثروة عكاشة، دار المعارف (١٩٧٨م).
- **أقانيم النّصارى**: د. أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ).
- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: د. ناصر عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض.
- **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي، وفؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين، وعلي عبد الساتر، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، وطبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، مراجعة وتنقيح: الشيخ خالد محمد محرم (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- **تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة**: يوسف بديوي، ومحمد محمد قاروط، دمشق، دار المكتبي، الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

- **تفسير الزمخشري - الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ الطبع.
- **تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: للقاضي أبي محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بمكناس، طبع دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- **تفسير ابن كثير - تفسير القرآن العظيم**: للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، طبع دار المعرفة، بيروت (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).
- **تفسير أبي السعود - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: للعلّامة أبي السعود ابن محمد العمادي، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ طبع.
- **تفسير الآلوسي - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، طبع دار الفكر، دون تاريخ الطبع.
- **تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد عبد الحليم البردوني، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- **التّفكير الفلسفي في الإسلام**: د. عبد الحليم محمود، طبع دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- **التوقيف على مهمّات التعاريف**: محمد عبد الرّؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، بيروت، دار الفكر المعاصر (١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م).
- **جواب المسيحية على الإلحاد الشيوعي**: د. عزت زكي، المؤلف: رومبراند رتشارد، دون تاريخ الطبع.
- **درء تعارض العقل والنقل**: لشيخ الإسلام ابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الحادية عشر (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

- **دراسات في علم اللاهوت**: بولس عطية بسليوس، المساهمون: تاوضروس، مورس، محرقي، بنيامين، منشور (٢٠٠١م).
- **دور التربية في حماية الأبناء من الإرهاب**: د. سارة عيادة الخمشي، كلية الخدمة الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، دون تاريخ الطبع.
- **الرّوض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**: لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، ومعه السيرة النبوية لابن هشام، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، دون تاريخ الطبع.
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن قيم الجوزية، طبع: المطبعة المصرية ومكتبتها، دون تاريخ الطبع.
- **سنن الترمذي**: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت: ٢٩٧هـ)، بتحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة. وبتحقيق وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م)، وبتحقيق: إبراهيم عطوة عوض، طبع: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م).
- **سنن أبي داود**: لأبي داود سليمان الأشعث السجستاني الأزدي، ومعه كتاب: «معالم السنن» للخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م).
- **سنن ابن ماجه**: للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ الطبع.
- **السّيرة النبوية = البداية والنّهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي، والأستاذ فؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين، وعلي عبد الساتر، طبع دار أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبع دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ- ١٩٧٨ م).

- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم**: لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض.
- **شرح العقيدة الطحاوية**: للإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- **صحيح البخاري بشرح فتح الباري**: محمد بن إسماعيل البخاري أبي عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، شرح أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، إشراف: محب الدين الخطيب، ترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون تاريخ الطبع، وطبع المطبعة البهية المصرية (١٣٤٨هـ).
- **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: المكتبة الإسلامية، إستانبول، دون تاريخ الطبع.
- **الصراع في الوجود**: بولس سلامة، دار المعارف (١٩٩٨م).
- **العروة الوثقى**: للشيخ جمال الدين الأفغاني، نشر دار العرب للبستاني، دون تاريخ الطبع.
- **العقيدة الإسلامية وأسسها**: د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، طبع دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- **العودة إلى الإيمان**: د. هنري لنك، ترجمة: د. ثروت عكاشة، طبع ونشر دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة (١٩٦٤م).
- **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، طبع دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ طبع.
- **فِكر ومباحث**: للشيخ علي الطنطاوي، طبع مطابع دار المنار بدمشق، نشر وتوزيع المكتبة الأموية، الطبعة الأولى (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م).
- **قراءة في الفلسفية العربية لنيتشة**: نضال البيابي «آفاق»، مركز آفاق للدراسات والبحوث، إدارة التحرير (٢٠١٠/١٠/٣٠م).

- **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**: للشيخ نديم الجسر، منشورات ومطابع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م).
- **أبو القاسم الشابي**: ريتا عواد، المؤسسة العربية للدار والنشر، بيروت (١٩٨٣م).
- **القاموس المحيط**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).
- **الكامل في التاريخ**: أبي الحسن علي بن أبي محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ)، تعليق: لجنة من العلماء، طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
- **الكتاب المقدس ونظريات العلم الحديث**: ترجمة: نظير عريان ميلاد، مكتبة الكتب المسيحية، المكتبة القبطية الأرثوذكسية، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**: عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، طبع ونشر: دار العلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ- ١٩١٩م).
- **لسان العرب**: لابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، دون تاريخ الطبع.
- **الله يتجلى في عصر العلم**: مجموعة من العلماء، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان.
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: علي أبو الحسن بن عبد الحيّ بن فخر الدين النووي، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **محمد مندور شيخ النقاد في الأدب الحديث**: د. محمود السّمرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (٢٠٠٦م).
- **مختار الصّحاح**: محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت (١٩٨٩م).
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة عام (١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م).
- **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ الطبع.

- **المستطرف في كل فن مستظرف**: لبهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادق، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٩م).
- **معجم البلدان**: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، طبع: دار صادر ودار الفكر، بيروت (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م).
- **المعجم الوسيط**: أخرجه: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزّيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا.
- **ملحدون محدثون ومعاصرون**: د. رمسيس عوض، مؤسسة الانتشار العربي (١٩٩٨م).
- **المِلَل والنِّحَل**: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبع: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م).
- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. زينب إبراهيم القاروط، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).
- **المنقذ من الضلال**: لأبي حامد الغزالي، مع «أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي» بقلم الدكتور: د. عبد الحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مطبعة حسان بالقاهرة، دون تاريخ الطبع.
- **موقف البشر تحت سلطان القدر**: مصطفى صبري، طبع: دار الهجرة، بيروت، دمشق، دون تاريخ الطبع.
- **النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن**: د. محمد عبد الله دراز، طبع دار القلم، بيروت، دمشق، الطبعة الخامسة (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي، ومحمود محمد الطّناحي، بيروت، المكتبة العلمية (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م).
- **نيتشة**: ترجمة جورج ميخائيل ديب، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **نيتشة**: د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، طبعة (١٩٣٩م).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٩٩
مقدمة عامة	١٠٠
مشكلة البحث	١٠٠
الهدف من الدراسة وأهميتها	١٠٠
الدراسات السابقة	١٠١
منهج البحث	١٠١
خطة البحث	١٠١
المبحث الأول: تعريفُ التّوازنِ لغةً واصطلاحاً	١٠٣
المطلب الأول: تعريف التّوازنُ لغةً	١٠٣
المطلب الثاني: تعريف التّوازنُ اصطلاحاً	١٠٣
المبحث الثاني: تعريفُ المنهج لغةً واصطلاحاً	١٠٣
المطلب الأول: التّعريفُ اللّغويُّ	١٠٣
المطلب الثاني: التُعريفُ الاصطلاحيُّ	١٠٣
المبحث الثالث: تعريفُ القرآنِ لغةً واصطلاحاً	١٠٤
المطلب الأول: تعريفُ القرآنِ لغةً	١٠٤
المطلب الثاني: تعريفُ القرآنِ اصطلاحاً	١٠٥
المبحث الرابع: تعريفُ الأثرِ لغةً واصطلاحاً	١٠٥
المطلب الأول: تعريفُ الأثرِ لغةً	١٠٥
المطلب الثاني: تعريفُ الأثرِ اصطلاحاً	١٠٦
المبحث الخامس: تعريفُ التّربيةِ لغةً واصطلاحاً	١٠٦
المطلب الأول: تعريفُ التّربيةِ لغةً	١٠٦
المطلب الثاني: تعريفُ التربيةِ اصطلاحاً	١٠٦
المبحث السّادس: أهميةُ المنهج القرآنيّ	١٠٧
المبحث السّابع: التّوازنُ في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة	١٠٨

الموضوع	الصفحة
المبحث الثامن: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازن في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة	١١٥
المبحث التاسع: التّوازنُ بين طلاقةِ المشيئة الإلهية وثباتِ السُّنن الكونيّة	١١٦
المبحث العاشر: الآثارُ التّربوية المترتّبة على التّوازن بين مشيئة الله المُطْلَقة، والسُّنن الكونيّة الثّابتة	١٢٠
المبحث الحادي عشر: التّوازنُ بين مفهوم القَدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ	١٢١
المبحث الثاني عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مفهوم القدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ	١٢٥
المبحث الثالث عشر: التّوازنُ بين عبوديةِ الإنسان المطلَقة لله، ومقامِ الإنسان عند الله في الكون	١٢٩
المبحث الرابع عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين عُبوديّةِ الإنسان المُطلَقةِ لله، ومقامِ الإنسانِ الكريمِ عندَ الله في الكون	١٣٤
المبحث الخامس عشر: التّوازنُ بين مصدريّ العلم والمعرفة: الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ	١٣٥
المبحث السادس عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مصدريّ العلم والمعرفة «الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ»	١٤١
المبحث السّابع عشر: التّوازنُ في صلة العبد بخالقه ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ بالله	١٤٢
المبحث الثّامن عشر: الآثارُ التّربويّةُ المترّتبةُ على التّوازنِ ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ باللهِ	١٤٤
فهرس المصادر والمراجع	١٤٧
فهرس الموضوعات	١٥٣

دراسة حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أوَّل ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق

د. زينب بنت عبد المحسن العبَّاد البدر

مُلخّصُ البَحْث

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه الكريم، وقيَّض له من العلماء في كل زمان من ضبطوا عدد آياته، ونزوله المكاني والزماني، وما نزل منه أولاً وما نزل آخراً، وقد اشتهر عند أهل العلم أن أول نازل من القرآن الكريم على الإطلاق صدر سورة العلق، لكن يُشكل عليه ما روي في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن أول نازل صدر سورة المدثر، ولهذا فقد وجَّه العلماء قول جابر بعدة توجيهات، وفي هذا البحث قامت الباحثة بتتبع ألفاظ حديث جابر وطرقه، وجمع أقوال العلماء في توجيهه، ومناقشة هذه الأقوال وبيان الأقرب منها إلى الصواب.

ومما قيل في توجيهه: أن جابراً إنما قال ذلك باجتهاده، وهذا غير مسلّم؛ لأن هذا الأمر مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولتصريح جابر بأن هذا غاية ما سمعه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حول بدء الوحي. كما وجّهه بعضهم بعدة توجيهات أخرى مدارها على أولية مخصوصة، بينما حديث جابر صريح في أن المقصود الأولية المطلقة.

وقد توصلت الباحثة إلى أن الأقرب إلى الصواب - والله أعلم - أن جابراً سمع آخر حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خبر بدء الوحي ولم يسمع أوله، فحدث بما سمع، بينما سمعت عائشة أوله فأخبرت به، فقولها مقدم على قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المقدمة

الحمد لله منزل الكتاب تبصرة وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على من أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، نبينا محمد وعلى آله وصحبه البررة الأنجاب، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الحساب، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن الله تعالى قد تكفَّل بحفظ كتابه الكريم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظ أصله ولوح كتابته ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وحفظه أثناء نزوله على نبينا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن تتعرض له شياطين الإنس والجن بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه فيه، لا بزيادة ولا بنقص ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]، وقيَّض له في كل عصر وحين حفَظَةً مهَرةً يحفظونه في الصدور مع حفظه في السطور ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وفي الحديث القدسي: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»(١)، فهو محفوظ في الصدور، لا يتطرَّق إليه الذهاب ولا النسيان، بل هو باقٍ على مرِّ الأزمان.

ومن تمام حفظ الله لكتابه أن قيَّض له من العلماء في كل زمان مَن ميزوا ناسخه ومنسوخه، وما نزل منه أولاً وما نزل آخراً، وضبطوا عدد آياته، ونزوله المكاني والزماني. عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلمُ فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٢٤١)، حديث رقم (٢٨٦٥).

تناله المطايا لأتيته»[1]. وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفتُ بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل»[2].

وقد اشتهر عند أهل العلم أن أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق صدر سورة العلق، مستدلين لذلك بعدة نصوص، أقواها وأصرحها دلالة حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[3]: «أول ما بدئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة[4] فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١ - ٥]، فرجع بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده، فدخل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨٩٧)، حديث رقم (٥٠٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١٠٨٢)، حديث رقم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٤/٣) رقم (٢٩٧٠).

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق التيميَّة، وأمها أم رومان بنت عامر، أم المؤمنين، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الهجرة وبنى بها بالمدينة بعد منصرفه من وقعة بدر، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه، توفيت في السابع عشر من شهر رمضان سنة (٥٨هـ).
يُنظر في ترجمتها: معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣٢٠٨/٦)، والاستيعاب لابن عبد البر (١٨٨١/٤)، والإصابة لابن حجر (٤٣١/٨).

(٤) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشيَّة الأسديَّة، زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول من صدقت ببعثته مطلقاً، كانت تدعى قبل البعثة الطاهرة، وأمها فاطمة بنت زائدة، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة بخمس عشرة سنة، وولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم. توفيت سنة عشر من البعثة، ولها (٦٥) سنة.
يُنظر في ترجمتها: معرفة الصحابة (٣٢٠٠/٦)، والاستيعاب (١٨١٧/٤)، والإصابة (٩٩/٨).

على خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى[1] ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصرَّ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أو مُخرِجيَّ هم؟»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[2].

إلا إنه قد جاء من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3] ما يتعارض مع هذا الحديث؛ فقد أخرج الشيخان[4] في صحيحيهما.....

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، كان قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق، وقرأ الكتب، وكانت خديجة تسأله عن أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول لها: ما أراه إلا نبيّ هذه الأمة الّذي بشر به موسى وعيسى، اختلف في إسلامه، والأظهر أنه مات قبل الرسالة، وبعد النبوة.
يُنظر في ترجمته: أسد الغابة لابن الأثير (٤١٦/٥)، والإصابة (٤٧٤/٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ (١) حديث رقم (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨٠) حديث رقم (٢٥٢).

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن صاحبه، شهد العقبة، والمشاهد كلها، إلا بدراً وأحداً. توفي سنة (٧٣هـ) وله (٩٤) سنة، وكان آخر مَن مات بالمدينة من الصحابة.
يُنظر في ترجمته: معرفة الصحابة (٥٢٩/٢)، والاستيعاب (٢١٩/١)، والإصابة (٥٤٦/١).

(٤) البخاري: وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم، أبو عبد الله البخاري، جبل الحفظ، وإمام الدنيا في فقه الحديث، سمع أبا عاصم، ومكي بن إبراهيم، وعبيد الله، والفريابي، وغيرهم كثير، وروى عنه الترمذي، وابن خزيمة، والفربري، والمحاملي، وخلق غيرهم، من مؤلفاته: الصحيح، والتاريخ الكبير والصغير، وخلق أفعال العباد، وغيرها. توفي بقرية خرتنك غرة شوال من سنة (٢٥٦هـ)، وله (٦٢) سنة.

عن يحيى بن أبي كثير[1]، سألتُ أبا سلمة بن عبد الرحمن[2] عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، قلتُ: يقولون: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فقال أبو سلمة: سألتُ جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن ذلك، وقلتُ له مثل الذي قلتَ، فقال جابر: «لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماء بارداً» قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٣]»[3].

ونظراً لأهمية هذا الموضوع، فقد رغبت في دراسة حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بتتبع ألفاظه وطرقه الواردة في الصحيحين، وجمع أقوال العلماء في توجيهه، وما روي عنهم في الجمع بينه وبين حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومناقشة هذه الأقوال وبيان الراجح منها، ومن الله سبحانه أستمدُّ العون والتوفيق.

يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٣٩١/١٢)، وتهذيب التهذيب (٤٧/٩)، وطبقات الحفاظ (٢٥٢).

ومسلم: وهو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسن النيسابوري، ولد بنيسابور، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، روى عن قتيبة، وعمرو الناقد، وابن المثنى، وغيرهم، وروى عنه الترمذي، وأبو عوانة، وابن صاعد، وخلق غيرهم، من مؤلفاته: الصحيح، وأوهام المحدثين، والكنى والأسماء، توفي سنة (٢٦١هـ).

يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥٥٧/١٢)، وتهذيب التهذيب (١٢٦/١٠)، وطبقات الحفاظ (٢٦٤).

(١) يحيى بن أبي كثير الطائي مولاهم، أبو نصر اليمامي، واسم أبي كثير صالح بن المتوكل، روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي قلابة الجرمي، وعمران بن حطان، وغيرهم، وروى عنه ابنه عبد الله، ومعمر، والأوزاعي، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٥٩٦): ثقة، ثبت، لكنه يدلّس ويرسل، توفي سنة (١٣٢هـ).

يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٧/٦)، وتهذيب التهذيب (٢٦٨/١١)، وطبقات الحفاظ (٥٨).

(٢) أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: إسماعيل، وقيل: اسمه وكنيته واحد، روى عن أبيه، وعائشة، وجابر، وغيرهم، وروى عنه ابنه عمر، وعروة، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٦٤٥): ثقة مكثر، توفي بالمدينة سنة (٩٤هـ)، وله (٧٢) سنة.

يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٨٧/٤)، وتهذيب التهذيب (١١٥/١٢)، وطبقات الحفاظ (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر (٨٧٦)، حديث رقم (٤٩٢٢) ورقم (٤٩٢٣) ورقم (٤٩٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨١)، حديث رقم (٢٥٧) ورقم (٢٥٨).

أسباب اختيار الموضوع:

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع الأسباب الآتية:

- أهمية هذا الموضوع في تحرير القول في أول نازل من القرآن، وبيان أولى ما قيل في توجيه قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه.
- كون أقوال العلماء في مناقشة حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبثوثة منثورة في كتبهم لم يسبق جمعها في بحث مستقل ومناقشتها واختيار الراجح منها.
- كون غالب الدراسات التي ناقشت حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سلطت الضوء على مضمونه دون مناقشة لألفاظه وطرقه والاستدلال من خلالها على الراجح في توجيهه، فرغبت في دراستي هذه أن أتناول بالدراسة جميع هذه الجوانب.

الدراسات السابقة:

إن مادة هذا البحث مبثوثة في كتب التفسير وعلوم القرآن وشروح الحديث، بين اختصار وتطويل[1]، ولم أقف على بحث خاص بهذا الموضوع أفرده بالدراسة وجمع أطرافه، ولمَّ شعثه، وناقش الأقوال فيه، وبيَّن الراجح منها وسبب رجحانه، وهذا ما آمل أن أكون قد وفقت إليه في هذا البحث.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: وتشمل:

أهمية الموضوع

الدراسات السابقة

خطة البحث

(١) ومن الدراسات الحديثة التي أشارت إلى هذا الموضوع وناقشته: كتاب المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبو شهبة (١١٢ - ١١٤)، وكتاب دراسات في علوم القرآن لفهد الرومي (٢٥٠ - ٢٥٢)، وكتاب المحرر في علوم القرآن لمساعد الطيار (٧٩ - ٨١)، وغيرهم.

المبحث الأول: في ذكر طرق وألفاظ حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثاني: في أقوال العلماء في توجيهه.

المبحث الثالث: في مناقشة هذه الأقوال، وبيان الراجح منها.

الخاتمة: وضمنتها نتائج البحث.

وذيلت البحث بفهرس للمصادر، وآخر للموضوعات.

والله تعالى أسأل أن يوفقني للسداد، ويجنبني الخطأ والزلل، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه أعظم مأمول وخير مسؤول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول
في ذكر طرق وألفاظ حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

روي هذا الحديث في الصحيحين من طريقين:

من طريق يحيى بن أبي كثير.

ومن طريق محمد بن شهاب الزهري[1].

ولفظه من طريق يحيى يفيد أنه سأل أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل، وراجعه في جوابه، فأجابه أبو سلمة بذكر حديث جابر، وأشار إلى مراجعته إياه.

أما لفظه من طريق الزهري، فيحتمل أنه سمع هذا الحوار الذي دار بين يحيى بن أبي كثير، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، أو أن أبا سلمة حدثه بهذا الخبر، دون أن يذكر مراجعته لجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أولاً: لفظه من طريق يحيى بن أبي كثير:

وقد جاء عنه في الصحيحين من ثلاث روايات:

الأولى: رواية علي بن المبارك[2] قال: عن يحيى بن أبي كثير: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن ذلك،

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري، أبو بكر المدني، كان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار، روى عن سهل بن سعد، وأنس بن مالك، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وغيرهم كثير، وروى عنه أخوه عبد الله، والأوزاعي، ومعمر، وعقيل، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٥٠٦): الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه. توفي بشغب سنة (١٢٤هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٣٢٦/٥)، وتهذيب التهذيب (٤٤٥/٩)، وطبقات الحفاظ (٤٩).

(٢) علي بن المبارك الهنائي البصري، روى عن أيوب السختياني، وهشام بن عروة، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم، وروى عنه أبو نعيم، ووكيع بن الجراح، ويحيى القطان، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٤٠٤): ثقة.
يُنظر في ترجمته: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢٠٣/٦)، وتهذيب التهذيب (٣٧٥/٧).

وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماء بارداً، قال: فدثروني وصبوا علي ماء باردا، قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»(١).

الثانية: رواية حرب بن شداد(٢) قال: حدثنا يحي قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: أنبئت أنه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: أنبئت أنه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت، فاستبطنت الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً، وأنزل علي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾»(٣).

---

(١) أخرج البخاري الرواية من طريقة في كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدثر (٨٧٦)، حديث رقم (٤٩٢٢)، وأخرجها مسلم من طريقه - مختصرة بعد رواية الأوزاعي - في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨٢) حديث رقم (٢٥٨)، المثبت لفظ البخاري.

(٢) حرب بن شداد اليشكري، أبو الخطاب البصري، حدث عن شهر بن حوشب، والحسن البصري، ويحي بن أبي كثير، وغيرهم، وحدث عنه عبد الرحمن بن مهدي، وأبو داود، وعبد الصمد بن عبد الوارث. قال ابن حجر في التقريب (١٥٥): ثقة، توفي سنة (١٦١هـ).

يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩٤/٧)، وتهذيب التهذيب (٢٢٤/٢).

(٣) أخرج البخاري الرواية من طريقة - مختصرة بعد رواية علي بن المبارك - في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (٨٧٧) حديث رقم (٤٩٢٣)، ثم أوردها كاملة في باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (٨٧٧) حديث رقم (٤٩٢٤).

الثالثة رواية الأوزاعي(١) **قال**: سمعت يحيى، يقول: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: أو اقرأ؟ فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فقلت: أو اقرأ؟ قال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحداً، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ - فأخذتني منه رجفة شديدة، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا علي ماء، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾»(٢).

ويستفاد من ألفاظ هذا الطريق:

- أن مراجعة أبي سلمة لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حول الأولية المطلقة، وأن جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقصد هذه الأولية المطلقة لا أولية مخصوصة كما جاء في بعض أقوال أهل العلم في توجيه قوله.
- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ من جواره ونزل الوادي نودي وكان هذا المنادي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما صرحت بذلك رواية الأوزاعي.
- أن رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصة نزول صدر سورة المدثر ليست الأولى بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
  - في رواية حرب: «فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض».
  - وفي رواية الأوزاعي: «فإذا هو على العرش في الهواء، يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ».

---

(١) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الدمشقي، أبو عمرو الأوزاعي، حدث عن عبد الله بن عامر اليحصبي، ويحيى بن أبي كثير، والحارث الحضرمي، وغيرهم، وحدث عنه الزهري، والثوري، والفريابي، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٣٤٧): ثقة جليل. توفي ببيروت سنة (١٥٧هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٠٧/٧)، وتهذيب التهذيب (٢٣٨/٦)، وطبقات الحفاظ (٨٥).

(٢) أخرج مسلم الحديث من طريقه في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨١)، حديث رقم (٢٥٧).

ثانياً: لفظه من طريق الزهري:

وقد جاء عنه في الصحيحين من ثلاث روايات:

الأولى: رواية عُقيل بن خالد[1] **قال:** عن ابن شهاب قال: سمعت أبا سلمة، قال: أخبرني جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «ثم فتر عني الوحي فترة، فبينا أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت[2] منه، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ**﴾»، قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان[3].

الثانية: رواية يونس بن يزيد[4] **قال:** قال محمد بن شهاب: فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن: أن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) عُقيل بن خالد بن عقيل الأيلي أبو خالد الأموي مولاهم، روى عن الحسن البصري، والزهري، وسلمة بن كهيل، وغيرهم، وروى عنه عباد بن كثير، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد. قال ابن حجر في التقريب (٣٩٦): ثقة ثبت، توفي بمصر سنة (١٤٤هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٣٠١/٦)، وتهذيب التهذيب (٣٧٥/٧)، وطبقات الحفاظ (٧٧).

(٢) أي فزعت منه. ينظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١٣٣٩/١)، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٢٣٩/١).

(٣) أخرج البخاري الرواية من طريقة في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه (٥٤٠)، حديث رقم (٣٢٣٨)، وكتاب بدء الوحي، بابٌ كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)، حديث رقم (٤)، وكتاب التفسير، باب ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ سورة ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ**﴾ (٨٨٧) حديث رقم (٤٩٥٤)، وكتاب الأدب، باب رفع البصر إلى السماء (١٠٨٢)، حديث رقم (٦٢١٤)، كتاب التفسير، بابٌ ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ (٨٧٧) حديث رقم (٤٩٢٥)، وكتاب التفسير وبابٌ ﴿**وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ**﴾ (٨٧٧) حديث رقم (٤٩٢٦)، وأخرج مسلم الرواية من طريقه في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨١)، حديث رقم (٢٥٦)، وجاءت ألفاظ هذه الرواية بتفاوت يسير في هذه المواضع والمثبت هو لفظ هذه الرواية في الموضع المذكور أولاً في هذا التخريج.

(٤) يونس بن يزيد بن مشكان الأيلي أبو يزيد القرشي، روى عن هشام بن عروة، والزهري، ونافع مولى ابن عمر، وغيرهم، وروى عنه أبو زرعة، والأوزاعي، ووكيع بن الجراح، وغيرهم. قال ابن حجر في التقريب (٦١٤): ثقة، إلا أن في روايته عن الزهري وهما قليلاً وفي غير الزهري خطأ. توفي بمصر سنة (١٥٩هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٩٧/٦)، وتهذيب التهذيب (٤٥٠/١١)، وطبقات الحفاظ (٧٨).

وهو يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني»، فدثروه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. - قال أبو سلمة: وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون - قال: «ثم تتابع الوحي»[1].

الثالثة: رواية معمر بن راشد[2] **قال**: قال الزهري: فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ قبل أن تفرض الصلاة وهي الأوثان»[3].

ويستفاد من ألفاظ هذا الطريق:

- تصريح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنزول وحي قبل نزول سورة المدثر، وذلك في قوله في أول الرواية: «ثم فتر عني الوحي فترة».

---

(١) أخرج البخاري الرواية من طريقة في كتاب التفسير، باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (٨٨٧) حديث رقم (٤٩٥٤)، وأخرجها مسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨١)، حديث رقم (٢٥٥)، والمثبت لفظه عند البخاري.

(٢) معمر بن راشد الأزدي الحداني مولاهم أبو عروة البصري، روى عن ثابت البناني، والزهري، وأيوب السختياني، وخلق غيرهم، وروى عنه سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وغيرهم كثير. قال ابن حجر في التقريب (٥٤١): ثقة، ثبت، فاضل، إلا أن في روايته عن ثابت، والأعمش، وهشام بن عروة شيئاً، وكذا فيما حدث به بالبصرة، توفي سنة (١٥٤هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥/٧)، وتهذيب التهذيب (٢٤٣/١٠)، وطبقات الحفاظ (٨٨).

(٣) أخرج البخاري الرواية من طريقه في كتاب التفسير، بابُ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (٨٧٧) حديث رقم (٤٩٢٥)، وأخرجها مسلم من طريقه في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٨١) حديث رقم (٢٥٦)، والمثبت لفظه عند البخاري.

- تصريح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برؤية جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل نزوله عليه بصدر سورة المدثر: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض».
- أخرج البخاري رواية الزهري لحديث جابر في نزول سورة المدثر، معطوفة على روايته لحديث عائشة في نزول صدر سورة العلق، وذلك ليدل على تأخر نزول سورة المدَّثر عن صدر سورة العلق.

المبحث الثاني
في أقوال العلماء في توجيه قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما كان هذا القول من جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تعيين أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق مخالف للمشهور عند أهل العلم في هذه المسألة، ولإجماعهم على أن أول نازل من القرآن على الإطلاق صدرُ سورة العلق[1]؛ لذا فقد تعددت أقوال العلماء في توجيه قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

القول الأول: أن سورة المدثر أول ما نزل بعد فترة الوحي[2]: واستدلوا بألفاظ رواية الزهري لحديث جابر، حيث جاءت من طريق عُقيل بن خالد، عن الزهري بلفظ: (عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «ثم فتر عني الوحي فترة....»)[3]، ومن طريق يونس بن يزيد، ومعمر بن راشد، كلاهما عن الزهري بلفظ: (عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحدث عن فترة الوحي...)[4]، وجاء في آخرها: (... ثم حمي الوحي بعدُ وتتابع). وجاء فيها أيضاً («فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض») وجاءت الإشارة إلى رؤية سابقة للملَك في رواية يحيى بقوله: («فإذا هو جالس على كرسي بين

(١) حكى الإجماع على ذلك الشيخ عبد القادر ملا حويش في تفسيره بيان المعاني (٥٠/١) و(٥٣/١).

(٢) قاله البيهقي في دلائل النبوة (١٥٥/٢)، والسمعاني في تفسيره (٨٧/٦)، وابن كثير في تفسيره (٢٦٢/٨)، والزركشي في البرهان (٢٦٤/١)، وابن حجر في فتح الباري (٦٧٨/٨)، والكوراني في الكوثر الجاري (٤٥/١)، والسيوطي في الإتقان (٧١/١)، وفي التوشيح شرح الجامع الصحيح (٣١٠٧/٧)، والشربيني في تفسيره (٤٢٥/٤)، والقاسمي في تفسيره (٣٤٩/٩)، والكشميري في فيض الباري (١٠١/١)، ومحمد رشيد رضا في تفسيره (٢٩/١)، والزرقاني في مناهل العرفان (٩٤/١)، ومحمد أبو شهبة في المدخل لدراسة القرآن الكريم (١١٤)، وابن عثيمين في أصول في التفسير (١٠)، وفي مقدمة تفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة (١٢).

(٣) وهي عند البخاري برقم (٣٢٣٨)، و(٦٢١٤)، وعند مسلم برقم (٢٥٦).

(٤) وهي عند البخاري برقم (٤)، و(٤٩٥٤) ورقم (٤٩٢٥) ورقم (٤٩٢٦)، وعند مسلم برقم (٢٥٥).

السماء والأرض»)[1]، ومن طريق أخرى بلفظ: («فإذا هو على العرش في الهواء» يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ)[2].

القول الثاني: أنها أول سورة نزلت كاملة[3]: واستدل بعض القائلين به بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[4]. فسورة العلق ليس فيها ذكر الجنة والنار، أما سورة المدثر ففي آخرها ذكر الجنة والنار.

القول الثالث: أنها أول ما نزل بسبب متقدم[5]: وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما ﴿اقْرَأْ﴾ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم.

القول الرابع: أنها أول سورة نزلت في الإرسال[6]: ولهذا قال بعضهم أول ما نزل للنبوة ﴿اقْرَأْ﴾، وأول ما نزل للرسالة المدثر.

القول الخامس: أن جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال هذا باجتهاده**[7]: أما ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد نقلته عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) وهي عند البخاري برقم (٤٩٢٤).

(٢) وهي عند مسلم برقم (٢٥٧) ورقم (٢٥٨).

(٣) قاله السيوطي في الإتقان (٧٠/١) واستحسنه، وذكره محمد رشيد رضا في تفسيره (٢٩/١)، ومحمد أبو شهبة في المدخل لدراسة القرآن الكريم (١١٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٨٩٥)، حديث رقم (٤٩٩٣).

(٥) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦٧٨/٨) واستبعده، وقاله السيوطي في الإتقان (٧١/١)، وفي التوشيح شرح الجامع الصحيح (٣١٠٧/٧).

(٦) قاله ابن القيم في زاد المعاد (٨٣/١)، ابن حجر في فتح الباري (٦٧٨/٨)، والسيوطي في الإتقان (٧١/١)، وفي التوشيح شرح الجامع الصحيح (٣١٠٧/٧)، وعلي قاري في مرقاة المفاتيح (٣٧٤٢/٩)، ومحمد أبو شهبة في المدخل لدراسة القرآن الكريم (١١٤)، وابن عثيمين في أصول في التفسير (١٠)، وفي مقدمة تفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة (١٢).

(٧) قاله ابن القيم في زاد المعاد (٨٣/١)، والكرماني في الكواكب الدراري (١٦٩/١٨)، وابن حجر في فتح الباري (٦٧٨/٨)، والعيني في عمدة القاري (٢٦٦/١٩)، والسيوطي في الإتقان (٧١/١) واستحسنه، وذكره القسطلاني في إرشاد الساري (٤٠٣/٧)، وزكريا الأنصاري في منحة الباري (٢١٩/٨)، والكشميري في فيض الباري (١٠١/١)، والزرقاني في مناهل العرفان (٩٤/١).

القول السادس: أن لفظ (أول) من الأمور النسبية[1]: وإن القول بأن سورة المدثر أول ما نزل يصدق عليه أنه أول ما نزل بالنسبة إلى ما نزل بعده.

القول السابع: أن جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبر بما سمع[2]: وأنه إنما سمع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه القصة مختصرة كما رواها، ولم يسمع قصة الغط والتعليم والأمر بالقراءة.

(١) قاله العيني في عمدة القاري (٢٦٦/١٩)، وزكريا الأنصاري في منحة الباري (٢١٩/٨)، وعلي قاري في مرقاة المفاتيح (٣٧٤/٩).

(٢) قاله الواحدي في أسباب النزول (١٢)، وابن الجوزي في كشف المشكل من حديث الصحيحين (٩/٣)، وأبو شامة في شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى (١٩٧)، والزركشي في البرهان (٢٠٦/١)، والزرقاني في مناهل العرفان (٩٥/١).

المبحث الثالث
في مناقشة هذه الأقوال وبيان الراجح منها

بعد استعراض أقوال العلماء في توجيه قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق، هذا أوان مناقشة هذه الأقوال، وتعيين الأقرب منها للصواب والأولى بالاعتماد والترجيح:

أما القول الأول في توجيهه: إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي: فبعيد؛ لأنه مبني على أن الأولية المقصودة مخصوصة مقيدة بـ «ما نزل بعد فترة الوحي» وليست مطلقة. في حين يُفهم من مراجعة أبي سلمة لجابر، ومراجعة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة أن المسؤول عنه الأولية المطلقة لا المخصوصة، ولهذا ذكر أبو سلمة لجابر القول الآخر المنقول عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقوله: «يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»[1]، وفي رواية: «أنبئت أنه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»[2]، وفي رواية: «أو ﴿اقْرَأْ﴾؟»[3]؛ فتبين بُعْد هذا الاحتمال.

وأما القول الثاني: أنها أول سورة نزلت كاملة: فهو أيضاً احتمال بعيد:

- لأنه مبني على أن الأوليَّة المقصودة مخصوصة مقيدة بأول ما نزل من السور، في حين كان السؤال الموجه لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا واضح الدلالة على أن المقصود أوليَّة مطلقة لا مخصوصة.
- ولأن السورة لم تنزل كاملة دفعة واحدة بل نزل صدرها أولاً ثم تكامل نزولها بعد ذلك:

---

(١) وهي عند البخاري برقم (٤٩٢٢).
(٢) وهي عند البخاري برقم (٤٩٢٤).
(٣) وهي عند مسلم برقم (٢٥٧).

- فحديث جابر جاء فيه التصريح بذلك، حيث قال: «... فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾»[1]، فهذا تصريح بالقدر النازل من السورة في ذلك الوقت.
- ولأن اتفاقهم على نزول قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] في الوليد[2] يقتضي أنها لم تنزل بتمامها، إذ هذه الآيات نزلت بعد محاورة، وأمر جرى بعد الدعوة والتحدي[3]، فتتأخر عن بدء البعثة[4].

- فإن قيل: إن المراد أول سورة تكامل نزولها، أجيب بأن المشهور عند أهل العلم أن أول سورة نزلت كاملة سورة الفاتحة[5]، وأجيب أيضاً بأن السؤال هنا عن أوليَّة مطلقة لا مخصوصة.
- وأما استدلالهم بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار....»:
  - فيحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل، التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق، أُمِروا ونُهوا بالتدريج أولا فأولا، وهذا من حكمة الله ورحمته[6].

---

(١) وذلك الروايات رقم (٤) ورقم (٣٢٣٨) ورقم (٤٩٢٦) عند البخاري، والرواية رقم (٢٥٦) عند مسلم.

(٢) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله المخزومي القرشي، أحد قادة قريش وساداتها، والد الصحابي خالد بن الوليد، ومات على الكفر بعد الهجرة بثلاثة أشهر وله (٩٥) سنة.
يُنظر خبره في: السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٠/١)، دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٧٠)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٠/٢).

(٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقرأ عليه القرآن وكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له: يا عمِّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات كلها. يُنظر أسباب النزول للواحدي (٤٤٧)، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٢٠٥).

(٤) ذكر هذا الوجه في الجواب الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي (٢٦٩/٨).

(٥) يُنظر: تفسير القاسمي (٥٠٦/٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٥/١).

(٦) ذكر هذا الوجه في الجواب ابن كثير في فضائل القرآن (١٤٢).

- وسورة العلق لم تخلُ من ذكر الجنة والنار، بل قد وردت الإشارة فيها إلى ذكر خزنة النار صراحة في قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وذلك في تهديد المكذب ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ١٣]، وتضمنت الآيات الإشارة إلى ثواب مقابله ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [العلق: ١١].

وأما القول الثالث: أنها أول ما نزل بسبب متقدم: فهو احتمال بعيدٌ؛ لكون السؤال عن أوليَّة مطلقة لا مقيدة. قال الحافظ ابن حجر[١]: ويحتمل أن تكون الأولية في نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بقيد السبب؛ أي هي أول ما نزل من القرآن بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما ﴿ٱقْرَأْ﴾ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم ولا يخفى بعد هذا الاحتمال[٢].

وأما القول الرابع: أنها أول سورة نزلت في الإرسال: فهو أيضاً احتمال بعيدٌ؛ لكون السؤال عن أولية مطلقة لا مقيدة.

وأما القول الخامس: أن جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال هذا باجتهاده**: فمستبعد أيضاً؛ لأن هذا الأمر مما لا مجال للاجتهاد فيه، بل هو معتمدٌ على النقل والرواية، وكيف يعقل القول في نزول القرآن بالاجتهاد؟[٣]، ولأن جابراً صرَّح بأن هذا غاية ما بلغه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الشأن.

وأما القول السادس: أن لفظ (أول) من الأمور النسبية: فبعيد؛ لأن السؤال كما تقدَّم بيانه عن أول ما نزل على الإطلاق.

---

(١) أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، خاض أولًا الأدب والشعر فبلغ فيه الغاية، ثم طلب الحديث حتى برع فيه وتقدم في جميع فنونه، حكى أنه شرب ماء زمزم ليصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ فبلغها وزاد عليها، من مؤلفاته فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييز الصحابة، ولسان الميزان، توفي في ذي الحجة سنة (٨٥٢هـ).
يُنظر في ترجمته: الضوء اللامع للسخاوي (٣٦/٢)، وطبقات الحفاظ (٥٥٢)، البدر الطالع للشوكاني (٨٧/١).

(٢) فتح الباري (٦٧٨/٨).

(٣) قاله الكوراني في الكوثر الجاري (٣٣١/٨).

وأما القول السابع: أن جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبر بما سمع: فهو أرجح الأقوال وأقربها للصواب - والله أعلم -؛ لأنه لما راجعه أبو سلمة أجابه بقوله: «لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فبين أن هذا غاية ما بلغه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول ما نزل، في حين جاء حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا متضمناً قصة الغطّ والتعليم والأمر بالقراءة وهي - جزماً - تسبق نزول صدر سورة المدثر بنصّ ألفاظ حديث جابر:

- «ثم فتر عني الوحي فترة...»[1].
- «سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحدث عن فترة الوحي...».
- «.. ثم حمي الوحي بعدُ وتتابع».
- «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض».
- «فإذا هو جالس على كرسي بين السماء والأرض».
- «فإذا هو على العرش في الهواء»، يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهذه الألفاظ تشير إلى تقدُّم نزول وحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسبق نزول سورة المدثر، وهذا النازل بيَّنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عائشة، فلعل جابراً لم يسمع أول حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدرك آخره فحدَّث بما سمعه، والله أعلم.

ولهذا صرح الزهري بتقدُّم نزول صدر سورة العلق عليه في إحدى رواياته لهذا الخبر، أخرج الطبري[2] في تفسيره من طريق معمر، عن الزهري أنه قال: فتر الوحي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فترة، فحزن حزناً، فجعل يعدو إلى شواهق رؤوس الجبال ليتردَّى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: إنك نبي الله، فيسكن جأشه، وتسكن نفسه، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدث عن ذلك،

(١) تقدم بيان أرقام الروايات عند استعراض ألفاظ طريقي ورود هذا الحديث في الصحيحين (٨ - ١٢).

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، المؤرخ المفسر، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وبها توفي، روى عن محمد بن حميد، ومحمد بن العلاء، ويونس بن عبد الأعلى، وحدث عنه أبو شعيب الحراني، والطبراني، وأبو محمد الفرغاني، وغيرهم، من مؤلفاته التفسير، وتاريخ الأمم والملوك، واختلاف الفقهاء، توفي ببغداد سنة (٣١٠هـ).
يُنظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤)، وطبقات الحفاظ (٣١٠).

قال: «بينما أنا أمشي يوماً، إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فرجعت إلى خديجة فقلت: زملوني» فزملناه: أي فدثرناه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

قال ابن حبان[2] في صحيحه: وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل على رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو في الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه في بيت خديجة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ من غير أن يكون بين الخبرين تهاتر أو تضاد[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة[4] رَحِمَهُٱللَّهُ، بعد ذكر حديث جابر من طريق يحيى: فهذا الحديث يوافق المتقدم وإن ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي، وبعد أن ناداه الملك حينئذٍ. وقد بيَّن في الرواية الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء، وقد بيَّنتْ عائشة أن ﴿ٱقْرَأْ﴾ نزلت حينئذ في غار حراء. لكن كأنه لم يكن علم أن ﴿ٱقْرَأْ﴾ نزلت حينئذ، بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك، وقد يراه ولا يسمع منه، لكن في حديث عائشة زيادة علم، وهو أمره بقراءة ﴿ٱقْرَأْ﴾. وفي حديث الزهري

(١) تفسير الطبري (٢٩٧/١٢) رقم (٣٥٣١٠).

(٢) أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، سمع النسائي، والحسن بن سفيان، وأبا يعلى الموصلي، وسمع منه الحاكم، ومنصور بن عبد الله الخالدي، وعبد الرحمن بن محمد السجستاني، وغيرهم، من مؤلفاته الصحيح، والتاريخ، والضعفاء، توفي في شوال سنة (٣٥٤هـ).
يُنظر في ترجمته: لسان الميزان لابن حجر (١١٢/٥)، وطبقات الحفاظ (٣٧٥).

(٣) صحيح ابن حبان (٢٢١/١).

(٤) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، عني بالحديث، وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه، وكان من بحور العلم، امتحن وأوذي مراراً، من مؤلفاته رفع الملام عن الأئمة الأعلام، والسياسة الشرعية، واقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، توفي في شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ).
ينظر في ترجمته: الدرر الكامنة (١٦٨/١)، وطبقات الحفاظ (٥٢١).

أنه سمى هذا «فترة الوحي»، وكذلك في حديث عائشة «فترة الوحي»، فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى، وسمى ما بين الرؤيتين «فترة الوحي» كما بينته عائشة، وإلا فإن كان جابر سماه «فترة الوحي»، فكيف يقول إن الوحي لم يكن نزل؟. وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة(١) عن عائشة، وحديث أبي سلمة عن جابر، وهو أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا، لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى، فأخبر جابر بعلمه، ولم يكن علِم ما نزل قبل ذلك، وعائشة أثبتت وبيَّنت. والآيات آيات ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ تبين ذلك، والحديثان متصادقان مع القرآن، ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب(٢).

ومن فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عطفُ رواية الزهري عن أبي سلمة لحديث جابر، على روايته عن عروة لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في كتاب بدء الوحي(٣) وفي كتاب التفسير(٤) ليدل على ترتيبهما في النزول. قال ابن حجر: إنما أتى بحرف العطف ليعلم أنه معطوف على ما سبق، كأنه قال: أخبرني عروة بكذا، وأخبرني أبو سلمة بكذا، وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف، وأخطأ من زعم أن هذا معلق، وإن كانت صورته صورة التعليق، ولو لم يكن في ذلك إلا ثبوت الواو العاطفة، فإنها دالة على تقدم شيء عطفته، وقد تقدم قوله عن ابن شهاب عن عروة، فساق الحديث إلى آخره، ثم قال: قال ابن شهاب أي بالسند المذكور، وأخبرني أبو سلمة بخبر آخر، وهو كذا، ودل قوله: «عن فترة الوحي» وقوله: «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر نزول سورة

(١) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، أبو عبد الله المدني، أحد الفقهاء السبعة، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، روى عن أبيه، وخالته عائشة، وجابر بن عبد الله، وخلق سواهم، وروى عنه سليمان بن يسار، وصالح بن كيسان، والزهري، وغيرهم كثير. قال ابن حجر في التقريب (٣٨٩): ثقة فقيه مشهور، توفي سنة (٩٤هـ). يُنظر في ترجمته: سير أعلم النبلاء (٤٢١/٤)، وتهذيب التهذيب (١٨٠/٧)، وطبقات الحفاظ (٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦٠/١٦).

(٣) كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢)، حديث رقم (٤).

(٤) كتاب التفسير، باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (٨٨٧)، حديث رقم (٤٩٥٤).

﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ عن ﴿ٱقْرَأْ﴾، ولما خلت رواية يحي بن أبي كثير الآتية في التفسير عن أبي سلمة عن جابر عن هاتين الجملتين، أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أول ما نزل، ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع هذا الإشكال(١).

وقد كان آخر حديث عائشة: «ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي» ثم ذكر البخاري رواية الزهري لحديث جابر المتضمن للنازل بعد فترة الوحي، معطوفة على سابقتها بالواو.

(١) فتح الباري (٢٨/١).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريَّات، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

ففي خاتمة هذا البحث ألخص أهم نتائجه في الآتي:

- المشهور عند أهل العلم أن أول ما نزل من القرآن على الإطلاق صدر سورة العلق.
- ما روي عن جابر من أن أول ما نزل سورة المدثر مرجوح؛ لكون جابر - والله أعلم - سمع آخر حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خبر بدء الوحي، ولم يسمع أوله، فحدث بما سمع، بينما سمعت عائشة أوله فأخبرت به، فقولها مقدم على قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- وجّه العلماء حديث جابر بعدة توجيهات مدار أغلبها على أوليَّة مخصوصة، وحديث جابر صريح في أن المقصود الأوليَّة المطلقة.
- من التوجيهات على حديث جابر أنه قال ذلك باجتهاده، وهذا غير مسلّم؛ لأن هذا الأمر مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولتصريح جابر بأن هذا غاية ما سمعه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حول بدء الوحي.
- براعة الإمام البخاري في ترتيبه للصحيح، حيث عطف رواية الزهري لحديث جابر على روايته لحديث عائشة، ليُعلم أن نزول سورة المدثر كان عقيب نزول سورة العلق.

وفي الختام أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به من كتبه وقرأه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع والمصادر

- **الإتقان في علوم القرآن**: لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد شريف سكر، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٦هـ).
- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**: محمد بن حبان البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، ترتيب: علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).
- **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**: لأبي العباس القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة (١٣٢٣هـ).
- **أسباب نزول القرآن**: أبو الحسن علي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ).
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ).
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: علي معوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).
- **الإصابة في تمييز الصحابة**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **أصول في التفسير**: محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار المعرفة، بيروت.
- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ).

- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت (١٤٢٢هـ).
- **بيان المعاني**: عبد القادر بن ملّا حويش (ت: ١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة الأولى (١٣٨٢هـ).
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ).
- **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ).
- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**: محمد رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠م).
- **تفسير القرآن العظيم**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ).
- **تفسير القرآن**: لأبي المظفر السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- **تفسير سورتي الفاتحة والبقرة**: محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).
- **تفسير عبد الرزاق**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).
- **تقريب التهذيب**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الرابعة (١٤١٨هـ).
- **تهذيب التهذيب**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى (١٣٢٦هـ).
- **التوشيح شرح الجامع الصحيح**: جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).

- **جامع البيان في تأويل القرآن**: محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٢٠هـ).
- **الجرح والتعديل**: ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٢٧١هـ).
- **دراسات في علوم القرآن**: فهد الرومي، الطبعة السادسة عشرة (١٤٣٠هـ).
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ).
- **دلائل النبوة**: أبو نعيم الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، تحقيق: محمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ).
- **دلائل النبوة**: لأبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون (١٤١٥هـ).
- **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**: شمس الدين الشربيني (ت: ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة (١٢٨٥هـ).
- **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، حقق بإشراف: الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ).
- **السيرة النبوية**: عبد الملك بن هشام المعافري (ت: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية (١٣٧٥هـ).
- **شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى**: أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي (ت: ٦٦٥هـ)، تحقيق: جمال عزون، مكتبة العمرين العلمية، الشارقة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ).
- **الصحيح**: محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ).

- **الصحيح**: مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية (١٤٢١هـ).
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **طبقات الحفاظ**: جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).
- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**: بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب)**: شهاب الدين أحمد الخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت.
- **غريب الحديث**: أبو الفرج ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد المعطي القلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت (١٣٧٩هـ).
- **فضائل القرآن**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).
- **فيض الباري على صحيح البخاري**: محمد أنور شاه الكشميري (ت: ١٣٥٣هـ)، تحقيق: محمد بدر عالم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).
- **كشف المشكل من حديث الصحيحين**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ط. د.
- **الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**: شمس الدين الكرماني (ت: ٧٨٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٣٥٦هـ).
- **الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري**: أحمد بن إسماعيل الكوراني (ت: ٨٩٣هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

- **لباب النقول في أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **لسان الميزان**: أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الثانية (١٣٩٠هـ).
- **مجموع الفتاوى**: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية (١٤١٦هـ).
- **محاسن التأويل**: محمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- **المحرر في علوم القرآن**: مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ).
- **المدخل لدراسة القرآن الكريم**: محمد محمد أبو شهبة (ت: ١٤٠٣هـ)، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ).
- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**: علي سلطان القاري (ت: ١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **معرفة الصحابة**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).
- **مناهل العرفان في علوم القرآن**: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
- **منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى «تحفة الباري»**: زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ)، تحقيق: سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: أبو السعادات ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت (١٣٩٩هـ).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٥٥
المقدمة	١٥٦
أسباب اختيار الموضوع	١٦٠
الدراسات السابقة	١٦٠
خطة البحث	١٦٠
المبحث الأول: في ذكر طرق وألفاظ حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	١٦٢
المبحث الثاني: في أقوال العلماء في توجيه قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ	١٦٨
المبحث الثالث: في مناقشة هذه الأقوال وبيان الراجح منها	١٧١
الخاتمة	١٧٨
المراجع والمصادر	١٧٩
فهرس الموضوعات	١٨٤

وقفات تدبرية في قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

د. أمجد بن محمد بن محمد زيدان[1]

مُلخّصُ البَحْث

في هذا البحث الكلام عن التدبر من حيث تعريفه، والعلاقة بينه وبين التفسير، وبينه وبين الاستنباط، كما كان له وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته، وذكر الأمور المعينة على التدبر وثمراته.

عرض هذا البحث الوقفات التدبرية المستخرجة من قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، التي وردت في كتاب الله، بعد أن قام بالحديث عن القصة بأسلوب أقرب للموضوعي.

ولا أدعي الاستقصاء في الوقفات التي ذكرتها، وإنما ذكرت ما ظهر لي مما فهمته من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يأتي باحث آخر فيضيف أو يستدرك أو ينقد، فكتاب الله لا تنقضي عجائبه، اللّٰهُمَّ وفقنا للفهم الصحيح، وجنبنا الخطأ والزلل في كتابك.

(١) الأستاذ المشارك في قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه هداية للناس، وجعله مباركاً وذكرى لأولي الألباب، وأمرهم بتدبره، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وبعد:

فإن الله عزوجل لما أكرم هذه الأمة بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ندبهم وأمرهم بتدبره، فقال عز شأنه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ولذا يحسن بقارئ القرآن والمستمع له أن يمتثل أمر الله، وأن يكون له حظ في تدبر كلام الله وتأمله، إذ التدبر أمر زائد على مجرد القراءة والاستماع، ومن هذا المنطلق أحببت أن أشارك بهذا البحث المتواضع في التدبر، والذي يحمل عنوان «وقفات تدبرية في قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام»، وكُلِّي رجاء أن أنفع نفسي، وأنفع القارئ الكريم بشيء من الوقفات التدبرية التي احتوت عليها قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام، حيث إنني لم أرَ أحداً أفرد بحثاً يحمل هذا العنوان.

وقد يظهر للقارئ والمتأمل أن هذه الوقفات أقرب للاستنباطات منها للتدبر، فيقال له: وهل الاستنباط إلا نتيجة للتدبر؟! كما أنه قُصِد في هذه الوقفات التدبرية الانتفاع والامتثال.

والكلام عن التدبر وُجِد مبثوثاً في كتب أهل العلم المتقدمين في ثنايا كتبهم، ووجد من أفرده وخصه بالبحث والتأليف من المعاصرين، فمن ذلك على سبيل المثال:

- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

- تدبر القرآن الكريم، عبد اللطيف بن عبد الله التويجري، رسالة ماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطبوعة.
- تدبر القرآن الكريم «دراسة تأصيلية»، محمد عبد الجواد الصاوي، رسالة دكتوراه بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، لم تطبع إلى الآن. وهذه الرسالة والتي قبلها وضحت معالم هذا المصطلح وبينته.
- تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي.
- الخلاصة في تدبر القرآن الكريم، د. خالد بن عثمان السبت.
- مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا، رئيس فريق إعداد المنهج أ. د. محمد ابن عبد العزيز العواجي.
- تدبر سورة الكهف، رقية طه العلواني.
- تدبر سورة يوسف تهذيب آيات للسائلين، ناصر بن سليمان العمر.
- القرآن تدبر وعمل، مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي.
- المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد بن أحمد مكي.
- ليدبروا آياته، الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

إلى غير ذلك من الأبحاث والمؤلفات، وهي كثيرة.

كما أنه عقدت مؤتمرات وملتقيات علمية حول التدبر، ضمت أبحاثاً عدة فمن هذه المؤتمرات والملتقيات:

- مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم، والمنعقد في الرياض (١٤٢٩هـ)، وأوراق الملتقى العلمي الثاني لتدبر القرآن الكريم، والمنعقد في الرياض (١٤٣١هـ).
- بحوث المؤتمر الأول لتدبر القرآن الكريم، الدوحة، قطر، شعبان (١٤٣٤هـ)، والمؤتمر الثاني لتدبر القرآن الكريم، الدار البيضاء، المغرب، محرم (١٤٣٧هـ)[1].

(١) انظر: مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا (ص٢٧).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. امتثال أمر الله في تدبر القرآن الكريم، إذ هو المقصود الأعظم من نزوله، بل وُبِّخَ من لم يتدبر القرآن.

٢. أخذ العظة والعبرة من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على وجه العموم، ونبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ على وجه الخصوص.

٣. نفع نفسي ونفع غيري في موضوع تدبر القرآن الكريم.

٤. أنه متعلق بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالكتابة فيه خدمة لهذا الموضوع المهم الذي أمر الله به.

٥. المساهمة في إحياء عبادة التدبر لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والمساعدة على ذلك.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة أشرت فيها إلى أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج في كتابة البحث، ومبحثين.

المبحث الأول: في الكلام عن التدبر، وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين، ويشمل المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف التدبر.

المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط.

المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته، وأهمية تدبر قصص القرآن.

المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبر.

المطلب الخامس: ثمرات التدبر.

المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين.

المبحث الثاني: الوقفات التدبرية من قصة شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين.

ثم الخاتمة ذكرت فيها ما ظهر لي من نتائج وتوصيات، وأخيراً فهرس المصادر، وفهرس الموضوعات.

وكانت الكتابة في هذا الموضوع في ضوء المنهج الاستقرائي، إذ تَمَّ جمعُ الآيات المتعلقة بالقصة، واستخراج الوقفات التدبرية منها وتوضيحها، وكتبت البحث وفق المنهج الآتي:

١. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.
٢. خرجت الأحاديث النبوية من مصادرها، فإن كانت في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإن كانت في غيرهما بينت درجتها معتمداً على أقوال أهل العلم.
٣. لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار.
٤. ختمت البحث بفهرسين، أحدهما للمصادر، والآخر للموضوعات.

هذا، ولقد كانت كتابتي للوقفات التدبرية مما فتح الله به عليَّ وتأملته من آيات القصة، وما كان من كتابٍ فإنِّي أُشِيرُ إلى ذلك، وأحسب أن هذه الوقفات التدبرية تحقق الغرض من التدبر وهو العمل، باعتبار أن كل تدبر منها هو في مآله عمل بالقرآن.

واللهَ أسأل أن يكون في هذا البحث ما ينفع المسلمين، ويعينهم على فهم تدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأسأله أن يغفر لي ما كان من خطأ وزلل، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول
في الكلام عن التدبر
وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين

المطلب الأول: تعريف التدبر:

التدبر عند أهل اللغة:

الدال والباء والراء، أصل هذا الباب، وجُلُّه في قياس واحد، وهو: آخر الشيء وخَلْفُه، خِلاف قبلِه.

والتدبير: أن يُدَبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبته وآخره، وهو دبره.

والتدبير: النظر في عاقبة الأمر؛ أي: إلى ما يؤول إليه عاقبته، كالتدبر[1].

التدبر عند المفسرين:

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ (٥٣٨هـ): معنى تدبر القرآن: تأمُّل معانيه، وتبصُّرِ ما فيه[2].

وقال أيضاً: وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمُّل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأنَّ مَن اقتنعَ بظاهر المتلوِّ لم يَحْلَ منهُ بكثير طائلٍ، وكان مثله كمثل لقحة دَرُور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يَسْتَوْلِدُها[3].

وقال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧١٠هـ): والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمور، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كلِّ تأمُّلٍ[4].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص٣٥٥)، وتاج العروس في شرح القاموس (٢٦٥/١١).
(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (٥٢٩/١).
(٣) المصدر السابق (٨٧/٤).
(٤) تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٣٤٨/١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): وتدبر الكلام: أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرَّة بعد مرَّة، ولهذا جاء على بناء التفعُّل، كالتجرُّع، والتفهُّم، والتبيُّن[١].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): والتدبر: التَّفَكُّر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليلِ اللفظ كثيرِ المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر، وهو صيغة تَكَلُّفٍ مشتقة مِن فعل: دَبَر - بوزن ضَرَب - إذا تَبِعَ، فَتَدَبَّرَه بمنْزلة تَتَبَّعَه، ومعناه: أنَّه يتعقبُ ظواهرُ الألفاظ ليعلم ما يَدْبُر ظواهرُها مِن المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة[٢].

وقال عبد الرحمن حبنكة الميداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٥هـ): هو التفكر الشامل الواصل إلى آواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[٣].

وقيل: النظر في آيات القرآن الكريم، والتفكر في معانيها، بقصد اتِّعاظ القلب، وامتثال الجوارح[٤].

وقيل: التأمل الدؤوب، والنظر الثاقب، والتفكر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه عِلماً وعملاً، والارتقاء بذلك[٥].

هذه جملة من التعريفات التي وقفت عليها لكلمة التدبر يتضح بها مصطلح التدبر، وتركت غيرها اختصاراً، وإذا نظرنا لهذه التعاريف نجد أن فيها كلمات تكررت فيها «التأمل - النظر - التفكر».

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/١٨٣).
(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/٢٥٢).
(٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (ص١٠).
(٤) تدبر القرآن الكريم لعبد اللطيف التويجري (ص٤٣).
(٥) تدبر القرآن الكريم، دراسة تأصيلية لمحمد الصاوي (ص١٠).

فالتأمل: التثبت في النظر[١]، ويقال: تَأَمَّل الرجل: تَلَبَّث في الأمر والنَّظَر وانتظَر. وقيل: تأمَّل الشيء: تَدَبَّرَهُ، وأعاد النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه[٢].

والنَّظَر: تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، يقال: نظرتُ إلى كذا، إذا مددت طرفك إليه، رأيته أو لم تره، ونظرت إذا رأيته وتدبرته، ونظرت في كذا: تأمّلته[٣].

وأما التفكر: فالفِكْر: إعمال النظر. وقيل: إعمال الخاطِرِ في الشيء، والتفكر: التأمل[٤].

المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط[٥]:

أولاً: العلاقة بين التدبر والتفسير:

سبق بيان مصطلح التدبر.

وأما التفسير، فهو: بيان معاني القرآن الكريم[٦].

وبالنظر لمصطلح التدبر والتفسير يمكن أن يقال:

١. إن التدبر من مقاصد التفسير.

٢. إن التفسير لا يلزم منه الاتِّعاظ والعمل، فقد يأتي إنسانٌ غيرُ مسلم ويفسر معاني القرآن، بينما التدبر لا بُدَّ فيه مِن الاتِّعاظ والعمل.

٣. إنَّ المفسرَ غرضُه العلم بالمعنى، والمتدبر غرضه الانتفاع والامتثال: علماً وإيماناً وعملاً وسلوكاً، ولذا فإنَّ التفسير يُغَذِّي القوة العلمية، والتدبر يغذي القوة العلمية والإيمانية والعملية.

---

(١) كتاب العين (٣٤٧/٨).
(٢) تاج العروس (٢٧/٢٨).
(٣) المصدر السابق (٢٤٥/١٤).
(٤) المصدر السابق (٣٤٥/١٣).
(٥) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص١٥)، وتدبر القرآن الكريم للتويجري (ص٥١).
(٦) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة لابن عثيمين (٢٨/١).

٤. إنَّ التَّدَبُّر مأمورٌ به عامَّة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خُوطِب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات، بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر. أما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله تعالى بحسب الطاقة.

٥. إنَّ بين التدبُّر والتفسير تلازم، فالتوصل إلى مراد الله تعالى مِن كلامه يحتاج إلى تدبُّر ونظر وتأمل، كما أنَّ التدبر يتوقف على معرفة المعنى.

ثانياً: العلاقة بين التدبر والاستنباط:

الاستنباط: هو الاستخراج، «وكل مستخرج شيئاً كان مستتراً عن العيون، أو عن معارف القلوب فهو له مستنبط»(١).

فالاستنباط من القرآن يكون بمعنى استخراج المعاني والأحكام وألوان الهدايات في العقائد والسلوك وغير ذلك، وهذا يكون نتيجةً للتدبُّر كما لا يخفى، وهو قدرٌ زائدٌ على مُجَرَّد فهمِ اللفظ والكشفِ عن معناه.

إذن فالاستنباط نتيجة للتدبُّر فهو فرعٌ منه، والتدبر هو الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، فينتج من ذلك الاستنباط.

المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته وأهمية تدبر قصص القرآن:

إنَّ القارئ والمتأمِّلَ لكتاب الله ستَمُرُّ عليه آياتٌ مِن كتابه الكريم أمر فيها عَزَّوَجَلَّ بتدَبُّر كتابه، وذمَّ فيها الْمُعرِضين عن تَدَبُّرِه.

قال تعالى في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وهي سورة مكية.

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وهي سورة مكية أيضاً.

(١) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير (٢٥٥/٧).

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهي سورة مدنية.

وقال تعالى في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

هذه أربعُ آياتٍ لا خامس لها، وقد جاءت في سياقات مختلفة، فآية ص تصلح لجميع المخاطبين مِن مؤمنين وغيرهم، وآية المؤمنون جاءت في سياق الكلام عن المشركين، وأمَّا آية النساء ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي سياق الكلام عن المنافقين، فالقارئ لكتاب الله والمستمع له مأمور بأمر زائد على التلاوة والاستماع ألا وهو التدبر والتأمل لكلامه عَزَّوَجَلَّ.

ومِمَّا يُساعِد على ذلك قراءة كتاب الله قراءةً مُرَتَّلة متأنيةً لا على وجه - وهي السرعة في القراءة - يَفْقُد معه التأمل والتدبر.

قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٤هـ): باب ما يستحب لقارئ القرآن من الترتيل في قراءته والتَّرَسُّل والتدبُّر. وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحت هذه الترجمة عدة آثار وأحاديث، منها:

حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّها نعتت قراءة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قراءةً مُفَسَّرةً حرفاً حرفاً.

وأثر ابن حمزة قال: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنِّي سريع القراءة، وإنِّي أقرأ القرآن في ثلاثة، فقال: لأنْ أقرأ البقرةَ في ليلةٍ فأَدَبَّرها وأُرَتِّلها أحبُّ إلَيَّ مِن أن أقرأ كما تقول[1].

(١) انظر: فضائل القرآن ومعالمه وآدابه (٣٢٧/١)، وحديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه الترمذي في سننه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد، عن ابن أبي ملكية، عن يعلى ابن مَمْلك، عن أم سلمة. وقد روى ابن جريح هذا الحديث عن ابن أبي ملكية، عن أم سلمة، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُقَطِّع قراءاته، وحديث الليث أصح. سنن الترمذي، كتاب ثواب القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص٦٥٣)، وضعفه الألباني. انظره بنفس الإحالة.

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١١هـ): بابُ إباحةِ ترديدِ الآية الواحدة في الصلاة مراراً عند التدبُّر والتفكير في القرآن إن صح الخبَر.

وذكر تحت هذه الترجمة روايةً واحدةً فقط، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إيراده الترجمة: فإنَّ جسْرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآيةٍ أصبح يُرَدِّدُها، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

وفي صحيح ابن حِبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٥٤هـ) بترتيب ابن بلبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٣٩هـ) باب قراءة القرآن، وأورد تحت هذا الباب تراجم، وذكر منها:

ذِكرُ الزَّجرِ عن أن يختم القرآن في أقلَّ مِن ثلاثة أيام، إذ استعمال ذلك يكون أقرب إلى التَدَبُّر والتفهم.

وأورد تحت هذه الترجمة حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يفقهُ مَن قرأَ القرآنَ في أقلَّ مِن ثلاثٍ»[2].

وقال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٠٩هـ): الباب السادس والعشرون: في ذكر ما جاء في قراءة القرآن بالتفكر والتدبر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وأورد تحت هذه الترجمة عدداً من الآثار والأحاديث[3].

فهذه الآثار والأحاديث، وتراجم العلماء عليها، دالَّةٌ على أهمية التَّرسُّل في القراءة والتأنِّي فيها؛ لأنَّ ذلك مما يُساعِد ويُعِين على تدبُّر كلام الله وتأويله.

---

(١) انظر: صحيح ابن خزيمة (٢٩٩/١)، رقم الترجمة (١٢١)، والحديث أخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده (٢٥٦/٣٥) (٢١٣٢٨)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٢) انظر: صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بلبان (٣٥/٣) (٧٥٨). قال شعيب الأرنؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسناده صحيح على شرطهما.

(٣) انظر: هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن (ص٥٢٨).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): إنَّ هذا القرآن قرأه عبيدٌ وصبيان لم يأخذوه مِن أوَّلِه، لا علم لهم بتأويله، إن أحسن الناس بهذا القرآن مَن رُئِي في عمله، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وإنما تدبر آياته: اتباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك، واللهِ ما كانت القراء تفعل هذا، واللهِ ما هم بالقراء، ولا الورعة، لا كثَّر اللهُ في الناس أمثالَهم، لا كثَّر اللهُ في الناس أمثالَهم[١].

قال ابن جرير (٣١٠هـ): وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وهذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقول: ليتدبروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به.

وفي قراءة (لِتَدَبَّروا آياته)[٢] بالتاء، بمعنى: لتتدبَّره أنت يا محمد وأتباعك ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: وليعتبر أولو العقول والحجا ما في هذا الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عمَّا هم عليه مقيمون من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلَّهم عليه مِن الرشاد وسبيل الصواب[٣].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] استفهام عن عدم تدبرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] والمعنى: أنهم لو تدبروا قولَ القرآن لعلموا أنَّه الحق، بدلالة إعجازه، وبصحةِ أغراضِه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يَدَّبَّروا القول[٤].

(١) سنن سعيد بن منصور (٤٢٢/٢) (١٣٥)، قال محققه الدكتور سعد آل حميد: سنده صحيح، وهو صحيح لغيره بما سيأتي من طرق.
(٢) هي قراءة أبي جعفر. انظر: النشر في القراءات العشر (٣٦١/٢).
(٣) انظر: تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٧٨/٢٠).
(٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٧١/١٨).

وقال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٣٥هـ): قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] هلا تأملوا في تفسيره وتدبروا في تأويله، وتفكروا في حججه ودلائله، فيعرفوا بعجزهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، إنه كلام رب العالمين(١).

وقال الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا مُعرِضون عن التدبُّر في آياته، غير مكترثين بقول مَن خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] لا يتأدبون بآدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق، يطلبون الأحكام في التشريعات الضالَّة المخالفة له(٢).

وقال أيضاً: فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبيَّن أنَّ قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم القرآن، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على مَن أعرض عن تدبر كتاب الله جاء مُوَضَّحاً في آيات كثيرة، وقد ذمَّ جَلَّوَعَلَا المعرِض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الآية [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلومٌ أنَّ كلَّ مَن لم يشتغل بتدبر آيات القرآن العظيم؛ أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه مِن هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وهذه الآيات المذكورةُ تدُلُّ على أنَّ تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمرٌ لا بُدَّ منه للمسلمين(٣).

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل (٣٠٠/١).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/١).
(٣) المصدر السابق (٤٥٧/٧).

قال الآجُرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٦٠هـ): إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حثَّ خلقَه على أن يتدبروا القرآن، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحثُّ خلقَه على أن يتدبروا كلامه، ومَن تدبَّر كلامَه عرف الربَّ عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيمَ سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضلُّه على المؤمنين، وعرف ما عليه مِن فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذَّر مما حذَّره مولاه الكريم، فرغَّب فيما رغَّبه، ومَن كانت هذه صفتُه عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعَزَّ بلا عشيرة، وأَنِس مما يتوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو؟ ولم يكن مراده: متى أختم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوة القرآن عبادة لا تكون بغفلة، والله الموفق لذلك(١).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): فصل: فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبُّر عند القراءة، والدلائل عليه أكثرُ مِن أن تحصر، وأشهرُ وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود والمطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة، وقد بات جماعاتٌ مِن السلف يتلون آية واحدة يتدبروها ويرددونها إلى الصباح(٢).

إن المتدبر لقصص القرآن الكريم يجد في كل قصة، بل في كل آية، وفي كل كلمة، من المقاصد الكلية والجزئية ما تعجز عنه الألسن، ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم إذا يقول مبيناً تلك الأهداف العظيمة من القصص قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) أخلاق حملة القرآن (ص٩).
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨١).

وتأمل كيف جاء لفظ (عبرة) نكرة ليفيد الشمول والعموم، ففي قصصهم عبرة عن كل شيء، وفي كل شيء من قصصهم عبرة، ولكن من يستخرج تلك الدرر والعبر والجواهر؟! إلا من آتاه الله عقلاً نيراً وقلباً مبصراً، وفتح له من هدايات كتابه، ومعرفة مقاصده، ولذلك جعل العبرة في الآية السابقة قاصرة على ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، هذا يجعلنا نركز على المقاصد الجزئية التي من خلالها نستنطق النص بهدايات ودروس وعبر، ولا شك سنجد وراءها هدايات عظيمة، وفتوحات واسعة، والهداية من الله عَزَّوَجَلَّ[١].

المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبُّر[٢]:

إنَّ هناك أموراً تعين وتساعد القارئ والمستمع على تدبُّر كلام الله عَزَّوَجَلَّ وتأمُّلِه، ومِن ذلك:

١. إدراك أهمية التدبُّر وفائدته: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، ولو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خيرٌ مِن قراءة ختمة بغير تدبر، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان[٣].

٢. استحضار عظمة المتكلم بالقرآن: قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وليعلم أن ما يقرؤه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه، فإنَّ التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها[٤].

٣. صدق الطلب والرغبة، وقوة الإقبال على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والقراءة للامتثال والعمل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ

(١) انظر: المقاصد القرآنية (ص١٠٤).
(٢) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص٦٣)، وتدبر القرآن الكريم للتويجري (ص١٣٧).
(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١٨٧/١).
(٤) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص٨٧).

بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢هـ): والذي نفسي بيده، إنَّ حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله[١].

٤. تنْزيل القرآن على الواقع: فإنَّه يتعين على قارئ القرآن أن يستصحب الأحوال والملابسات التي نزل فيها القرآن، وكيف كان يُعالِج المواقف والوقائع حتى أخرج ذلك المجتمع والجيل الراشد الذي اهتدى بالقرآن، فالقرآن منبع نورٍ وهداية لكل زمان ومكان، فما علينا إلا أن نَعِيَه ونتدبره، وعندئذ سنجد فيه ما يُعيد الحقَّ إلى نصابه، والعالَم إلى صوابه، فتتحرك عجلةُ التَّغيير كما كانت في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٥. حضور القلب أثناء قراءة القرآن أو الاستماع له، ولينظر المرء فيما يكون أدعى للتدبر بالنسبة إليه، القراءة أو الاستماع، وليجعل لنفسه منه حظّاً صالحاً. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٥١هـ): إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعَك، واحضر حضور مَن يخاطبه به مَن تكلم به سبحانه منه إليه، فإنَّه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧][٢].

٦. وجود قدرٍ مِن الفهم للكلام المقروء أو المسموع: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٢٨هـ): وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[٣].

٧. الابتعاد عن الذنوب والمعاصي وما يُغضِبُ الله، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(١) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (٤٨٩/٢).
(٢) الفوائد (ص٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٣٢/١٣).

٨. اختيار الوقت المناسب له، وتفريغ النفس مِن الشَّواغل المشوشة للفكر والقلب.

٩. اختيار الحال الأصلح له من الجهر بالقراءة أو الإسرار بها.

١٠. الترتيل والتَّرَسُّل في القراءة، وتكرار الآية أو الآيات.

١١. معرفة الوقف والابتداء، فبِه تَتَبَيَّنُ معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات.

المطلب الخامس: ثمرات التدبر:

ما مِن عبدٍ يُقبِل على كتاب الله بِصِدق وإخلاص ويتدبره إلا كان لهذا التدبر ثمرة ونتيجةٌ يلمِسها في حياته، ومِن هذه الثمرات والنتائج والفوائد لتدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

١. أن به انتفاع القلب، وحياته، وكماله، وشفاءه، وصلاحه، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

٢. أنَّه يوصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنَّه يراه يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضُها بعضاً، فبذلك يُعلَم كمال القرآن[١].

٣. أنَّه طريق إلى العمل بما في القرآن من المأمورات، والكف عن المنهيات.

٤. أنه سبيل إلى الاعتبار والاتعاظ بأمثاله وقصصه[٢].

٥. أنه يحمل على محاسبة النفس ومراجعتها.

٦. أنه الطريق إلى معرفة مَحَابّ الله ومَسَاخِطِه، وأوصاف أوليائه وصفات أعدائه[٣].

---

(١) انظر: تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (٣٢٩/١).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (١٨٧/١).

(٣) انظر: الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص٢٥).

المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه أهل مدين:

قبل الشروع في القصة على سبيل الاختصار يحسن أن تُذكر الآيات التي جاءت في ذكر القصة على سبيل الشمول:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ

ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٩١].

وقصتهم باختصار هي كالتالي:

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم

الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيُّك يا أبا ذر»(١).

وكان بعضُ السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء(٢)، يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارَّة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة مُلْتَفَّةٌ بها، وكانوا مِن أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويُطَفِّفون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضُهم، وكفر أكثرُهم، حتى أحلَّ اللهُ بهم البأسَ الشديد، وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها، في سياق قصة سورة الأعراف أرجفوا نبيَّ الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود، فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]،

(١) انظر: صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها (٧٦/٢) (٣٦١)، قال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً.

(٢) ورُوِي ذلك في حديث لا يثبت لأنه منقطع، فقد رفعه محمد بن إسحاق إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٢٢/٥)، والمستدرك على الصحيحين، كتاب التاريخ، ذكر شعيب النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (٥٦٨/٢).

فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي جَهَّلوا به هذا الرسولَ الكريمَ الأمينَ الفصيحَ، فجاءتهم صيحةٌ أسكتتهم مع رجفةٍ أسكنَتهم.

وأمَّا في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وكان ذلك إجابةً لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨].

ومَن زعم مِن المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنَّما عمدتُهم شيئان، أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة. والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ لأنَّه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذِكْرُ شعيبٍ بأنه أخوهم، وهذا الفَرْقُ مِن النفائسِ اللطيفةِ العزيزةِ الشريفةِ.

وأمَّا احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرَّده على أنَّ هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن، ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمَّة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدلَّ على أنهم أمة واحدة أُهلِكُوا بأنواعٍ من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب ذلك الخطاب.

ونجَّى اللهُ شعيباً ومَن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥][1].

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٦٩/١)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٤٦/٣، ٣٤٢/٤، ١٥٨/٦).

المبحث الثاني

الوقفات التدبرية من قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه أهل مدين

وفيها إحدى وثلاثون وقفة تدبرية:

الوقفة الأولى:

إنَّ في مجيء قصة نبي الله شعيب عليه السلام، وقصص الأنبياء عليهم السلام، وما حصل لأقوامهم حينما كذَّبوا رسلَهم، ليتضمن أعظمَ الإنذار والتحذيرِ لِمن بُعِث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم مِن التَّكذيب والاستكبار عن إفرادِ العبادةِ لله، ويتضمن كذلك تحذيرَهم مِن ممارسة القبائح والمنكرات التي كان يُمارسها قومُ شعيبٍ مِن نقص المكيال والميزان، وبخس الناس حقوقهم، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله[1]. فإنَّ ذلك يؤدي للعقوبة والهلاك، ولذلك قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿**وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٦]، فإنَّ عاقبتهم كانت الهلاك والدمار، وقال لهم أيضاً: ﴿**وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ**﴾ [هود: ٨٩]، فالحذر كلَّ الحذر لهذه الأمة مِن أن تحلَّ بهم العقوبة إن هم كذَّبوا وتعاطوا القبائح والمنكرات، كما حلت بالمكذبين والمعاندين والمستكبرين من قبلهم.

فالنظر في عاقبة المفسدين والمكذبين يبعثُ في النفس الحذرَ مِن سلوك سبيلهم، ونحن مخاطبون بالنظر والاعتبار، ولقد خاطب الله هذه الأمة بقوله: ﴿ **وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ * وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ**﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨] لأجل أخذ العِظة والعِبرة مِمَّا حلَّ بقوم لوط عليه السلام.

(١) انظر: معارج التفكر ودقائق التدبر (٤٠٣/٤، ٤٦٣/١٠).

الوقفة الثانية:

ينبغي للداعيةِ والمصلحِ والمربي التلطفُ والرحمة والإشفاق مع مَن يدعوه وينصحه ويرشده، فشعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وكذلك إخوته الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وموسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كلهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، فهي كلمة عظيمةٌ فيها معنى اللطف والرحمة والإشفاق، فما أعظم أن يُقال: يا ولدي، يا والدي، يا أخي، يا أحبتي، بل حينما واجهوه بالاستهزاء والتَّنقُّص والتَّهكُّم في قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] كان ردُّه عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وهذا تَلَطُّف معهم في العبارة، ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأبين إشارة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[1]. وتكرر منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مخاطبة قومه في سورة هود بلفظ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ستَّ مرات، ولنا فيه وفي أنبياء الله أسوة حسنة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فما أعظم وأنفع الرأفة والرحمة واللطف في النصح والإرشاد والوعظ والتربية، وهذا دأب الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما قال له قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] كان ردُّه عليهم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] ولم يقل لهم: بل أنتم السفهاءُ والكَذَبَةُ، وحاشاه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل خاطبهم بأسلوب فيه رحمةٌ وبيانٌ للحقيقة.

«إنَّ الداعي إلى الله يحتاج إلى الحِلم وحسن الخلق، ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضِدِّ ذلك، وأن لا يُحبطَه أذى الخلقِ، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فانظر إلى شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحسن خُلُقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يُسْمِعونُه الأقوالَ السيئة، ويقابلونه المقابلة الفعلية،

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧٢/١).

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم بكلامِ مَن لم يصدر منهم له وفي حقِّه إلا الإحسان، ويُهَوِّن هذا الأمر، إنَّ هذا خُلُقُ مَن ظفر به وحازه فقد فاز بالحظِّ العظيم، وإنَّ لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم، ويُهَوِّنه أنَّه يُعالِج أمماً قد طُبِعوا على أخلاقٍ إزالتُها وقلعُها أصعبُ مِن قلع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهبَ بذلوا فيها الأموالَ والأرواح، وقدموها على جميع المهمات عندهم، أفتظنُّ مع هذا أنَّ أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القولِ بأنَّ هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟ كلا واللهِ، إنَّ هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يُذَكَّرُون بنعم الله، وأنَّ الذي تَفَرَّدَ بالنِّعَم يَتَعَيَّن أن يُفْرَدَ بالعبادة، ويُذْكَر لهم من تفاصيل النعم ما لا يُعَدُّ ولا يحصى، ويُذَكَّرُون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويُذَكَّرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه مِن المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب، الْمُسَهِّلة لكلِّ مطلوب، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الإحسان إليهم، وبذل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم، وتحمل ما يصدر منهم، ولين الكلام معهم، وسلوك كل سبيل حكمة معهم، والتَّنَقُّل معهم في الأمور بالاكتفاءِ ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهمِّ فالأهمِّ، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

الوقفة الثالثة:

حينما يكونُ المربي والمصلحُ والداعية مِن البيئة نفسها التي عاش فيها ومن قومه، فإنَّ ذلك أدعى لِمعرفة حالِهم وسلوكِ الطرق المناسبة لدعوتهم وتربيتهم وإصلاحهم ومخاطبتهم، قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**﴾ [الأعراف: ٨٥]، فلقد كان أخاً لهم في النَّسَب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٦٤).

وهكذا هود وصالح عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [الروم: ٤٧].

فعلى المصلحين والمربين الاهتمام بمجتمعاتهم وبيئتهم التي يعيشون فيها، وعلى مَن يهتمُّ بأمور الدعوة والتربية والإصلاح أن يُراعِيَ ذلك حينما يُرسِل المربين والدعاة والمثقفين(١)، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الوقفة الرابعة:

إنَّ أعظم وأوَّل ما يُدْعَى إليه هو عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من كلِّ معبود سوى الله، ولذلك بدأ شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالدعوةِ إلى عبادةِ الله وإفراده بالألوهية قبل أن يدعوَهم إلى الإيفاء بالكيل والميزان، وعدم ظلم الناس، وترك الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]. وهكذا الأنبياء نوح وهود وصالح عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم قالوا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، بل قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والواجبُ على الدُّعاة والْمُرَبِّين والمصلحين الاهتمامُ بالدعوة إلى التوحيد، وإلى عبادة الله، وهي وصيةُ الأنبياء وأبي الأنبياء: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا

(١) ولا يعني ذلك عدم الدعوة والنصح والإرشاد في المجتمعات والأماكن الأخرى، فلقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرسل صحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للتبليغ ونشر دعوة الإسلام، فلقد أرسلهم إلى القبائل، وإلى فارس، والروم، ومصر، واليمن، وعمان، وغيرها من البلدان. انظر: البداية والنهاية (٥٠٣/٤).

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣]، ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث معاذَ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى نحو أهل اليمن: «إنك تقدُم على قومٍ مِن أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يُوَحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنَّ الله فرض خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أنَّ الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ مِن غنِيِّهم فتُرَدُّ على فقيرِهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتَوَقَّ كرائمَ أموالهم»(١).

الوقفة الخامسة:

على المصلح والداعية والمربي التسلُّحُ بسلاح العلم والمعرفة والحجة والبينة، فهو أعظمُ سلاحٍ يُواجَه به الجهَّالُ والمجادلون، ويُدحَض به الشبهات والإشكالات، ويُنَوِّر به السائلين عن العلم والمعرفة، ويُبَصِّر به الناس، قال شعيبٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٨٨]، وهكذا قال صالح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما من نبيٍّ ورسول إلا وقد أيَّده اللهُ بالحُجَج والمعجزات التي تدل على أنه رسولٌ حقٌّ مِن عند الله.

وأعظمُ معجزةٍ وحجةٍ وبينةٍ خلَّدها الله لنا هي كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦، ٧٧].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى (١١٤/٩) (٧٣٧٢)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٣٧/١) (١٩).

وليعلم أنَّ التقصيرَ في جانِبِ العلم والمعرفة والحُجَّة والبيان يُؤَدِّي إلى ضَعف مَن يمارس عملية الدعوة والإصلاح والتربية أمام الخصوم المبطلين والدعاة المضلين، وقد ينجَرُّ للباطل والشبهات بسبب ذلك، ويؤدي كذلك إلى عدمِ إزالة الشبهات والإشكالات أمام السائلين والحائرين، وإلى ضعفِ الإسلامِ في نظرِهم.

الوقفة السادسة:

إنَّ في أمرِ شعيبٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قومَه بإيفاء الكيل والوزن وإكماله، والنهي عن نقصان الناس في أشيائهم، والنهي عن الإفساد في الأرض، إنَّ في أمره بذلك بعد أمره بعبادة الله وتوحيده لأعظمُ الدلالة على أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بُعِثوا للإصلاح الدينيِّ والدنيويِّ، ولإصلاح حال الخلق مع الخالق، وحال الخلق مع الخلق، وأنَّ دعوتهم ليست منحصرةً ومقصورةً على توحيدِ اللهِ وعبادته فقط، بل هي دعوة أيضاً إلى السلوك والقِيَم، ونبذ الظلم والفساد، وإعطاء الناس حقوقهم، والسعي بالإصلاح في الأرض وترك الفساد.

وعلى المصلحين والمربين والقياديين أن يحذوا حذوَهم في الإصلاح، وأن يهتموا بأمور الدين والدنيا والآخرة، ولا يفصلوا أمور الدنيا عن الدين، ولا أمور الدين عن الدنيا، ولقد أعلنها شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صراحةً لقومه حيثُ قال لهم: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨]، فكأنَّه حَصَر دعوتَه لقومه بالإصلاح، وصَدَق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «فالأنبياء بعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودينوي فهو مِن دين الأنبياء، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك»[1].

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص٣٦٤).

الوقفة السابعة:

إنَّ على المربين والمصلحين والدعاة أن يبدؤوا في أمور التربية والإصلاح والدعوة بالأهمِّ فالمهمِّ، فشعيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بدأ بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، ثُمَّ دعاهم إلى ترك المنكرات الأخرى المنتشرة والفاشية في مجتمعهم مِن النهي عن إنقاص الناس حقوقهم، وترك الإفساد في الأرض، والأمر بالإيفاء بالكيل، ومِن النهي عن تهديد الناس في الطرقات وسلبهم أموالهم، والصد عن دين الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦]، «بدأ الدعوة بالأمر بالتوحيد لأنَّه أساس العقيدة وركن الدين الأعظم، وقفّى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا؛ لأنَّ هذا كان فاشياً فيهم أكثر من سائر المعاصي، فكان شأنه معهم كشأن لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ بدأ ينهى قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم، فالبداية بدعوتهم إلى توحيد العبادة لأنه ركن الدين الأعظم الذي هدمته الوثنية، والتثنية بالأوامر والنواهي المتعلقة بحالهم الغالبة عليهم[1].

الوقفة الثامنة:

إنَّ في قصة مدين قوم شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأعظم واعظٍ وزاجرٍ لكلِّ مَن يتعامل بالكيل والوزن[2]، فليحذر كلَّ الحذر مَن نقص المكيال والميزان حينما يزن ويكيل للناس، والواجب عليه مراقبة الله والعدل في الوزن والكيل، ولا يظلم الناس وينقصهم حقوقهم، وعليه أن يوفيهم إياها كاملة من غير نقص.

(١) انظر: تفسير المنار (٨/٤٨٨، ٤٩٣).

(٢) وكذلك التعامل في حساب المساحات والمقاسات مثلًا للأراضي والملابس وغيرها، فالواجب في ذلك كله العدل وعدم الظلم.

ولقد نصح نبيُّ الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في ذلك، ونَوَّع لهم في النصيحة والأسلوب، فتارة يأمرهم، وتارة ينهاهم، وتارة يخص، وتارة يعم، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥][1]، وقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٥]، وقال: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]، والبخسُ أعمُّ مِن نقص المكيل والموزون؛ فإنَّه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وكلٌّ مِن البخسين فاشٍ في هذا الزمان، فأكثر التجار باخسون مُطَفِّفون مخسرون فيما يبيعون وفيما يشترون، وأكثر المشتغلين بالعلم والآداب وكتابة السياسة بخَّاسون لحقوق صِنفهم[2]. «فالآية عامة دالَّة على أنه لا يجوز نقص أي إنسان أي شيء من حقوقه»[3]. فيحرم عليك أيها المسلم أن تعيب سلعة أخيك، وأن تُزهِّده فيها، وأن تخدعه عنها، كل ذلك مِن أفعال الكفرة الحرام، وهذا يدل على أنَّ أموال الناس محترمة، وأنه لا يجوز لأحد أن يبخس أحد شيئاً، ولا ينقصه، فأموال الناس لا يجوز أخذُها[4]. وعلى الجهات ذات العلاقة في الحكومات من وزارة التجارة، والشؤون البلدية وغيرها تذكير التجار والممارسين للبيع والشراء أهمية العدل، وخطورة ظلم الناس حقوقهم وأشياءهم في البيع والشراء، وعلى هذه الجهات اتخاذ الوسائل المناسبة لتحقيق العدل، ونبذ الظلم، وتوعية الناس والمجتمع.

(١) تأمل لفظتي «الناس» و«أشياءهم»، «الناس» تشمل المؤمن والكافر، الذكر والأنثى، الصغير والكبير، الحر والعبد، و«شيء» تشمل كل شيء حسي أو معنوي، حسي في أموالهم أيّاً كانت هذه الأموال نقدية أم عينية كالأراضي، أو معنوية كتقدير الدرجات وكتابة التقارير. ويدخل في «أشياءهم» حقوق المراجعين للدوائر الحكومية والقطاع الخاص.

(٢) انظر: تفسير المنار (٤٨٨/٨).

(٣) معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٠٨).

(٤) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٥٨٧/٣).

الوقفة التاسعة:

لقد تنوعت دعوةُ شعيب عليه السلام لقومه بالإصلاح وترك الفساد، فتارة ينهاهم عن الفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي بعد إصلاحها ببعثة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وتارةً ينهاهم عن الفساد في الأرض بكلِّ ما يهدد صلاحها وإصلاحها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وتارةً يُخَوِّفهم بعاقبة المفسدين مِن قبلهم، فإنَّ عاقبتهم الدمار والهلاك في قوله تعالى: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، بل أخبرهم أنه ما يريد من دعوته إلى عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والوزن، وعدم بخس الناس أشياءهم إلا الصلاح لهم في دينهم ودنياهم وأعمالهم وقلوبهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨][1]. إنَّ هذا التَّنوُّع في الدعوة للإصلاح لَيدل على أهميته، وهذه الأمة مخاطبة بالصلاح والإصلاح فرداً فرداً، ولا سيما قادتها وأهل الحل والعقد فيها، وشعوبها تبع لهم في ذلك، فيتأثرون بصلاحهم وفسادهم.

وكلُّ واحد مِنَّا مطالب بإصلاح نفسه وأهله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، فإنَّ في صلاح النفس والأسرة صلاحٌ للمجتمع والبلد. «إنَّ الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام، وإصلاحها هو ما يصلح به أمرها وحال أهلها من العقائد الصحيحة، المنافية لخرافات الشرك ومهانته، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فقد أصلح اللهُ تعالى حالَ البشر بنظام الفطرة وكمال الخلقة، ومَكَّنهم من إصلاح الأرض بما آتاهم من

(١) أفدت بيان معاني الآيات من المختصر في التفسير (ص١٦١).

القوى العقلية والجوارح، وبما أودع في الأرض من السنن الحكيمة، وبما بعث به الرسل من مكملات الفطرة، فالإفساد إزالةُ صلاحٍ أو إصلاح، وقد كان قومُ شعيبٍ مِن المفسدين لِلدِّين والدُّنيا كما يُعْلَم مِن الآيات»[1].

الوقفة العاشرة:

إنَّ فيما ذكر الله عن نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قال لقومه ناهياً ومُحَذِّراً: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] لَنَهي وتحذيرٌ لكلِّ مَن اتَّخذ الطرق الحسية والمعنوية، وقعد يهدد ويتوعد بالأذِيَّة والضرر لِمَن سلك دين الله وتَمَسَّك بشرعه وسبيله، وأخذ يسعى بالصدِّ عن دين الله لِمَن أراد الاهتداء به، وهمُّه وطلبُه أن يكون دين الله وسبيله ومنهجه مُعْوَجّاً.

وما أكثر هؤلاء في هذا الزمانِ، فقد امتطوا عدة وسائل لأجل ذلك، فقد امتطوا وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية للنيلِ مِن الإسلام وأخلاقه وآدابه والتشكيك فيها، وهم بِفعلهم هذا يَصُدُّون مَن أراد دخولَ هذا الدين العظيم والتعرُّف عليه والقراءة عنه، وكذلك يَصُدُّون أهلَه بالتَّمَسُّك بِشُعَب الإيمان والمحافظة عليها، والتَّزَوُّدِ منها.

لقد نهى نبيُّ الله شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَه عن ثلاثة أشياء:

أولها: قعودهم على الطرقات التي توصل إليه، يخوفون مَن يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته.

ثانيهما: صدُّهم مَن وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين.

ثالثهما: ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عِوَج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها[2].

---

(١) تفسير المنار (٤٨٩/٨).

(٢) انظر: تفسير المنار (٤٩٤/٨).

«فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ منع القومَ مِن أن يمنعوا الناس مِن قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاثة. وإذا تأملت علمت أنَّ أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة»[1].

الوقفة الحادية عشرة:

لقد جمع نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في أسلوب دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، فقال مُرَهِّباً: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وقال مُرَغِّباً: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠][2]. وصور الترغيب والترهيب ظاهرة في دعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ترغيب، وقوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤] ترهيب.

وهكذا ينبغي على الْمُرَبِّين والمصلحين والدعاة أن يجمعوا بين أسلوب الترغيب والترهيب، فالترغيب للإقدام والإقبال والمسارعة لكل ما فيه خير وصلاح، والترهيب للابتعاد والتحذير والترك لكل ما فيه شرٌّ وضرر وفساد.

الوقفة الثانية عشرة:

إنَّ مِن أعظم صفات المربي والداعية والمصلح والناصح ألا يخالف قولُه وفعلُه ما يدعو إليه، فإنَّ ذلك مِن أسباب نزع الثقة فيهم وفي منهجهم، ولذلك قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]؛ «أي: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أوَّل مَن يتركه، وهذه هي الصفةُ المحمودةُ العظيمةُ، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تَلَبَّس بها علماءُ

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٣/٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧٣/١)، وتفسير فتح القدير للشوكاني (٧٢٢/٢)، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٣/٨).

بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤتَى بالرجل فيُلقى في النار، فتتدلق أقتاب بطنه - أي: تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»(١).

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي(٢).

الوقفة الثالثة عشرة:

على المربي والمصلح التذكير بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، كَثَّر عددكم بعد القلة، وكَثَّركم بالغِنى بعد الفقر، وكَثَّركم بالقدرة بعد الضعف.

فالعبدُ والمرءُ إذا تَذَكَّر نعمةَ الله عليه وكثرتها حملَه ذلك على شكر المنعم، وهو الله المستحق للثناء والحمد والشكر، وحمله كذلك على طاعته والبعد عن معصيته(٣).

وعلى العبد أن يتذكَّر نِعَم الله عليه، ولذلك حينما أراد الملأُ الذين استكبروا مِن قوم شعيب إكراه مَنِ اتبع شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ للعودة إلى الكفر تذكَّروا نعمةَ الله عليهم حينما نجَّاهم مِن الكفر، قال تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (١٢١/٤) (٣٢٦٧)، وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة مَن يأمرنا بالمعروف ولا يفعله وينهي عن المنكر ويفعله (٢٢٤/٨) (٢٩٨٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٧٢/١).

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٣/٧).

﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فنسبوا النجاةَ مِن الكفر والهداية لتوحيده لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا اعترافٌ منهم وإقرارٌ بفضل الله عليهم، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه العبد.

الوقفة الرابعة عشرة:

قد يتعرضُ المسلمون والمؤمنون والدعاةُ والمصلحون إلى الأذِيَّة الشديدة، والإخراج من بلدانهم ومجتمعاتهم التي وُلِدوا ونشأوا فيها، وما أشد ذلك على النفس، أو التهديد بذلك من الظلمة والكفار والطغاة والمستكبرين. وحال هؤلاء المؤمنين حال مَن قال الله فيهم: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. وليتذكر هؤلاء المؤمنون قولَ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وقول الله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨]، وقول الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ففي هذه الآيات أعظم العزاء والمواساة لهؤلاء المؤمنين المضطهدين، وفيها دعوة للتمسك والثبات بهذا الدين، والصبر على ما يتعرضون له، وهذه سُنَّةُ الله.

الوقفة الخامسة عشرة:

مهما بلغ إعراض المعرضين، وتكذيب المكذبين، واستهزاء المستهزئين، فإنَّ ذلك لا يكون عائقاً عن دعوة الناس، وتربيتهم، وإصلاحهم، فلا تترك الدعوة والإصلاح والتربية لأجل الإعراض والتكذيب والاستهزاء، فهذا شعيب عليه السلام حينما واجهَه المكذبون والمعرضون والمستهزئون بقولهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]،

وبقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]، وبقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وبقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، وبقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨]، استمرَّ في دعوتهم إلى عبادة الله، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، ولم يترك دعوتهم إلى أن حقَّ عليهم عذاب الله ونزل به.

وهذا حال إخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٩]، ووظيفة الرسل البلاغ والإنذار، والهداية مِن الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

الوقفة السادسة عشرة:

على العبد أن يُظهِر توكلَه على الله في جميع أموره، في الرخاء والشدة، فَيُسْنِد أموره ويفوضها لله، ويحسن توكله واعتماده عليه جَلَّوَعَلَا، فهو الذي بيده مقاليد الأمور.

وحينما هدَّد الملأ الذين استكبروا من قوم شعيب شعيباً ومَن آمن معه بالإخراج مِن القرية، كان ردُّهم عليهم عند سماعهم هذا التهديد مِن أعدائهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] «اعتمدنا على الله في أن يُثَبِّتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله»[1]، و﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ مفيدٌ للحصر، أي: عليه تَوَكَّلنا لا على غيره،

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني (٣١٩/٢).

وكأنَّهم في هذا المقام عزلوا الأسباب، وارتقوا عنها إلى مسبب الأسباب. وفي هذه الآية وفي قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما في آية هود: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومفيدة للحصر أيضاً، وهو أنه لا ينبغي للإنسان أن يتوكل على أحد إلا على الله تعالى(١).

الوقفة السابعة عشرة:

إنَّ في دعاء شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] لَدليلٌ عظيمٌ على أهمية الدعاء في حياة العبد، وألا يقلل مِن شأنه وأهميته، فعلى العبدِ أن يدعوَ الله في الأمور العظيمة، والأمور الحقيرة، يدعوه في الرخاء والشدة، في السراء والضراء.

والدعاء أعظم ما يستنصر به على الأعداء، كما صنع شعيب وإخوته الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، «فقد دعا شعيب وأتباعه ربَّهم أن يحكم بينهم وبين القوم الكافرين بالحق، فينصر صاحب الحقِّ المظلوم على الظالم المعاند، فأنت يا رب خير الحاكمين»(٢).

الوقفة الثامنة عشرة:

لِيعلم العبد أنَّ التوفيق بيد الله وحده، وقد قال شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] وهذا أسلوب حصر، فالتوفيق لا يملكه أحدٌ غيرُ الله، وإذا علم العبد ذلك فليطلبه مِن الله، ولو يملكه أحدٌ لملكه الناس لأقاربهم ولأعز مَن يريدون، وبالأخص الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سَمَّى إرادته الإصلاح توفيقاً، وجعله مِن الله، لا يحصل في وقت إلا بالله؛ أي: بإرادته(٣). والتوفيق: جعل الشيء وفقاً لآخر؛ أي: طبقاً له، وهو ضد الخذلان، وهو الفوز والفلاح، ولا يكون إلا مِن

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (١٨٨/٧، ٤٨/٩).
(٢) انظر: المختصر في التفسير (ص١٦٢).
(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٦/١١).

الله وحده، فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وما توفيقي لإصابة ذلك فيما أستطيعه منه إلا بحول الله وقوته، وفضله ومعونته، وأعلاها ما خصَّني به دونكم مِن نبوته ورسالته(١).

الوقفة التاسعة عشرة:

على العبد أن يُعَلِّق أموره المستقبلية بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم وحال الصالحين، فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومُه قالوا لَمَّا أرادهم قومُهم على الكفر بالله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولقد أدَّب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣]، وقال إسماعيل لوالده إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقال والد الفتاتين الصالح: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، وقالت بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۚ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، فلنتأدَّب بهذا الأدب الرباني، والهدى النبوي.

«وفي رد شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه بقولهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] دلالة على أنَّ الإنسان لا يغترُّ بإيمانه وصلاحه، فإنَّ الأنبياء والصالحين عَلِموا أنَّ ثباتهم على الدين إنما هو بمشيئة الله، لا من عند أنفسهم»(٢).

(١) انظر: تفسير المنار (١١٨/١٢)، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٣١٦/١١).
(٢) انظر: القرآن تدبر وعمل (ص١٦٢).

الوقفة العشرون:

مَن أنعم اللهُ عليه بقريبٍ أو بقبيلةٍ أو جماعةٍ أو مسؤولٍ له شأنٌ ووزنٌ ومكانةٌ في المجتمع فليستغلَّ ذلك كله في الدعوة والإصلاح، فإنَّ القبيلة والقرابة والمسؤولين يحمون مَن ينتمي إليهم، والناس كذلك تُقَدِّرُ وتحترم هؤلاء، حتى وإن لم يوافقوه على دعوته وإصلاحه، وقد قال قوم شعيب لشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود: ٩١]. «وهذه الآية تدل على أنَّ المسلم - وإن كان لا يجوز له أن يدعو إلى الرابطة العصبية - لا مانع مِن أن ينتفع بعصبيته ضد أعداء دعوته، وإن كانوا لا يَمُتّون إلى الدين بصلة، وإنما يَنْصُرون بعواطفهم النّسبية، فيمنعون عنه الشرَّ، وقد وقع مثل هذا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمه أبي طالب، حتى لم تستطع قريش أن تؤذيه في حياته، ولا تخرجه من بلده، وما ذلك إلا عصبية قومية نَسبية لا تَمُتُّ إلى الإسلام بصلةٍ، نفع الله بها هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اجتمع قومُ صالحٍ وتحالفوا على قتلِه سِرّاً بالليل خشيةَ أن يَطَّلِعَ أهلُه على ذلك فيوقعوا بهم، كما قال تعالى: ﴿**وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ**﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]. ونبيُّ الله لوطٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تَمَنَّى أن تكون له عشيرةٌ يرجع إليها تناصره على قومه الذين عصوه وأرادوا الاعتداء على ضيفه، كما قال تعالى عنه: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: ٨٠]، فلو كان معه عشيرة وعصبية لدافعوا عنه، فالعصبية ربما نفعت، ولكن لا تُجعل رابطةً ينادى بها، فإنَّ ذلك ممنوع بالكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين»[1]. وقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُ نفسَه على القبائل لتنشر الإسلام، ولحمايته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتبليغ الإسلام؛ فوفَّق اللهُ الأنصارَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٢١).

الوقفة الحادية والعشرون:

على الداعية والمصلح والواعظ أن يتقي الله في دعوته، فلا يطمع[1] في مال أو أي ثواب أو أي عَرَض مِن أعراض الدنيا، حاله حال نبي الله شعيب وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وهكذا قال إخوته نوح، وهود، وصالح، ولوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على ما أنا فيه من ادِّعاء الرسالة لئلا يظن أنَّه دعاهم للرغبة فيما عندهم[2].

الوقفة الثانية والعشرون:

على الداعية والمصلح والواعظ والمربي أن يُخَوِّفَ الناس من عذاب الله، وأن يخوف كذلك بعاقبة المكذبين، فشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٧٩]. وحذرهم كذلك عاقبة المكذبين مِمَّن قبلهم، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وحينما أرسلت قريشٌ عتبة بن ربيعة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتكلم معه في الكف عن تبليغ دعوة ربه، وعرض عليه ما تريد قريش، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ

(١) ولا أقصد من ذلك أنه لا يجوز أخذ المال مطلقاً، وإلا فإن الواقع الدعوي وبالذات في هذا العصر يحتم علينا أن نفرغ الدعاة في سبيل الله لأجل الدعوة، وأن نكفيهم لقمة العيش وما يحتاجونه من متطلبات الحياة. وانظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/٢٦).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٥٥/١٢).

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ - ١٣]، فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، فرجع إلى أهله ولم يخرج لقريش(١).

الوقفة الثالثة والعشرون:

على العبد أن يرضى بما قسم اللهُ له من الرزق، ولا يسلك مسالك في جلب الرزق لم يأذن بها الله ولم يرضها لعباده. ولقد قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليلٌ للنهي؛ أي: لا تنقصوا المكيال والميزان لأني أراكم بخير؛ أي: بثروةٍ واسعةٍ في الرِّزق، فلا تُغَيِّروا نعمةَ الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففي هذه النعمة ما يغنيكم مِن أخذ أموال الناس بغير حقها.

وقال لهم أيضاً: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] أي: ما يُبقِيه لكم مِن الحلال بعد إيفاء الحقوقِ بالقسطِ أكثر خيراً وبركة مِمَّا تُبقونه لأنفسكم مِن التطفيف والبخس والفساد في الأرض(٢).

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ الذي أغناه الله بمال لا يجوز له أن يطمح إلى حقوق الناس، وأنَّه يُغضِب اللهَ إن فعل، بخلاف المضطر الجائع الذي لا يجد شيئاً، فقد يُعْذَرُ في الجملة، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩](٣).

ودَلَّ قولُه تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنَّ الشيء القليل الذي يبقى لكم طاهراً مع تجنب المكوس والتطفيف، فإنَّه خير مما تأخذونه بلا وجه شرعي(٤).

---

(١) انظر: تفسير الكشف والبيان للثعلبي (٢٦٤/٢٣).
(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (٧٢٠/٢).
(٣) انظر: معارج الصعود إلى تفسير سورة هود (ص٢٠٦).
(٤) المصدر السابق (ص٢٠٩).

الوقفة الرابعة والعشرون:

على الدعاة والخطباء والإعلاميين الاستفادة من طريقة وأسلوب شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مخاطبته وحسن حواره ودعوته لقومه ورَدِّهِ وحِلمه عليهم حينما اسْتَفَزَّه واستهزأ به قومه، وقد تقدم أنه سُمِّي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بخطيب الأنبياء(١).

الوقفة الخامسة والعشرون:

إنَّ النَّاظِر والمتأمِّل لقصة نبيِّ الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يظهر له ظهوراً جلياً اهتمامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بإصلاح الجانب الاقتصادي لقومه، وهي دعوةٌ للقادة والحكام والولاة والساسة أن يهتموا بهذا الأمر ويُوْلُوه اهْتِمامهم وعنايتهم، ولْيُعلم أن أهم مقومات الشعوب والأمم والبلدان النمو الاقتصادي، والأمن المجتمعي، قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ**﴾ [قريش: ٣، ٤]، فقصة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أفادت عدم نقص الكيل والميزان، وعدم الإفساد في الأرض، وعدم بخس الناس أشياءهم، ويدخل في ذلك أخذ الرشوة، وعدم قطع الطريق، إلى غير ذلك مِن الفوائد التي تظهر للقارئ المتأمل، وهذا اهتمامه بالنمو الاقتصادي، ولذلك كان رد قومه عليه: ﴿**قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ**﴾ [هود: ٨٧]، ففي قوله: ﴿**أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ**﴾ ظاهرٌ سَعْيُه للإصلاح الاقتصادي.

وأمَّا ما يتعلق بالأمن المجتمعي فقد ظهر جليّاً في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٨٦].

الوقفة السادسة والعشرون:

لقد كان نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُمَثِّلُ النبي المبلغ عن الله لقومه، ويُمَثِّل كذلك الحاكم والوالي الشرعي على قومه، وإنَّ في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ**

(١) في المبحث الثاني، والحمد لله وجد في هذا العصر دورات تدريبية لتطوير الذات في مجالات شتى، فعلينا أن نطور ذاتنا في الدعوة إلى سبيل الله، ونختار من هذه الدورات الصالح والأحسن لنا.

﴿مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] لأعظم رسالة ونصيحة لِكُلِّ مَن وَلِيَ ولاية كبيرة كانت أم صغيرة، أن يجعل تطبيق النظام واللوائح والقانون أمام عينيه، فيكون أول المطبقين لها والممتثلين لتشريعاتها، وأعظم ما يُمتثل ويُطَبْق هو كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعله الله صالحاً لكل زمان ومكان، وهناك أنظمة وقوانين لا تخالف الكتاب ولا السنة، بل هي مِن المصالح والتنظيمات التي في الغالب لا تخرج عن الكتاب والسنة أو لا تخالفهما.

فلو أنَّ المسؤولين كانوا أول العاملين بالأنظمة والقوانين لَعَمَّ الصلاح والإصلاح، ولتبعهم في ذلك الرعية الذين تحت أيديهم.

الوقفة السابعة والعشرون:

على العبد أن يستغفر الله، فيطلب المغفرة منه، ويتوب إليه من ذنوبه، ولقد أمر نبيُّ الله شعيبٌ قومَه بالاستغفار والتوبة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، فالله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بالتائبين، ومُحِبٌّ لهم، كما دلَّ عليه وصفه بالودود، ومن أراد أن يكسب رحمة الله ومحبته فليتب إلى الله وليستغفره من ذنوبه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وتأمَّل في هدي مَن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان تُعَدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «رب اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور»(٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٦٧/٨) (٦٣٠٧).
(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذ اقام من المجلس (ص٧٨١) (٣٤٣٤)، وقال الترمذي عقب إخراجه: هذا حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، انظر نفس الإحالة.

الوقفة الثامنة والعشرون:

على العبد أن يكون غضبُه لله لا لأجل نفسه، وأن يغارَ لله ولشرعه ودينه، فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما قال له قومه: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، فلم يردَّ عليهم انتصاراً لنفسه وغضباً لها، بل غضب لأجل الله، وأخذته الغيرة لله ولدينه، فقال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢].

الوقفة التاسعة والعشرون:

إنَّ الناظر والمتأمل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥]، ولقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، إنَّ المتأمل في ذلك كله ليدرك أنَّ العزة والغلبة لأمر الله جَلَّ وَعَلَا وإن علا أمرُ الباطل في بعض الأحيان، ولقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. وعليه فينبغي للعبد ألا يتوقف عن نصر دين الله والدعوة إليه وإن لم ير النتائج أمام عينيه، فما عليه إلا البلاغ، والهداية والتوفيق بيد الله، قال تعالى: ﴿إِنْ

﴿عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وحينما يعلم العبد أن العاقبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فإنَّه يبقى متفائلاً في هذه الحياة، ولا مكان لليأس في حياته.

الوقفة الثلاثون:

على العبد أن يأخذ العظة والعبرة من كتاب الله على وجه العموم، ومن قصص الأنبياء على وجه الخصوص، فبعد أن ذكر الله قصة شعيب عليه الصلاة والسلام في سورة الشعراء، قال في نهاية القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠]، بل تكررت هذه الآية من هذه السورة في قصة كل نبي ذكر فيها عليهم السلام، وما ذلك إلا لأهمية أخذ العظة والعبرة من قصصهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

الوقفة الحادية والثلاثون:

على العبد أن يحذر من الظلم وعاقبته، ليحذر من ظلم نفسه، وليحذر من ظلم غيره، فالظلم عاقبته أليمة، ولقد انتقم الله من قوم شعيب حينما ظلموا، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة[١].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٤٤/٤).

الخاتمة

الحمد لله على ما أنعم ووفق في الكتابة في هذا البحث والعيش مع كتاب الله وآياته، وإليك أيها القارئ الكريم بعض النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث:

١. أهمية تدبر القرآن العظيم، وليعلم العبد أنَّ التدبر أمر زائدٌ على مجرد القراءة والاستماع.

٢. ليجعل قارئ القرآن هدفه الأكبر والأعظم هو القراءة بالتدبر، لا الختم والإكثار دون تدبر وتأمل لما يقرأ، فالقراءة بتدبُّر وتأمل وإن كانت قليلة المقدار أفضل من القراءة الكثيرة جدّاً دون تدبر، وتقدمت الآثار الدالة على ذلك.

٣. لقد أمر الله عباده بالتدبر لكلامه، ووَبَّخ وذَمَّ مَن لم يتدبر كلامه، فليحذر العبد أن يكون ممن ذمه الله ووبخه.

٤. إنَّ مِن أعظم ثمرات التدبر لكتاب الله أن يظهر أثر ذلك على القلب والجوارح، فيزداد إيمان العبد، ويمتثل ما ورد في كتاب الله من أوامر أو نواهي.

٥. على العلماء وطلبة العلم والمتخصصين أن يُبَيِّنوا للناسِ أهمية تدبر كتاب الله، ويوضحوا لهم طُرُق ذلك، ويعينوهم على تحقيق تدبر كتاب الله، ومن المهم أن تكون لهم مع الناس وقفات تدبرية لكتاب الله وآياته.

٦. على المربي والمصلح والداعية والناصح أن يكون رفيقاً حليماً بحال مَن يوجهه ويرشده، كما أنَّ عليه أن يبدأ بالأهم فالمهم في ذلك.

٧. أهمية العلم والحجة والبينة للمصلحين والدعاة والمربين.

٨. إنَّ مِن أهم أسباب نزول عذاب الله وهلاك الأمم والشعوب هو الاستكبار عن الإيمان بالله والسعي في الأرض بالفساد وظلم الناس وبخسهم حقوقهم.

٩. إنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بُعِثوا بالإصلاح الديني والدنيوي.

١٠. على المربي والمصلح والواعظ والداعية والناصح أن يُنَوِّع في الأساليب والطرق لتتناسب مع حال الناس.

١١. إنَّ السعي لإصلاح الجانب الاقتصادي، والاهتمام بأمن المجتمعات مِن أهم الأمور التي تساعد على استقرار الشعوب والبلدان.

١٢. على العبد ألا يخالف قوله فعله.

١٣. العزة لله ولدينه ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين، وإن طال ليل الظالمين والمفسدين والمتكبرين والطغاة والكافرين.

ومن التوصيات التي أوصي بها:

١. زيادة التأمل والاستنباط والتدبر لقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ودعوة الباحثين لذلك، فالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانوا يسوسون ويرعون أقوامهم بالمنهج والطريقة التي بينها الله لهم، وعلينا الاقتداء بهم؛ لأنهم جمعوا بين الإصلاح الديني والدنيوي.

٢. الاهتمام بموضوع التدبر في المؤسسات التعليمية، وحِلَق القرآن الكريم، واتخاذ مناهج تأصيلية وتطبيقية مناسبة لذلك.

المراجع والمصادر

- **أخلاق حملة القرآن**: لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ)، حققه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- **البداية والنهاية**: للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤هـ)، حققه: د. محي الدين ديب مستو وآخرون، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبي الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- **تدبر القرآن الكريم (دراسة تأصيلية)**: لمحمد بن عبد الجواد الصاوي، رسالة دكتوراه بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد بن عبد العزيز العواجي (١٤٣٦ - ١٤٣٧هـ)، غير مطبوعة.
- **تدبر القرآن الكريم**: لعبد اللطيف بن عبد الله التويجري، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ)، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض.
- **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**: تأليف: الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ)، والشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ)، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **تفسير القرآن العظيم**: لأبي الفداء ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، المعروف بتفسير ابن كثير، الطبعة الثانية (١٤٢٥هـ)، دار طيبة، الرياض، الإصدار الثاني، تحقيق: سامي محمد سلامة.
- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: للإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، المعروف بتفسير الفخر الرازي، (١٤٢٣هـ)، دار الفكر، بيروت، قدم لها: خليل محي الدين الميس.
- **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المعروف بتفسير الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ)**: صححه: محمد عبد السلام شاهين، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ - ١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **تفسير النسفي المسمى مدارك التنْزيل وحقائق التأويل**: للإمام عبد الله بن أحمد النسفي (٧١٠هـ)، تحقيق: الشيخ مروان محمد الشعار، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، دار النفائس، بيروت.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ)، اعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ)، دار ابن الجوزي، الدمام.
- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**: الطبعة الثانية (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة.
- **الجامع الصحيح (صحيح البخاري)**: تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، اعتناء: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).
- **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المعروف بجامع الترمذي**: للإمام الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، والطبعة بأحكام العلامة الألباني، واعتنى بها: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.
- **الخلاصة في تدبر القرآن الكريم**: للدكتور خالد بن عثمان السبت، الطبعة الأولى (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، دار الحضارة، مركز تدبر للدراسات والاستشارات، الرياض.
- **سنن سعيد بن منصور (٢٢٧هـ)**: دراسة وتحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميد، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، دار الصميعي، الرياض.
- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: تأليف: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- **صحيح ابن خزيمة**: لإمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان.
- **صحيح مسلم المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١هـ)، تشرف بخدمته والعناية به: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م)، دار المنهاج، جدة، دار طوق النجاة، بيروت.
- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**: للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، الطبعة الثانية (١٤٢٦هـ)، دار عالم الفوائد، مكة، ضمن آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي.
- **غرائب التفسير وعجائب التأويل**: للشيخ تاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: الدكتور شمران سركال يونس العجلي، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.
- **فتح القدير**: لمحمد بن علي الشوكاني، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ)، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.
- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: لأبي عبيد القاسم بن سلام، دراسة وتحقيق: الأستاذ أحمد بن عبد الواحد الخياطي، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- **الفوائد**: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **القرآن تدبُّرٌ وعمل**: مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي، الطبعة الرابعة (١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)، دار القلم، دمشق.
- **قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله** : لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الخامسة (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)، دار القلم، دمشق.

- **كتاب العين**: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)، دار التفسير، جدة، مجموعة محققين.
- **المختصر في التفسير**: إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)، الرياض.
- **مختصر منهاج القاصدين**: للإمام نجم الدين أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، شرح وتحقيق: رضوان جامع رضوان، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة.
- **المستدرك على الصحيحين**: للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة، بيروت، طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة، بإشراف: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي.
- **معارج التفكر ودقائق التدبر**: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، دار القلم، دمشق.
- **معارج الصعود إلى تفسير سورة هود**: لفضيلة الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)، كتب عن فضيلة المفسر هذا التفسير: تلميذه عبد الله بن أحمد قادري، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الخبر.
- **معجم مقاييس اللغة**: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب، الآنسة فاطمة محمد أصلان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، دار إحياء التراث، بيروت.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **المقاصد القرآنية**: أعده د. محمد بن عبد الرحمن الربيعة، وآخرون، مقررات الدبلوم العالي لإعداد معلمي التدبر (١٤٣٨ - ١٤٣٩هـ).
- **مقرر تدبر القرآن الكريم للدراسات العليا**: رئيس فريق إعداد المنهج: أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى (١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م)، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة.
- **هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن**: ليوسف بن حسن بن عبد الهادي الشهير بابن المبرد (٩٠٩هـ)، تحقيق ودراسة: محمد أنور صاحب بن محمد عمر، رسالة دكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، إشراف: الأستاذ الدكتور حكمت بشير ياسين، العام الدراسي (١٤١٨ - ١٤١٩هـ)، وهي غير مطبوعة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١٨٥
المقدمة	١٨٦
المبحث الأول: في الكلام عن التدبر وقصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	١٩٠
المطلب الأول: تعريف التدبر	١٩٠
المطلب الثاني: العلاقة بين التدبر والتفسير، والتدبر والاستنباط	١٩٢
المطلب الثالث: وقفة مع آيات التدبر، وبيان أهميته وأهمية تدبر قصص القرآن	١٩٣
المطلب الرابع: الأمور المعينة على التدبُّر	١٩٩
المطلب الخامس: ثمرات التدبر	٢٠١
المطلب السادس: قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	٢٠٢
المبحث الثاني: الوقفات التدبرية من قصة شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه أهل مدين	٢٠٦
الخاتمة	٢٢٩
المراجع والمصادر	٢٣١
فهرس الموضوعات	٢٣٦

أخبار المجمّع

- مواصلة العمل في تحقيق كتاب «إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي» وفق ما يلي:

١. البدء في صياغة المقدمة، وتتضمن الصياغة الأولية ما يلي:

١/١- دراسة المؤلف والكتاب دراسة تفصيلية.

١/٢- وصف النسخ الخطية التي اعتُمدت في التحقيق.

١/٣- بيان منهج التحقيق في كل جوانبه.

٢. مراجعة توثيق الحواشي المثبتة على الكتاب.

٣. النظر في مشكلات النص المحقق في ضوء النسخ الخمس عشرة الخطية المعتمدة في التحقيق.

- البدء في صفّ «معجم كتاب المصحف الشريف» إلكترونياً بعد الفراغ من إعداده.
- المراجعة النهائية لـ «المعجم الميسر لموضوعات القرآن الكريم» تمهيداً لصفِّه.
- المشاركة في الأعمال العلمية لندوة «تعليم القرآن الكريم لذوي الاحتياجات الخاصة، تقويم للواقع واستشراف للمستقبل».
- تم تسليم كتابَي «ببليوغرافية ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات السلافية» و«موسوعة الأعلام الغربية التي لها صلة بالقرآن الكريم» إلى إدارة الشؤون الفنية لطباعتهما.
- البدء في مراجعة الترجمة الأورومية الصوتية بعد تصحيح الأخطاء الفنية.
- إبرام عقد مع مترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصربية.
- انتهاء الدكتور أسعد نمر بصول من الإشراف العلمي على الترجمة العبرية، وسيتم طباعتها بعد اعتماده لها إن شاء الله.

- مراجعة الترجمات التالية من الناحية الفنية لتهيئتها للطبع:
  - الليزكية.
  - البلوشية.
  - العفرية.
  - اللنغالا.
- تسلُّم النسخة المترجمة من كتاب «أصول الإيمان» إلى اللغة المليبارية.
- قاربت مراجعة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة الزولو النهاية.
- إن عمل اللجنة العلمية لمراجعة المصحف يتناول المصاحف المطبوعة، والمصاحف المرتلة، كما يشمل ما يرد إلى المجمع من مصاحف مخطوطة ومطبوعة من الجهات الرسمية داخل المملكة وخارجها، وذلك بغرض مراجعتها وكتابة تقرير عنها.

كما يتناول أيضاً ما يرد إلى اللجنة من استفسارات حول مراجعة المصاحف وطباعتها والبحوث المتعلقة برسم القرآن الكريم وضبطه، وعلامات الوقف، وكذا كل ما يتعلق بعلوم القرآن بشكل عام، وتقوم اللجنة العلمية أيضاً بمراجعة عينات من جميع المستخلصات المقروءة والمسموعة التي يصدرها المجمع للتأكد من سلامة النص القرآني.

كما تشارك اللجنة العلمية في إقامة الدورات التجويدية التي يقيمها المجمع كل عام برواية حفص عن عاصم الكوفي من طريق الشاطبية، وذلك ابتداء من عام (١٤١٩ - ١٤٢٠هـ) حتى الأن، وقد تخرج في هذه الدورات على امتداد عشرين عاماً (٤٣٥) من الدارسين.

- المصاحف التي تمت مراجعتها من قبل اللجنة العلمية لمراجعة المصحف الشريف وإصدارها على النحو التالي:

١. مراجعة المصحف الحاسوبي وفق رواية البزي.
٢. مراجعة أولية للمصحف الحاسوبي وفق رواية قنبل.
٣. الانتهاء من مراجعة المصحف المعد للطباعة برواية ورش.
٤. الانتهاء من مراجعة مصحف حفص الحاسوبي الخط السميك.

٥. مراجعة مصحف المدينة النبوية وفق رواية ورش عن نافع المدني (المخطوطة المعالجة رقمياً).

- المصاحف المرتلة بالمجمع:

١. الانتهاء من سماع التسجيل (وفق رواية شعبة) بصوت الشيخ/ علي الحذيفي، وتم إدخال الملاحظات التي ظهرت للّجنة ومازال تحت المراجعة النهائية.

٢. الانتهاء من سماع التسجيل (وفق رواية السوسي) بصوت الشيخ/ عثمان صديقي، وتم إدخال الملاحظات التي ظهرت للّجنة.

٣. الانتهاء من سماع التسجيل (وفق رواية الدوري) بصوت الشيخ/ عبدالله عواد الجهني.

٤. مواصلة مراجعة تسجيلات المصحف المرتل (وفق رواية حفص) حتى الآية (٦٦) من سورة الزمر بصوت الشيخ/ ماهر المعيقلي.

- وقَّع المجمعُ عقد تصميم تطبيق «مصحف المدينة النبوية» على نظامي (Android, IOS) والعمل جار على برمجته ثم إطلاقه على هاتين المنصتين.

ويَعْرِض التطبيق نسختين عاليتي الدِّقَّة من «مصحف المدينة النبوية»، وذلك بشكل طولي أو عرضي، ويدعم التطبيق ثلاث عشرة لغة عالمية، ويحتوي على خاصية البحث السريع، والإشارة المرجعية، والقراءة الليلة، وعلى مشاركة صفحات المصحف عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والتذكير بقراءة سورة من السور، ومتابعة الورد اليومي، والأسبوعي، والشهري للتلاوة، وإمكان الانتقال إلى صفحات المصحف على مستوى الصفحة، أو السورة، أو الربع، أو الحزب، أو الجزء.

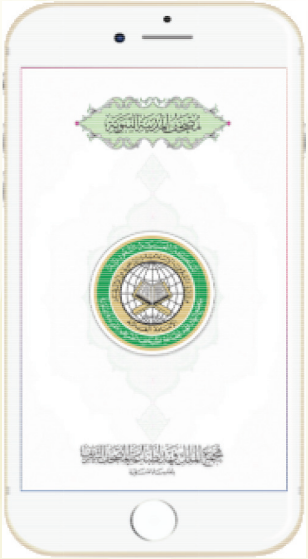

ويحوي التطبيق تسجيلاً صوتياً لأربع روايات قرآنية في تسعة مصاحف مرتلة، وسبعَ ترجمات نصِّية إلكترونية كاملة من ترجمات معاني القرآن الكريم المتعددة التي أصدرها المجمع، وسبعَ ترجمات صوتية كاملة من ترجمات معاني القرآن الكريم المتعددة التي أصدرها المجمع، ويضم «التفسير الميسَّر»، وعدداً من الكتب العلمية الصادرة عن المجمع، مع خيار تنزيلها أو خيار التصفح لها فقط دون تنزيل.

وفي التطبيق العديد من الخصائص الابتكارية كذِكْر سبب تسمية كل سورة، وأسمائها التوقيفية والاجتهادية، وعَرْضِ نصوص القرآن الكريم في نتائج البحث، وفي الكتب العلمية بخط الرسم العثماني المخصص للأجهزة الذكية. وانفرد عن التطبيقات الأخرى المشهورة بمجموعة من المزايا، مثل: تمكين المستخدم من خاصية متابعة ورده في قراءة القرآن الكريم وختمه وَفْق تحزيب الصحابة، وعرض صفحات المصحف بطريقة تقليب الكتاب (flip)، والتقليب التلقائي، وإمكان تمييز نص الآيات القرآنية في المصحف بلون مغاير عند النقر عليها أو أثناء التلاوة، وتمييز كلمات غريب القرآن الكريم على صفحة المصحف بلون مغاير، مع التحكم في إظهار التلوين أو إخفائه.

كما يمتاز التطبيق بمحرك بحث عالي السرعة والدقة، وفق عدد لغات التطبيق، بمزايا بحث

متقدمة. وسيتم إطلاقه بعون الله تعالى على منصتي: أندوريد وأبل (Android, IOS) في مطلع شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٠هـ) الموافق أوائل شهر فبراير من عام (٢٠١٩م).

- درس مركز البحوث الرقمية التصاميم والمخطط الهيكلي المقدم من الشركة المبرمجة لتطبيق: «مصحف المدينة النبوية» على منصتي أندرويد وأبل (Android, IOS).

- قام مركز البحوث الرقمية في المجمع بتهيئة «مصحف المدينة النبوية غير الموجَّه» للنَّشْر الرقمي؛ نظراً لأن «مصحف المدينة النبوية» الذي كتبه خطاط المجمع عثمان طه، في المجمع برواية حفص عن عاصم، الذي لم يُلتزم في كتابته انتهاء صفحاته برأس آية - وهو أولُ مصحف خطَّه في المجمع - له قاعدة عريضة من القراء والحفاظ في العديد من بلدان العالم الإسلامي، فقد وافق المقام السامي على صدور هذا المصحف إلكترونياً بصورة تطبيق، يتاح تحميله على الأجهزة الذكية، ويحصل من نشره رقمياً الخير الكثير. وعلى ضوء ذلك قام مركز البحوث الرقمية - بتوفيق من الله - بمراجعة هذا المصحف مراجعة شاملة، والتأكد من مطابقته للرسم العثماني الموافق لخط «مصحف المدينة النبوية» الذي تنتهي صفحاته برأس آية، وتَوافُقِ علامات الوقف فيه مع آخر إصدار،

ومراعاة - الاصطلاح الجديد - لتغيير علامة تنوين النصب المتتابع، ولعلامة تنوين الكسر عند الإقلاب، وتمَّ في ضمن ذلك أيضاً مراجعة أسماء السور، وترويسات الصفحات، والتطابق التام بين أسماء السور في الترويسة، وفي مطلع كل سورة، ومراجعة أرقام الصفحات وتسلسلها، وفهرس أسماء سور القرآن الكريم، ثم تمت مراجعته مرة أخرى، وذلك فيما يتعلق بعلامات الوقف، التي تم تعديل بعضها، بحيث تكون متطابقة مع آخر إصدار لـ «مصحف المدينة النبوية» عام (١٤٣٩هـ)، وفق الخط المعالج رقمياً، والذي مجموع صفحاته (٦٠٤) صفحة.

ولكون هذا المصحف لم تَجْر عليه معالجة رقمية وَفْق ما تمَّ على «مصحف المدينة النبوية الموجَّه»، فيتعذَّر برمجياً إضافة بعض الخصائص على المصحف غير الموجَّه، رأى المجمع بأن يَرتقي بمستوى معالجة «مصحف المدينة النبوية غير الموجَّه» إلى درجة مقاربة لمستوى «مصحف المدينة النبوية الموجَّه» والمعالج رقمياً بصورة كاملة، وذلك بفصل كلِّ كلمة من كلمات القرآن الكريم في طبقة واحدة (Layer)، بحيث تكون كلمات كلِّ صفحة محرَّرة، ثم بعمل معالجة

للنُّسخة الرَّقْمية بصورة مناسبة تزول من خلالها النتوءات، والتقطُّع، والتكسُّر، والتحدُّب، الواقع في أصل خط الخطاط؛ للحصول على خط مصحفي نقي، ولإمكان التحكُّم بمقاس خط المصحف الشريف، من حيث التكبير أو التصغير، دون حدوث عيوب، أو مشكلات فنية، ثم بتخفيف حجم كل صفحة من صفحات «مصحف المدينة النبوية غير الموجَّه» بنسبة (٥٠٪)؛ لتقليل سعة تخزين حجم خط المصحف في البرامج والتطبيقات الرقمية؛ مما يساعد في سهولة التعامل معها واستخدامها.

وبذلك غدا المصحف مهيَّأً لنشره رقمياً، وفق مواصفات التطبيقات الإلكترونية، وسيكون أحدَ مصحفي «مصحف المدينة النبوية»، المدرجين في تطبيق «مصحف المدينة النبوية» على نظامي أندرويد وأبل (Android, IOS).

- يزمع المركز على إصدار مجموعة من الفهارس الرَّقْمية الإلكترونية، مثل: فهرس الآيات المتشابهة في اللفظ، وفهرس اختلاف الرسم العثماني عن الخط الإملائي، ومنها: فهرس أسماء سور القرآن الكريم.

وتتكون قواعد بيانات أسماء سور القرآن الكريم، من العناصر الآتية:

- ذكر اسم السورة المشهور وفق ترتيبها في المصحف الشريف.
- بيان وجه التسمية لكل سورة من سور القرآن الكريم.
- إيراد الأسماء التوقيفية لكل سورة من سور القرآن، وتوثيقها بذكر الدليل وتخريجه.
- إيراد الأسماء الاجتهادية لكل سورة من سور القرآن، وتوثيقها بذكر الدليل وتخريجه.
- تلخيص مقاصد وموضوعات السور من خلال عدد من الكتب التي وضعت في هذا الغرض.
- بيان ترتيب سور القرآن الكريم حسب النزول: إذ رتبت في هذا العمل سور القرآن الكريم على ترتيب نزول السورة، وتوثيق ذلك من المراجع المذكور فيها.
- بيان المكي والمدني: تم توضيح السور المكية والمدنية، وذكر أقوال العلماء فيها والراجح في ذلك، وتوثيق ذلك من المراجع المذكور فيها.
- بيان عدد آيات سور القرآن الكريم: تم ذكر عدد آيات سور القرآن الكريم عند علماء العدد واختلافهم في العدد، ووضع ذلك في جدول يوضح اختلافات علماء العدد.

وقد أنهى المركز الفهرس المذكور، مع التوثيق وعمل فهرس المصادر، وتم إدراج ملخص هذا الفهرس ضمن تطبيق «مصحف المدينة النبوية» على نظامي أندرويد وأبل (Android, IOS).

- واصل المركز التهيئة لمشروع المعجم الرقمي المصنَّف لمصطلحات علوم القرآن الكريم، وذلك بجمع نحو (٢٣٠٠) مصطلح من القاعدة الأساسية لبناء المعجم.
- المنتج من المصاحف منذ بدأ التشغيل الذاتي في ١٤٣٩/٢/٢٩هـ حتى ١٤٣٩/١٠/١٥هـ (١٠,١٨٠,٤٨١) نسخة.
- الانتهاء من تنفيذ جميع الملاحظات المطلوبة على النسخة الرقمية المعالجة حاسوبياً من مصحف المدينة النبوية برواية حفص، وتسليمه لوحدة التحضير.

- الانتهاء من تنفيذ جميع الملاحظات المطلوبة على النسخة الرقمية المعالجة حاسوبياً من مصحف المدينة النبوية برواية ورش، وتسليمه لوحدة التحضير.
- تصميم وتطوير نظام إحصاءات الموارد البشرية وفقاً للهيكل التنظيمي للتشغيل الذاتي.
- تصميم وتطوير مجموعة التقارير العامة (لوحة بيانات متابعة أداء الأعمال بالمجمع).
- تنفيذ العديد من الملاحظات والتعديلات على معظم الأنظمة الحاسوبية الخاصة بالشؤون الإدارية والمالية والأنظمة الإنتاجية لتتوافق مع إجراءات التشغيل الذاتي بالمجمع.
- إعداد المواصفات الفنية لمشروع تطوير السنترال والشبكة بالمجمع.
- الانتهاء من تطوير نظام مستودعات الإنتاج التام: وهو نظام جديد بديل للنظام القديم الذي كان يفتقر إلى دقة المعلومات بسبب عدم ارتباطه مع بقية الأنظمة الحاسوبية الأخرى ذات العلاقة.
- الانتهاء من تطوير النظام الإلكتروني لتقويم الأداء الوظيفي آلياً.
- الانتهاء من تطوير نظام تجديد عقود الموظفين آلياً، يتضمن تحديد العلاوات والترقيات بناء على تقويم أداء الموظف بشكل آلي.
- الانتهاء من تطوير أداة برمجية لأتمتة أعمال الاستلام والتسليم المؤقت لتسهيل أعمال وحدة المستودعات.
- استمرار تنفيذ العديد من الملاحظات والتعديلات على الأنظمة الحاسوبية الخاصة بالشؤون الإدارية والمالية والأنظمة الإنتاجية.
- إجمالي ما صرف خلال عام (١٤٣٨هـ) (٤,٣٣٧,١٩٠) نسخة .
- إجمالي ما صرف هدية لضيوف بيت الله الحرام خلال عام (١٤٣٨هـ) (١,٦١٩,٣٠٦) نسخة.
- إجمالي المصروف منذ إنشاء المجمع وحتى نهاية عام (١٤٣٨هـ) (٣٠١,٢٧٢,١٥١) نسخة.

- **الزيارات المهمة والرسمية:**

١. ضيوف خادم الحرمين الشريفين.

٢. وفد باكستاني من إدارة واجبات الأركان لقيادة الجيش الباكستاني.

٣. قائد سرب الطيران الحربي البنغالي .

٤. قيادة الأركان للجيش السوداني.

- **المعارض الداخلية:**

١. المعرض المصاحب لمهرجان الجنادرية.

٢. معرض الكتاب والمعلومات بالجامعة الإسلامية.

٣. معرض الكتاب بجامعة القصيم.

٤. معرض القرآن الكريم (سمايا) بالمدينة المنورة.

من إصدارات

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

ترجمة الأجزاء الثلاثة (قد سمع، وتبارك، وعم) إلى اللغة الأمازيغية

المقاس: ١٤ × ٢١ سم

الرمز: ٤٠٠٠/د ٣٢

ترجمة جزء عم إلى اللغة الفلانية بالحرف العربي

المقاس: ١٤ × ٢١ سم

الرمز: ٥٠٠٠/هـ ١ ف

ترجمة جزء عم إلى اللغة الفلانية بالحرف اللاتيني

المقاس: ١٤ × ٢١ سم

الرمز: ٥٠٠٠/هـ ١ ف ل

ترجمة جزء عم إلى اللغة الأذرية

المقاس: ١٤,٥ × ٢١ سم

الرمز: ٥٠٠٠/هـ ١ أذ

ترجمة جزء عم إلى اللغة السويدية

المقاس: ١٤ × ٢١ سم

الرمز: ٥٠٠٠/هـ ١ س ي

Reflections on the Story of Prophet Shu'ayb *'alayhissalām*

Dr. Amjad ibn Muḥammad ibn Muḥammad Zaydān

The paper deals with the definition of *tadabbur* meaning reflection and meditation, and how *tadabbur* is connected to *tafsīr* and *istinbāṭ* (deduction). The paper has also dealt with the *āyāt* which speak of *tadabbur*, and has mentioned things which help the reader to exercise *tadabbur*.

The paper first narrates the story of Shu'ayb *'alayhissalām* with objectivity, and then mentions the reflections on the story.

The researcher does not claim that his study of the reflections is exhaustive. He have mentioned reflections that he believes to be connected to the subject. It is possible that other researchers may add to his reflections or correct what he has mentioned.

Study of Jābir bin Abdullah's (raḍiyallāhu īanhuma) ḥadīth regarding what part of the Qur'ān was revealed first

Dr. Zaynab bint 'Abd al-Muḥsin al-'Abbād al-Badr

It is a well-known fact amongst the scholars that the first Qur'ānic *ayāt* revealed to the Prophet ﷺ were the beginning of Sūrat al-'Alaq, but this contradicts Jābir's account reported in the Ṣaḥīḥayn in which it is stated that the first revelation contained *āyāt* from the beginning of Sūrat al-Muddaththir. Many explanations have been offered to reconcile the first account with the second.

The researcher has come to the conclusion that Jābir رضي الله عنه had heard the last ḥadīth on this subject and was not acquainted with the first while 'Ā'ishah رضي الله عنها had heard the first hadith and had reported it, and her account takes precedence over the account of Jābir رضي الله عنه.

Balance in the Qur'ānic Methedolgy And Its Effects on Education

Dr. Jamāl ad-Dīn Aḥmad al-Qādiri

The balance found in in the Qur'ānic Methodology is one of the characteristics which Allah *subḥānahū wa ta'ālā* has created in human nature. It answers to one of the aspects of this nature, and guarantees peace and tranquility.

There are a number of comparisons which embody this reality which the researcher has studied to prove through the effects on educational process priority of the Islamic Message to lead humanity to ensure for them the happiness which every sane person longs to achieve.

These comparisons deal with matters related to issues like:

- what is beyond human ken and what is within human ken.
- Divine Will.
- Universal Laws.
- Concepts of Divine Predestination and Human Free Will.
- Man being Allah's servant.
- Man's position vis-a-vis his Creator.
- Divine Revelation & Human Intellect.
- The Concept of Fear of Allah, and finding Peace in remembering Him.

The matter of educational effects is studied with every one of the above-mentioned issues.

The Land Which Allah Will Grant His Righteous Servants In Inheritance

Abū Muḥammad Muḥammad ibn Farīd[1]

On the basis of the wrong notion that there is no place for Muslims in this world which is meant for the unbelievers, many have interpreted the *ayah* 105 of Surat al-Anbiya' in the light of this wrong notion, and they have argued that the land which Allah *subḥānahū wa ta'ālā* has promised to His righteous servants is not in this world, but in *Jannah*. This they have done on the basis of some *āthār*, and their own judgment.

I have collected all these *āthār* and studied them thoroughly, and have proved that the land mentioned in the *āyah* is the land in this world.

(1) Director General, Tafrah Research Establishment, Professor of Arabic Grammar, Ṣafā Institute for Islamic Sciences (Malaysia)..

Abstracts of Arabic Articles

Effect of *al-rasm al-'Uthmani* on the tafsir

Dr. Sāmi ibn Mas'ūd al-Ju'ayd

The paper consists of a preface, an introduction and two chapters.

In the preface the researcher mentions why he chose to write on this topic, and the previous work done in this field.

In the introduction the definitions of tafsir and rasm have been discussed. The question whether the Uthmanic Orthography is of divine or human origin has also been discussed.

In the first chapter, the researcher discusses how the mufassirun paid special attention to the rasm, and regarded it as an integral part of tafsir and explained its various aspects.

In the second chapter, the researcher discusses the effect of the rasm on the meaning. He emphasizes the fact that a knowledge of the rasm prevents the mufassir from making mistakes in the interpretation. It also helps the reader of the Glorious Qur'an and the exegete to solve any problem they might face in understanding it.

At the end of the paper, the researcher has mentioned the important conclusions he has arrived at, and his recommendations.

- Upgrading the programme for automatic contract renewal including the specification of bonuses and promotions based on performance evaluation.
- Upgrading the programme for automatic reception and delivery in the warehouse.
- Corrections and modifications of programmes pertaining to the Directorate of Administrative and Financial Affairs and Production Systems are in progress.
- Total number of copies of the Glorious Qur'ān distributed during the year 1438 AH was 4.337.190.
- Total number of copies of the Glorious Qur'ān distributed amongst the pilgrims during the year 1438 AH was 1.619.306.
- Total number of copies of the Glorious Qur'ān distributed since the inception of the Complex till the year 1438 AH was 301.272.151.
- Official & Important Visits
  - Guests of the Custodian of the Two Holy Mosques.
  - Pakistani Military Delegation.
  - Squadron Commander of the Bangladeshi Air Force.
  - Sudanese Chief of General Staff.
- Book fares in the Kingdom
  - Book fare accompanying the Janādariyyah Festival.
  - Book Fare at Islamic University.
  - Book Fare at Qaṣīm University.
  - Qur'ān Exhibition (Samaya), Madinah.

- The Centre has finished preparing this index, and a shorter version of the index has been included in the Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah app on the Android and IOS platforms.

- The Centre continues to work on the project of preparing a digital dictionary of the terminology of Qur'ānic Sciences. It has so far collected about 2300 terms.
- The number of *Muṣḥafs* published since the beginning of self-employment in 29/2/1439 AH till 15/10/1439 AH is 10,180,481 copies.
- The digitally treated soft copy of the Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah according the reading of Ḥafṣ was returned to the Pre-Press Unit after carrying out all the corrections.
- The digitally treated soft copy of the Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah according the reading of Warsh was returned to the Pre-Press Unit after carrying out all the corrections.
- Designing and developing the statistics of the Department of Human Resources according to the organizational structure of the self-employment scheme.
- Designing and developing a number of reports (display-board of works of the Complex).
- Modifying most of computer systems pertaining to the Administrative and Financial Dept., and the Production Systems to conform to the system of the self-employment scheme.
- Preparing the technical specifications for upgrading the telephone exchange and telephone network.
- Upgrading the production stocking system. The new system replaces the old one which lacked precision as it was not connected to other related systems.
- Upgrading the digital programme for performance evaluation.

the Complex's calligrapher Dr. 'Uthmān Ṭāhā - is used by a great number of *qurrā'* and *ḥuffāẓ* in many countries of the Muslim world. The Custodian of the Two Holy Mosques has approved its digital publication as an app downloadable in smart devices.

In view of this, the Digital Research Centre carried out a complete review of this *Muṣḥaf* in order to ascertain:

that it conforms to the *al-rasm al-'Uthmāni* as used in 'Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah with each page ending in *āyah'*.

if the punctuation marks conform to those in the last edition of Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah', and other technical details.

- The Centre intends to issue a number of digital indexes such as:
  - Index of similar *āyāt*.
  - Index of differences between the 'Uthmānic Orthography and the Normal Arabic Orthography.
  - Index of the *sūrahs* of the Glorious Qur'ān.

The database of Qur'ānic *sūrahs* consists of the following elements:

- the well-known name of the *sūrah*, and its position according to the arrangement of the *sūrahs* in the *Muṣḥaf*.
- why a *sūrah* has been so named?
- the *tawqifī* names of the *sūrahs* (names mentioned by the Prophet ﷺ himself) with authentication.
- the *ijtihādī* names of the *sūrahs* (mentioned by other than the Prophet (ﷺ with authentication.
- A summary of the topics discussed in each *sūrah* based on books specializing in this subject.
- Arrangements of the *sūrahs* in the order of their revelation with authentication.
- the *Makki* and *Madani sūrahs* with a discussion of the views of the scholars.
- the number of the *āyahs* in each *sūrah* with a discussion of the views of scholars on the subject.

The app provides nine recordings of Qur'ānic recitation according to four different readings, and seven of the numerous translations of the Glorious Qur'ān published by the Complex as electronic texts, and recordings of seven Qur'ānic translations published by the Complex.

The app also provides *al-Tafsīr al-Muyassar*, and a number of other books published by the Complex. Some of these can only be browsed while some others can also be downloaded.

The app has many innovative features such as:

- the reason for naming the *sūrahs* in the manner they have been named.
- their names as mentioned in the *aḥādīth*, and other names mentioned by the scholars.
- display Qur'ānic texts in search results, and in books in the 'Uthmānic Orthography specially meant for smart devices.

The app has some unique features not found in some well-known apps such as:

- Enabling the user to follow his wird in the reading of the Glorious Qur'ān, and finish reading it according to the way the sahabah did.
- flipping the pages of the Qur'ān, and automatic turning.
- Option of colouring selected *āyāt* to distinguish them from the rest of the *āyāt* by clicking on them or by reading them.
- The app also has a high-speed and high-precision search engine in languages available in the app.
- It will be launched on Android and IOS platforms in the month of Jumādā al-Ākhirah, 1440 AH (February 2019).

- The Digital Research Centre studied the design and layout by the firm programming the app 'Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah' on the Android and IOS platforms.
- The Centre has prepared the 'Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah with pages not ending in *āyah'* for digital publication. This is in view of the fact that this *Muṣḥaf* – which is the first one written by

4. The Committee has finished the scrutiny of the digital Muṣḥaf according to the reading of *Ḥafṣ* in bold font.
5. Scrutiny of the Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah according to the Reading of Warsh *'an* Nāfi' al-Madani (digitally treated MS).

- The following recordings of the recitation of the Glorious Qur'ān are being checked:

1. The recitation according to the reading of Shu'bah recited by Shaikh Ali al-Hudhayfī has been checked, and corrections have been made. The final check after the correction is awaited.
2. The recitation according to the reading of al-Sūsī recited by Shaikh 'Uthmān Ṣiddīqī has been checked, and corrections have been made.
3. Scrutiny of the recitation according to the reading of Ḥafṣ recited by Shaikh Māhir al-Mu'ayqilī is in progress. The Committee has so far checked up to *āyah* 66 of Sūrat al-Zumur.

- The Complex has signed a contract to design an app of Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah according to Android & IOS systems. Work is in progress, and after it is ready, it will be launched on these platforms.
- The app presents two high precision copies of the Muṣḥaf al-Madīnah al-Nabawiyyah both vertically and horizontically. The app is supported by 13 world languages. The app has the following characteristics:

  - Fast search.
  - Bookmark.
  - Night reading.
  - Sharing pages of the *Muṣḥaf* through sites in the social media.

  Reminding the visitor of reading a particular *sūrah*, and follow-up of his daily, weekly and monthly *wird* (Qur-anic recitation programme).

  Possibility of moving forward on the basis of page, *sūrah*, *rub'*, *ḥizb*, or *juz'*.

- The following translations are undergoing technical check in preparation for printing:
  - Lezig
  - Balochi
  - 'Afār
  - Lingala
- The Malayali translation of the book *Uṣūl al-Īmān* has been received.
- The revision of the Zulu translation of the meanings of the Glorious Qur'ān is about to finish.
- The Scholarly Committee for the Scrutiny of the *Muṣḥaf* not only checks printed copies of the *Muṣḥafs*, and the recitations of the Glorious Qur'ān, but also printed and hand-written copies of the Glorious Qur'ān received from official Saudi sources, or from outside the Kingdom for revising them and writing reports about them.

  The Committee replies to queries regarding the scrutiny of the *Muṣḥafs* and their printing, and regarding the *rasm*, *ḍabṭ* and punctuations of the *Muṣḥaf*.

  The Committee also checks samples of all printed and recroded *Muṣḥafs* published by the Complex in order to ascertain the correctness of the Qur'ānic text.

  The Committee also participates in conducting the *Tajwīd* Courses every year in the Prophet's Mosque according to the Reading of Ḥafṣ *'an* 'Āṣim (Ṭarīq al-Shāṭibiyyah). This Course has been going on since 1419-1420 AH. The number of the graduates of this Course during the past 20 years is 435.
- The Committee has completed scrutiny of the following *Muṣḥafs*:
  1. The digital *Muṣḥaf* according to the Reading of al-Bazzi.
  2. Initial scrutiny of the digital *Muṣḥaf* according to the Reading of Qunbul.
  3. The Committee has finished the scrutiny of the *Muṣḥaf* according to the reading of Warsh prepared for printing.

News From the Complex

- The work of editing the book Ithāf Fuḍalā' al-Bashar bi-Qirā'āt al-Arba'ata 'Ashar by al-Dumyāṭi is in progress in accordance with the following programme:

  1. Writing the Introduction which will contain the following elements:
  - A detailed study of the author and the book.
  - Description of the MSs used in editing the book.
  - Description of the methodology used in the Introduction.
  2. Scrutiny of the footnotes of the book.
  3. Solving some of the problems in the edited text in the light of the fifteen MSs used in editing.
- The book *Mu'jam Kuttāb al-Muṣḥaf al-Sharīf* is now being digitalized.
- The book *al-Mu'jam al-Muyassar li-Mawḍu'āt al-Qur'ān al-Karīm* is now undergoing the final revision prior to its being typeset for printing.
- The Centre continues to participate in the Academic Committee of the Symposium on Teaching the Glorious Qur'ān to the Differently-abled People.
- The books *Bibliography of the Translations of the Glorious Qur'ān into Slavic Languages*, and *Cyclopedia of European Authors Who have Written About the Glorious Qur'ān* have been submitted to the Directorate of Technical Affairs for printing.
- Technical checking of the audio translation of the meanings of the Glorious Qur'ān into Oromo is complete, and is now being revised.
- Contract for translating the meanings of the Glorious Qur'ān into Serbian has been signed.
- The translator of the Hebrew translation Dr. As'ad Bussool has finished the pre-press revision, and will soon go to the press.

بسم الله الرحمن الرحيم

In the Name of Allah
the Most Gracious, the Most Merciful

Journal of QUR'ĀNIC RESEARCH AND STUDIES

Issue 20 Volume 12 2019

Contents

News From The Complex 5

Abstracts of Arabic Articles 12

Notes for Authors

The **Journal of Qur'ānic Research and Studies** welcomes serious scholarly contributions in Arabic and English on the Glorious Qur'ān and its studies, the translation of the meanings of the Glorious Qur'ān and editing old manuscripts related to it.

Contributions should conform to the following:

- The length of contributions should normally be between 6000 and 12000 words.
- Three copies should be submitted, double-spaced with ample margins on one side of A4 sized paper.
- A soft copy of the contribution must be submitted. Text should be a Microsoft Word 2000 document (or a more recent version). Authors are welcome to send their contributions by e-mail, formatted as a Word attachment.
- A brief C.V. relevant to the scope of the journal should be submitted detailing the full contact information of the author and their institutional affiliation.
- An abstract of no more than 200 words should accompany the manuscript.
- Notes should appear page by page as they occur, i.e. in footnotes not endnotes. They should be numbered page by page.

The editorial board will consider original contributions set within sound theoretical or methodological frameworks, provided the material presented is rigorous. Submission of a contribution will be taken to imply that it has neither been published nor is being considered for publication elsewhere.

Contributors will be financially rewarded, receive five copies of the issue in which their contribution appears and twenty offprints of their contribution.

Transliteration System of Arabic Characters

ء	ʾ	ض	ḍ
ا	ā	ط	ṭ
ب	b	ظ	ẓ
ت	t	ع	ʿ
ث	th	غ	gh
ج	j	ف	f
ح	ḥ	ق	q
خ	kh	ك	k
د	d	ل	l
ذ	dh	م	m
ر	r	ن	n
ز	z	ه	h
س	s	و	w as a consonant and ū as a vowel
ش	sh		
ص	ṣ	ي	y as a consonant and ī as a vowel

Short vowels are to be transliterated as follows:
a for fat.hah (ـَ), i for kasrah (ـِ) and u for dammah (ـُ).
ة : is transliterated as h, but t when mu.dāf.
الـ : is transliterated as al whether shamsiyyah or qamariyyah.

The **Journal of Qur'ānic Research and Studies** encourages scholarly research and promotes publication in the field of the Glorious Qur'ān and its studies with a view to enriching the Qur'ānic studies library further and bringing specialists to get involved together in this field of study.

To achieve its aims, the journal welcomes contributions in the following areas: Qur'ānic studies, editing of related old manuscripts and studies concerning the translation of the meanings of the Glorious Qur'ān.

Editorial Board

Supervisor General

His Excellency Dr. 'Abdullaṭif ibn 'Abd al-'Azīz ibn 'Abdulraḥman Āl al-Shaikh Minister of Islamic Affairs, Da'wah and Guidance Supervisor General of the Complex

Editor in Chief

Professor Muḥammad Sālim ibn Shudayyid Al-'Awfī

Secretary-General of King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex

Deputy Editor in Chief

Professor Mu'īdh ibn Musā'id Al-'Awfī

Deputy Secretary General for Scholarly Affairs at King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex

Editor

Dr. 'Abd al-Ghafūr 'Abd al-Ḥaqq Al-Bulūshi

Members

Professor Aḥmad ibn Muḥammad Al-Kharrāṭ

Professor 'Imād ibn Zuhayr Ḥāfiẓ

Dr. Hāzim ibn Sa'īd As-sa'īd

Dr. Muṣṭafā ibn 'Umar Ḥalabī

Editor in Chief

Journal of Qur'ānic Research and Studies

King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex

Madinah, P.O. Box 6262

Kingdom of Saudi Arabia

Telephone/Fax: 00966 (14) 8615600 Ext. 1810

journal@qurancomplex.org

www.qurancomplex.org

ISSN 1658-2624

©All rights reserved for King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex

King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex in Brief

Inauguration

In response to the increasing need of Muslims the world over for copies of the Glorious Qur'an, assuming the pioneering role of the Kingdom of Saudi Arabia in serving Islam and Muslims, and realizing the importance of serving the Glorious Qur'an, the late Custodian of the Two Holy Mosques, King Fahd ibn 'Abd al-'Azīz, laid the foundation stone of King Fahd Glorious Qur'an Printing Complex in Madinah in 1403 AH (1982) and inaugurated it in 1405 AH (1984) as a body dedicated to carrying out this honourable task. On laying the foundation stone he said:

> *In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful. With the blessing of Allah, the Exalted, the Able [do I lay this stone].... We pray that this project will be a blessing for the service of the Glorious Qur'an, firstly, and Islam and Muslims, secondly. I pray to Allah, the Exalted, the Able, to grant us help and success in our religious and worldly affairs, and to make this project successful in fulfilling what it has been set up for, namely, the Glorious Qur'an, so that Muslims may benefit from it and ponder on its meanings.*

Aims of the Complex

Prominent among the aims of the Complex are: printing the Glorious Qur'an and recording it on audio media in the modes of reading well-known in the Muslim world, translating its meanings, furthering tafsir and Qur'anic studies, undertaking Islamic research and studies, and catering to the needs of Muslims, inside and outside the Kingdom, for the different publications of the Complex and making them available on the internet.

Supervision of the Complex

The Ministry of Islamic Affairs, Da'wah and Guidance supervizes the Complex. His Excellency Shaikh Dr. 'Abdullaṭif ibn 'Abd al-'Azīz ibn 'Abdulraḥman Āl al-Shaikh is the Supervisor-General of the Complex and the head of its Higher Committee. The implementation of the Complex's policies and the achievement of its aims are overseen by the Secretary-General of the Complex, Prof. Muḥammad Sālim ibn Shudayyid al-'Awfi.

The Higher Committee

The higher committee of the Complex sets its general policies and aims, oversees their implementation, and endorses the rules and regulations of the Complex.

The Scholarly Board

The scholarly board of the Complex looks into scholarly matters in line with the Complex's aims and suggests ways to advance them. It also considers research and issues of scholarly nature, and reviews the reports presented by specialized centres within the Complex.

Figures and Achievements

- The Complex comprises an integral line of production including the scholarly bodies, which work on preparing and producing its publications, and state-of-the-art printing, CD recording equipment.
- The Complex stands out with its advanced quality control system, applied rigorously at all production stages. There are almost 462 personnel in the quality control department responsible for ensuring that publications are free from defects.
- The Complex produced more than 300 important titles in the fields with which it is concerned, 74 of which are translations of the meanings of the Qur'an in different languages. Work is on-going on producing more useful publications.
- From this year (1439 AH), the annual output of the Complex will fluctuate between 18 and 20 million copies.
- The Complex distributed tens of millions of its publications all over the world as a present from the Kingdom of Saudi Arabia. About 2 millions copies are distributed annually as part of the Custodian of the Two Holy Mosques' gift to the Pilgrims of Allah's House.

Support of the Complex

The Complex receives constant support from the Custodian of the Two Holy Mosques, King Salmān ibn 'Abd al-'Azīz, his Crown Prince, HRH Prince Muḥammad ibn Salmān ibn 'Abd al-'Azīz - May Allah keep and preserve them.

Kingdom of Saudi Arabia

Ministry of Islamic Affairs,
Da'wah and Guidance

King Fahd Glorious Qur'ān Printing Complex

Journal of Qur'ānic Research and Studies

A Refereed Journal Specializing
in the Glorious Qur'ān and its Studies

Issue 20 • Volume 12

1440 AH - 2019